سلسلة الأدب

خرائط للهوج

رواية

fb/mashro3ak

سهام يومي

خرائط للموج

fb/mashro3pdf

برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام
د . ناصر الأنصارى

تصميم الغلاف
د . مدحت منولى

الإشراف الطباعى
محمود عبد المجيد

الإشراف الفنى
على أبو الخير
[illegible]
حبرى عبد الواحد

الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

fb/mashro3pdf

خرائط للموج

رواية

سهام بيومي

fb/mashro3pdf

خرائط للموج

لوحة للفنان: مصطفى عبد الوهاب

كإضافة جديدة لمكتبة الأسرة قدمنا على غلاف كل كتاب لوحة تشكيلية لفنان مصرى معاصر من مختلف المدارس والأجيال وهذه اللوحات لا تعبر بالضرورة عن موضوع الكتاب.

وتتقدم مكتبة الأسرة بالشكر لقطاع الفنون التشكيلية بوزارة الثقافة ومتحف الفن المصرى الحديث على هذا التعاون.

بيومى ، سهام .
خرائط للموج: رواية/ سهام بيومى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
٢٨٨ ص ؛ ٢٠ سم. (مكتبة الأسرة؛ ٢٠٠٧ سلسلة الأدب).
تدمك: ١ - ٩٠٨ - ٤١٩ -٩٧٧.
١- القصص العربية .
أ - العنوان . ب - سلسلة.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٢٦٣ / ٢٠٠٧

I.S.B.N 977-419-908-1

ديوى ٨١٣

fb/mashro3pdf

توطئة

تعتبر القراءة منذ فجر التاريخ أول وأهم أدوات المعرفة، وعنصرًا لا غنى عنه من عناصر بناء الحضارة، فمنذ نقش حكيم مصرى قديم وصية لابنه على ورق البردى: «يا بنى ضع قلبك وراء كتبك، واحببها كما تحب أمك. فليس هناك شىء تعلو منزلته على الكتب»، ومذ أطلق د. طه حسين مقولته: «إن القراءة حق لكل إنسان، بل واجب محتوم على كل إنسان يريد أن يحيا حياة صالحة» ومذ كتب العقاد جملته الآسرة: «إنما أهوى القراءة؛ لأن عندى حياةً واحدةً فى هذه الدنيا، وحياة واحدة لا تكفينى»، ومذ قررت السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** تحويل الحلم إلى واقع مؤكد منذ ستة عشر عامًا: «إن الحق فى المعرفة يتصدر أولويات العمل، ولا يقل عن الحقوق الصحية والاجتماعية»، ومسيرة القراءة للجميع تمضى بخطوات ثابتة وواسعة لتحقيق أهدافها فيلتف القراء حول أضخم مشروع نشر فى الوطن العربى، ويطالبون خلال السنوات السابقة باستمراره طوال العام، وها هو المشروع يقرر الاستمرار طوال العام بعد انتهاء فترة العطلة الصيفية ليتحقق شعاره بالفعل.. **القراءة للحياة**.

لقد استطاعت **مكتبة الأسرة** خلال مسيرتها تمكين الشاب والمواطن من الاطلاع على الأعمال الأدبية والإبداعية والدينية والفكرية، التى شكلت وجدانه وحضارته، وعملت على إشاعة الأفكار

fb/mashro3pdf

التنويرية الحقيقية، التى عكست جهود التنوير للشعب المصرى فى العصر الحديث، وحرصت على تقديم أحدث الإنجازات العلمية بنشر أحدث مؤلفات العلماء التى تواكب التطور العلمى والتكنولوجى فى العالم، وأقامت جسرًا مع الحضارات الأخرى من خلال إعادة طبع كلاسيكيات ودرر العالم المترجمة، التى تعرض إنجازات الشعوب الأخرى فى المجالات الأدبية والفكرية والعلمية، وعملت على تأكيد الهوية القومية من خلال نشر التراث المستنير العربى والإسلامى، الذى مَثل نقطة انطلاق مضيئة فى مسيرة الإنسانية.

لقد أعادت **مكتبة الأسرة** للكتاب أهميته ومكانته كمصدر مهم وخالد من مصادر المعرفة، وأحدثت عبر عطائها المتميز وبنائها الدءوب الحقيقى صحوة ثقافية بالمجتمع المصرى تؤكدها المؤشرات العامة والأرقام، التى يتم رصدها وتحليلها منذ بداية المشروع، فالأرقام تسجل ارتفاعًا ملحوظًا فى نصيب المواطن المصرى من القراءة، وإصدار ملايين النسخ من الكتب ونفادها الفورى من الأسواق، وازدياد العناوين المطروحة عامًا بعد عام.

لقد بلغت عناوين **مكتبة الأسرة** أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة عنوان فيما يربو عن واحدٍ وأربعين مليون نسخة، كنتاج فكرى وإبداعى لعدد من الكتاب والمترجمين والرسامين يزيد عن ألفى مبدع ومفكر.

وما زالت **مكتبة الأسرة** التى أصبح لها فى كل بيت ركن مميز تواصل تقديم إصداراتها للعام الرابع عشر على التوالى، كرافد رئيسى من روافد القراءة للجميع، وصرح شامخ فى المكتبة العربية، يفتح نوافذ جديدة كل يوم على آفاق تنشر الخير والمعرفة والجمال والحق والسلام.

مكتبة الأسرة

fb/mashro3pdf

تقديم

«خرائط الموج»، هى الرواية الأولى لسهام بيومى، تتداخل فيها الأزمنة، وتشتجر الشخوص، وتتحاور الأبنية، فى منظومة حكائية شديدة التشويق، بارعة الإثارة.

المكان فى الرواية، يكاد يكون هو البطل الفاعل فى الأحداث، والمكان هنا هو القاهرة، بعبقها القديم، وسحرها الغامض، وأبنيتها الناطقة بالرسوم والأحداث. فالبطلة فى «خرائط الموج» تعمل بالهندسة المعمارية، وتهتم اهتمامًا خاصًا، بمعمار البنايات، ومعمار النفس البشرية شديدة التعقيد، فى علاقاتها بالآخرين، حبًا وكراهية، وصداقة، وإخاءً.

وقد ساعد المؤلفة على الإتيان بهذه البنية المعمارية، اهتمامها الفعلى بأحياء القاهرة، حيث قدمت قبلا عددًا من الدراسات الجادة عن أحياء القاهرة، وبحثًا عن شارع قصر النيل، هذا غير كتابها المتميز عن مدينة «بورسعيد».

فى هذه الرواية استطاعت الروائية سهام بيومى أن تستفيد من

fb/mashro3pdf

لغتها الصحفية؛ لتقدم للقارئ لغة سردية بعيدة عن التعقيد، من خلال مزج فنى بارع بين ما هو أدبى، وما هو اجتماعى.

تعنى سهام بيومى فى إبداعاتها، بالبحث عن مفردات الواقع، وتتقب عن الموروث التاريخى، شفاهيًا كان أم مدونًا، فى محاولة منها لإعادة صياغته وتوظيفه، فى تضفيرة فنية تثرى النص، وتفتّحُ آفاقًا جديدة له.

سبق هذه الرواية، مجموعة قصصية عنوانها «الخيل والليل»، وتلتها روايتها البارزة «أيام القوطى».

ومكتبة الأسرة تقدم لها هذا العام روايتها «خرائط الموج» عن طبعتها الأولى الصادرة عام ١٩٩٧.

fb/mashro3pdf

الجزء الأول

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(١)

أهبط إلى الميدان ، وتدور عيناى فى أنحائه ، وأرى تلك البنايات المرتفعة ذات الخطوط المستقيمة والواجهات الزجاجية المستوية العاكسة ، تتخلل الأبنية القديمة بخطوطها الدائرية وأفاريزها البارزة وحوافها المستديرة ، بشبابيكها المرتفعة الواسعة والشرفات الحجرية والخشبية التى تصدر طرقات رخوة عند السير عليها .. تتراقص طائرة ورقية بمحاذاة الحواف المسلحة ممتدة من خيط لا مرئى ، تزدحم البواكى بالمحلات والأرصفة بالمارة ، وقوافل سائقى الدراجات يشقون طريقا وسط زحام العربات المسرعة .

.. الحديقة الصغيرة فى منتصف الميدان ، يحيط بها سياج واطئ من شجيرات منسقة ، أوراقها عطشى متربة ، وأمام النصب التذكارى للجندى المجهول ترتفع مسلة حجرية مسنونة ، ممتشقة ومتمركزة فى فضاء الميدان .

أرنو إلى حيث البحر ، وتمتلئ رئتاى بشهيق مشبع برائحة اليود . وبرودة منعشة ، حيث ينسرب البحر إلى خلايا المدينة ويتجلى فى تضاريسها .. يكمل الموج دورته جاذبا إياى من أعماق بعيدة ليلقى بى على شواطئها . تتكشف مساحات للرؤى تضيق وتتسع تباعا مع حركة الموج .

fb/mashro3pdf

أتوقف فى ركن الميدان عند الشوارع التى تتداخل بداياتها ، تنفذ إلى أنفى رائحة السمك المشوى الطازج الذى تبددت أدخنته ، حيث المطعم الصغير الذى كنا نعرج إليه وقت الظهيرة ، نتسلى بالتهام قطع السلاطة الخضراء وأنواع من المخللات والخبز الطازج المغموس فى الطحينة ، حتى يأتى الجرسون بأطباق السمك ونحن نواصل حديثا لا ينتهى .

أنزلق إلى الشارع وسط الزحام ، ثم أعرج إلى شوارع أخرى ، وأعود حيث كنت ، ولا أستطيع أن أجد المطعم وسط الفاترينات الزجاجية المتراصة ، أصطدم بصناديق الكرتون والسلع المعروضة أمام المحلات وطاولات الباعة الجائلين على الأرصفة .. أوغل السير فى الشوارع التى تمتد فى خطوط مستقيمة ، وتقاطعات قائمة الزوايا ، ثم تنتهى بمثلثات تتجه رؤوسها للشاطئ البعيد ، ولا أستطيع تحديد الاتجاه إلى الميدان .

يوسف مازال يقدح ولاعته وهو يحملق فى الخرائط القديمة ، يشير إلى علامات وكتل من الألوان والخطوط المتعرجة ، ويخاطب مدائن ومعالم زايلتها منذ زمن ، عندما تلقيت خطابه الأخير قلت سأكتب إليه ، ثم أودعته ملفا مليئا بالأوراق .

هل ما زال يذكر المعالم والتواريخ وهو يعبر بوابات العمر إلى ممالك تاهت فيها البدايات ؟ أم يلوذ بالشواطئ حين يذكره البحر بفلول الراحلين ؟ وهل يذكر الفاتحة بين الرؤية والمتاهة أم اختلطت فيهما العلامات ؟

يوسف !

أهتف حين ألمحه وسط الزحام ويغيب عن عينى ، ثم أراه يرانى عند تقاطع الطرق مشيرا بيديه ، يتجه نحوى وأسرع إليه ، ويغيب ثم نلتقى عند تقاطع آخر ، نتوقف أمام اندفاع المارة ونقترب ونتباعد ، نصطدم بالمارة من الاتجاه المقابل

fb/mashro3pdf

ونبتعد ثم نلتقى ، نواصل السير بينما إعلانات النيون تضىء وتنطفىء متتابعة على وجهه بألوان شتى تجهد عينى ، ومزيج من الروائح يتجمع ويتكاثف فأشعر باحتقان فى حلقى ، وكنت أرى شفتيه تتحركان وأسمع صوته ، لكنى لا أدرى ما يقول .

الشاطئ ينبسط أمامنا ، وتبتلع الرمال دبيب أقدامنا ، وبضع مظلات ومقاعد لم ترفع من مكانها بعد ، وقد تناثرت على الرمال مخلفات النهار من معلبات وزجاجات فارغة ، وأكياس بلاستيك وأجزاء مهشمة من لعب أطفال ، وبقايا أطعمة وأعقاب سجائر .

يلتفت إلى وهو يتقدمنى قائلا : لم تتغيرى كثيرا .

وكنت ألمح الشعيرات البيضاء المتسللة إلى رأسه ، وعوده الذى امتلأ قليلا، وعندما قال إنه يستطيع - مقدما - أن يخمن كل شئ ، قلت له : ومازلت كما أنت .

خشونة الرمال تؤلم أصابعى ، لكنى أواصل الحفر تحت القبة الرملية ، وأخشى أن أتوقف فيصل هو أولا ، أنحنى أكثر أمام القبة التى زيناها بالقواقع والأصداف ، وحددنا خطوطا عليها بنتف من الأعشاب ، وغرسنا فى قمتها عودا من البوص ، حتى تحمر يدى وتخمش أصابعى من الرمال الرطبة الخشنة ، ثم أشعر بملمس يده دافئة لدنة وهى تمسك بيدى ، تتماسك أيدينا بشدة ونتجاذب بشدة ونحن نضحك حتى تتصدع القبة الرملية ، تنفلت أيدينا وننقلب على ظهرينا وتتعالى ضحكاتنا ، ننهض ونقفز عاليا ، فنقع فى الحفرة وتتناثر الرمال حولنا ثم نلقى بأنفسنا للموج .

أغمض عينيه وقال : سأصبح بمبوطيا ، أشق البحر بالفالوكة وأصعد البواخر الكبيرة فى الميناء .

fb/mashro3pdf

وأغمضت عينى وقلت : وأنا سأصطاد السمكة التى تحمل فى جوفها خاتم سليمان .

الأعمدة الحديدية التى كانت مقامة فوقها الكبائن مشرعة فى الفراغ ، وقد تقشر طلاؤها وتسلل الصدأ إلى أجزاء منها ، وكان ذراعه يلتف حول أحدها وهو يدور حوله ، بينما أقف مستندة إلى عمود آخر ، والموج يدفع ببطء بقعة زيت طافية باتجاه الشاطئ .

يقول وهو مستمر فى دورانه : لم تصطادى السمكة ، لكنك ظللت تبحثين عن الخاتم .

- ربما فى مخازن التذكارات القديمة .

- أو فى مخبأ تحت بيت قديم .

- أو خرائط قديمة .

- قديـ يـ يـ يـيـ ما ا ا اه .

أزدحم بالتواريخ وأبتعد ، فيلاحقنى زخم المسافات ، ينحصر العالم ما بين حجرة فى فندق صغير وحدود اندفاعات الموج على الرمال ويوسف ممسوس بالخرائط القديمة ، يبحث فيها عن حدود الشواطئ ، وأبحث فيها عنى وعنه .

أتأمله بوجهه المائل أمامى المشرب بالسمرة وشعره الملبد بالرطوبة فى حلقات من الخصل ، وعينيه اللتين تضيق حدقتاهما وهو يرنو عبر البحر مائلا برأسه قليلا للخلف ، يتراجع بضع خطوات وهو يقف أمام البحر رافعا ذراعيه .

- من هناك كنت أنظر إلى الشاطئ من زوايا مختلفة ، ويخيل إلى أحيانا أننى أرى أشياء غير تلك التى أعرفها جيدا ، فأعود إليها من جديد .

يبدأ العد التنازلى ونحن نتدافع فى أرجاء المنزل يختار كل منا مكانا للاختباء ، أقف خلف بوابة المنزل ، وأتأكد أن أحدا لن يرانى ، ألمح من خلال

fb/mashro3pdf

فرجة فى محور الباب بانع البالونات ، أتسلل من مكمنى ، وأمضى وراءه مع الأولاد والبنات من شارع إلى شارع ، أختار بالونة زرقاء وأمسك بخيطها ، أتبعها بعينى وهى تتطاير مشدودة مع الهواء ، وأسير فى اتجاه الخيط المشدود ، ينفلت الخيط وتنطلق بعيدا ، تتعلق بها عيناى وهى تعلو وتصغر تدريجيا حتى تصبح نقطة ضئيلة زرقاء تذوب زرقتها فى زرقة السماء ، أنتبه أخيرا وأنظر حولى ، أرى بيوتا غير تلك التى أعرفها ، وشوارع غير تلك التى أعرفها ، أتلهى برؤيتها ومراقبة الناس وواجهات المحلات حتى ينال منى التعب فأتذكر بيتى وأبدأ فى البكاء .

- أنت لا مبالية ومستهترة .

أود أن أحكى له عما رأيت ، وأصف الناس والأماكن والأشياء وهو يمسك بكتفى ويهزنى .

- أزعجتنا ، وسببت القلق للجميع .

مازال نصف البرتقالة بيدى ، وأود أن أحكى له عن المرأة التى أعطتها لى وكانت تمسك بيدى الأخرى وهى تسأل عن العنوان ، وعن الأطفال الذين تجمعوا حولى يتأملوننى وأنا أنظر إليهم ، وأود أن يواصلوا اللعب ويشركونى معهم .

- ألم تفكرى فى الآخرين ؟

تغمر المياه ساقى وأنا أسير بمحاذاة الشاطىء ممسكة بأطراف ثوبى ، تندفع الأمواج إلى الشاطىء فتغمر الرمال ثم تنحسر فى خطوط متعرجة ، وهو يسير بمحاذاتى على الرمال ، يدفع بقدمه علبة فارغة .

- ماذا لو رسمنا الخرائط ..

fb/mashro3pdf

- من الخيال .

- من الذاكرة .

أتأمل الخرائط واحدة بعد أخرى ، تختلط المعالم وتتداخل الأزمنة ، تهتز الأوراق محدثة أزيزا وارتعاشا يتسلل إلى أعضائى ، أمسح عينى وأرفع رأسى ، يطالعنى وجه أبى وهو يقف أمامى ، ينظر إلى الأوراق المبعثرة حولى ، تلتقى عيناى بعينيه فى نظرة سريعة ، يسألنى : ماذا تفعلين بكل هذا ؟!

- أحاول أن أرتبها حتى أعود إليها بسهولة .

أفسح له مكانا وأدعوه للجلوس ، يقول إنه سيذهب ليصلى العشاء قبل أن يدركه النوم ، يرفع إصبعه قائلا : هل سمعت صوت الأذان ؟

ترتكز عيناى على الخارطة ، مزدحمة بالأسماء والمسميات ، مجسدة بالمعالم ، يتعالى ضجيجها ويتعالى حيث تترامى أمامى القاهرة ، بضجيجها اليومى وأضوائها الليلية ، بكل عمقها وتفرعاتها وامتدادها .

أحملق فى الأزمنة وأعمد العمر بعبق الدروب ونكهة الشوارع ، حين تتجلى لى وجوهها ، مدينة المدن والممالك التى لفتها فى طياتها وذابت فى حواشيها بين الرؤى والمتاهات ، أفتش فيها عنها وأعوذ بها منها ، تندلع الروح فى تشققات خطوط خرائطها وتتناسخ فى معالمها ، أحاول رسم خرائطها من جديد ، أستشعر ملمس الأرض تحت قدمى حين تدور ، وأصداء البحر ، حين يفور بمياه نيلها ، ينداح الموج ويخبو الزبد ، تاركا حبيبات الرمال ترسم حدود الشواطئ .

ألتقط عودا من البوص، مازال يعلق فى طرفه خيط السنارة ، أسلخ منه عصا ويسلخ هو عصا أخرى ، ويبدأ كل منا فى رسم الخارطة على الرمال ، نحدد

fb/mashro3pdf

المعالم والعلامات والأرقام والتواريخ ، تتفرع الطرق والدروب وتستوى الأحياء ، نتجول فى شوارعها ، ونتوقف أمام معالمها متأملين ، تستغرقنا الرؤى ونمضى فى اتجاهات شتى ونحن نقترب ونتباعد ، وعينا كل منا معلقتان بالآخر ، حتى اتلفت حولى ولا أراه ، أناديه وأسمع صوته وهو يناديني ، إلى أن يتباعد الصوت ويتلاشى الصدى ، أبحث عنه فى كل مكان ، أتذكر أثناء تجوالى الأماكن التى توقفنا فيها والعلامات التى حددناها والمعالم التى رأيناها والكلمات التى تبادلناها ، أتوه فى الخارطة ولا أستطيع الخروج منها ، وأعلم أنه فى تلك اللحظة موجود فى مكان ما منها ، وأنه ربما يبحث عنى ، أسير حتى يتسلل التعب إلى ولا أستطيع المواصلة .

أبدل ثيابى وأجمع الأشياء فى الحقيبة ، وأغلقها بعد أن أتأكد من كل شئ ، يرن جرس التليفون وأنا أغادر الحجرة وأغلق بابها ، أسمع الرنين متواصلا وأنا أعبر ممرا طويلا ، أنظر إلى ساعتى وأضغط زر المصعد ، وما زال الرنين يتواصل .

يقول موظف الاستقبال : شخص ما سأل عنك منذ قليل .

ينظر باتجاه الباب مشيرا بيده : ربما يمكنك اللحاق به .

وعندما لا أتحرك أو أنظر تجاه نظرته ، يقول : لم يترك أى بيانات ، قال إنه سيعود ثانية .

مساحات من الرمال ممتدة بطول الشاطئ الخالى وقد غمرت المياه أطرافها فى شريط متعرج ، تغوص قدماى فى الرمال الساخنة فأرفع ساقى بسرعة ، وأنا أخطو وجسدى يهتز ، تتجمع الرمال بين أصابع قدمى وتلتصق بساقى ، أنظر إلى تلك المسافة التى قطعتها وآثار قدمى غير المحددة، ثم أواصل، يلوح لى عن بعد مبنى الفنار ، فأتجه إليه ، أتوقف أمامه بارتفاعه المذهب

fb/mashro3pdf

واستدارته وأحجاره العتيقة ، اقف فى مدخله المعتم ، ثم أخطو للداخل . أستشعر ملمس الحجر البارد . أصعد السلم الحلزونى ذا الدرج المرتفع . تزداد العتمة كلما صعدت حتى لا أستطيع أن أميز ما حولى . يتسلل بصيص من الضوء يزداد تدريجيا ، أعبر إلى الشرفة الدائرية الضيقة . أنظر تجاه البحر المترامى ، حيث يغيب الأفق فى زرقة متدرجة بين البحر والسماء ، أدور فى اتجاه المدينة ، أتأمل ملامحها وتضاريسها وأمعن النظر حين يتسرب إلى يقين بأنه موجود الآن بمكان ما منها . ويخيل إلى أننى ألمحه كلما أمعنت النظر فى بقعة ما ، حتى يتلاشى اليقين فأنتقل إلى بقعة أخرى .... أتجه نحو السلم . أسمع صوته يتردد بين جنباته فأهبط مسرعة .

أتلفت حولى فى الشاطئ الخالى ، سكون تام يتردد فيه ، وشيش الموج برتابة . ورمال ازدادت سخونة . أتقافز فوقها مسرعة وأنا أنزع عنى ثيابى، ثم ألقى بنفسى وسط الأمواج ، أغوص طويلا وأسبح تحت الماء . ثم أقفز إلى السطح وأدفع الماء من فمى ، أرى أننى قطعت شوطا طويلا .. أستلقى على ظهرى فوق صفحة المياه ، وأترك نفسى للأمواج تتأرجح بى تحت سماء صافية الزرقة . ينتابنى الخوف للحظة أن ينقلب البحر فجأة ويبتلعنى فى جوفه ، أو تأخذنى الأمواج بعيدا . وأشعر بفرح غامر ورغبة عارمة أن أبتعد بعيدا على هدهدة الموج .

ألمح يوسف واقفا على الشاطئ أمام لوحة مثبتة على حامل ، ممسكا باليتة الألوان ، ورافعا يده الأخرى الممسكة بالفرشاة ، مشيرا إلى أن أثبت كى يستطيع أن يرسمنى .

fb/mashro3pdf

(٢)

تزدحم الخرائط بالخطوط والاسماء ، تختلط العلامات وتتداخل المعالم والأزمنة، ولا أدرى على وجه التحديد النقطة التى مضى منها كل منا ، أقف على حدود الخارطة ، أتناول عودا من البوص وأغرس طرفه فى خطوطها وأرفعه ، فتتلملم خيوطا معلقة فى الهواء ، أنشرها وأطرحها بحرا ، فتصطاد السمكة التى تحمل فى جوفها خاتم سليمان ، ينتفض الجنى ، ولا يستطيع أن يعيد تلك الخطوط إلى مساربها فأطلب منه فنجانا من القهوة وقرص أسبرين .

– تبدين متعبة .

أرفع رأسى ، وأراه واقفا أمامى :

– يوسف ؟!

– أناديك ولا تسمعين ؟

– ظننتك غادرت الخارطة .

– لم أبرحها قط .

أحملق فيه وهو يؤكد ذلك ، ينتابنى شعور بالدوار ، أقول له إننى وصلت حدود الخرائط ، وجبت الشواطىء البعيدة ، واستشففت مياه البحر و.....

يشير إلى الأوراق المبعثرة حولى : كل هذا ؟

fb/mashro3pdf

تنتقل عيناه بينها ، يلتقط منها كلمات يتمتم بها ، أشير إلى تلك الخارطة التى رسمناها معا ، وحددنا عليها علامات كى لا ننوه .

– أما زلت تذكرين ؟

الدهشة الأولى وفرحة الاكتشاف ، نسير متقطعى الأنفاس ، مبهورين بالمرئيات ، خيوط ممتدة ، فى نسيج لأزمنة مترامية ، يصبح الحد الفاصل بينها تجليات للرؤى والولوج إليها دخول إلى مرايا متداخلة ، أبنية حجرية عتيقة تنفث التواريخ من مسامها ، وتشى بحضور الموجودات ، نتوقف عند مشارف الرؤى وحد الانبهار ، كم من الوقت مضى ونحن نحاول بسذاجة اليقين أن نقيم منها عوالم ، ونصوغ واقعا يتمادى بنا ليصبح الآتى ، هل كان الزمن يبتلعنا فيما نظن أننا نراوده ؟

– فقط أود أن أعرف ، ما الذى تسعين إليه من وراء ذلك ؟

يفاجئنى السؤال على هذا النحو .

– أشياء كثيرة ، لا أعرف كيف أصفها على وجه التحديد ، أشياء قد أعرفها فيما بعد ، لكننى أستشعرها على نحو ما .

خرائط للمدينة فى مراحل زمنية متتالية ، خرائط تفصيلية للأحياء والشوارع ، تتكاثر فيها المعالم ، أرتبها حسب التتابع الزمنى ، أتابع ما طرأ عليها من تغيرات وتحويرات وإحلال ، رسوم كروكية لتفصيلات معمارية وأبنية ومعالم بارزة ، الخطط القديمة وخرائط المساحة وكتب التواريخ .

– اجترار الماضى .

– أعرف ما ستقوله .

– لا أريد إفساد ذكرى الماضى الجميل ، أذكرك فقط أنه لن يعود .

fb/mashro3pdf

– أعرف ، أحاول أن أستعيد نفسى منه .

تحتوينى جدران الحجرة كالرحم ، تكتنف حركة الجسد وتتشكل فى ليونة معه وأنا أنور فيها ، أوزع أكوام الأوراق وأنا أتصفحها ، ما بين السكون المخيم على المنزل والأصوات المتناهية من الخارج ... تواريخ لمراحل زمنية مختلفة ، أوراق تحمل أفكارا وملاحظات ، وخطوطا باللون الأحمر تحت جمل وكلمات ، بعضها يستحضر معه وجوها ورؤى وأحداثا ، وبعضها غاب فى تلافيف الذاكرة ، أفكر بتسجيل ما يتوارد إلى ذهنى منها تدريجيا .

مقالات وأبحاث ومحاضر مناقشات واستطلاعات وقصاصات من صحف ومجلات ، كتب وكلمات ، رسوم تفصيلية لعناصر معمارية وصور وتصورات ، يصعب تصنيفها زمانيا أو مكانيا أو حسب الموضوع .

يقف منهمكا أمام منضدة الرسم ، يغمر ضوء الأباجورة الساطع جانبا من وجهه ، بينما الجانب الآخر تذوب ملامحه فى العتمة التى تغمر المكان .

– أنظرى !

ينحرف بوجهه قليلا ، تتسرب العتمة إلى ملامحه ، إلا من شريط ضيق من الضوء فى جانب من وجهه ، أقترب منه .

مربعات ومستطيلات صغيرة متراصة تزدحم بها اللوحة ، تتخللها فرجات بأشكال غير منتظمة ، فى ركن من اللوحة تظهر شريحة من طرف الخارطة ، أشير إليه ، فيشير للوحة كلها .

– ها هى الخارطة .

fb/mashro3pdf

شريط ضيق من الخضرة فى حافة الخارطة ، هو ما تبقى من مساحات الحدائق الواسعة على أطراف الحى ، احتلتها مجموعة من الأبنية الضخمة لهيئات ومصالح حكومية ، وشركات ، يتصدرها ذلك المبنى بجدرانه الرمادية اللامعة والزجاج الداكن بنفس اللون ، يبدو كنصب تذكارى للقبح ، وأمام الأبنية علقت لافتات لمكاتب استشارية وشركات مقاولات وتكييف هواء ومصاعد وسيراميك .

أما بقية المساحة حتى الركن الذى يضم حديقة الملاهى ، فقد أقيمت فيها أبراج سكنية على مساحات أصغر ، تبدو بتقاربها وتماثلها وانفلاتها من مساحات ضيقة فى الفراغ كخوازيق دقت على أطراف الحى .

الأراجيح موزعة فى أنحاء الحديقة ، نتسابق إليها واحدة فواحدة ، ذات المقاعد الخشبية والعصى المعلقة ، والصناديق والحلقات والسلاسل والأسياخ ، نعلو ونهبط ونلف وندور ، نركض حول بركة المياه ذات الحواف المتعرجة ، نجلس على حافتها المرتفعة ، نرقب المياه وهى تندفع من جوانبها من أفواه طيور وحيوانات ، نستقل المراكب التى على شكل ضفادع وطيور سابحة .... ، فى الركن ، حيث متاهة بيت جحا ، نفرح بالتيه داخل حجراته المتعددة وأروقته ، ونحن نطلق أصواتا عالية ونتنادى بأسمائنا .

أنظر إلى اللوحة التى تزدحم فيها المربعات والمستطيلات ، فى تماثل أفقد معه القدرة على المواصلة ، أحاول أن أشرح له ذلك ، يثبت النظارة على أنفه ، وحين لا يتلقى ردا ، يقول : لأننا لم نألفها بعد .

أتراجع قليلا وألقى نظرة .

نسير بجوار سور الحديقة ، ونحن نلعق بقايا الآيس كريم ، أنظر إلى

fb/mashro3pdf

ساعة الميدان . قبل أن ننحرف مع سور الحديقة . يتناهى إلينا ضجيج الأطفال وهم يركضون على النجيلة وقد جلس الكبار فرادى وفى مجموعات يثرثرون . يقطع حديثهم قدوم الأطفال للحضانات . وكشك الموسيقى الذى اتخذ مكانا للجلوس - حيث كان يعزف الجنود صباح أيام العطلات . والأعياد . منازل فتحت شرفاتها ونوافذها لاستقبال نسمات رطبة . حيث تتكشف مساحات من الشقق ذات الحوائط المرتفعة والأسقف المزينة بالكرانيش والزخارف والنجف وأجزاء من الأثاث . وتفصلها شوارع واسعة تتفرع وتضيق داخل الحى . إلى تلك الحوارى والأزقة فى قلبه . حيث تقل فيها ارتفاعات البيوت وتزدحم الطرقات .

نسير بين تلك المجموعة من الأشجار التى كنا نطلق عليها الغابة . أشجار معمرة وارفة . ذات جذوع قوية . تشققت لحاؤها وتصلب على الجذع . وخمائل التين البنغالى التى تنمو متكاثفة وتهبط بأفرعها وجذورها المعلقة . لتعاود الإنبات من جديد . نركض حول الأشجار . فى صفوف غير منتظمة . يمسك بجذوعها وهو ينثنى ويستحثنى على ملاحقته . أجرى . أشعر بالتعب . يغلبنى الضحك من محاولة التقاط أنفاسى .

- تعبت يا يوسف .

- لابد أن تلحقنى بى .

أجلس على الأرض مسندة ظهرى إلى جذع شجرة وأتناسى وجوده ولا أنظر نحوه حتى يكف . يضع يديه على عينى . أحاول أن أرفعها . وقبل أن أستدير تكون شفتاه قد لامستا خدى . أنهض واقفة . وينظر كل منا إلى الآخر صوبا . ويلوح لى وجهه صفحة متماوجة . تتقارب خطواتنا وتتلامس أيدينا وتتشابك أصابعنا . تلوح ساعة الميدان . وأستحثه على السير .

fb/mashro3pdf

- نبنى بيتاً هنا .

يشير إلى بقعة خلف الأشجار .

- وواجهته للحديقة .

ظل البيت ماثلا أمام أعيننا ، ونحن نضيف إليه كل مرة ملمحا جديدا وأجزاء أخرى ، لكنه ظل مقصورا على طابقين ، تتوسط الطابق العلوى شرفة واسعة كالمقصورة ، وتحتل واجهته وجوانبه أجزاء من مشربيات وأفاريز طويلة وعريضة ، وشبابيك كثيرة مستديرة ومستطيلة ، ومدخل محاط بالأعمدة ، نعيد كل مرة تعديل نظامه ونغير ترتيب الحجرات .

عندما حاولنا بعد ذلك أن نرسمه ، استغرقنا فى الضحك ، كيف أمكننا أن نجمع كل تلك الأجزاء المعمارية من طرز مختلفة فى مبنى واحد ، فضلا عن تفاوت المساحات بشكل غير متوازن بداخله ، مما يجعله آيلا للسقوط فى أية لحظة .

خطوط متشابكة تتلوى أمام عينى ، تسفر فى انفراجاتها عن أشكال غير منتظمة .

- متاهة .

تتحرك ملامحه الساكنة فى خطوط تعيد تشكيل صفحة وجهه فى زوايا حادة ، عبثا أحاول أن أذكره بكل شئ ، التصميمات ، الخرائط، الأبحاث ، الأفكار والكلمات .

- أنا معك تماما لكن الأمر هنا مختلف .

يشير إلى اللوحة ، أضيق بالمربعات والمستطيلات ، أضيق بالخطوط التى تتلوى وتتزاحم فى اختناقات ، ثم تتبعثر بحيلة مسبقة .

fb/mashro3pdf

– جربى ، لن تخسرى شيئا .

– كيف ؟

صفوف من الأشجار تحيط بتلك الفرجة التى أشار إليها ، نتوقف لحظة ، ثم نخطو داخلها ، ونحن نزيح الأفرع التى امتدت على جانبيها لنفسح طريقا لمرورنا ونمضى فيه ، تزداد الخضرة كثافة ، ويتعرج الطريق بينها ، جذوع أشجار ملتفة ، ونوار صغير يتساقط مع اهتزاز الأفرع ، ويغطى الأرض ، يدفعنا الفضول أن نواصل السير بينها ، لمعرفة إلى أين تؤدى .

تتقارب الجذوع وتلتف وتحجب الرؤية عما حولها ، يعتم الطريق ويصبح له شكل موحش ، ونكون قد قطعنا مسافة نتردد معها فى الرجوع بأمل أن تكون المسافة الباقية أقل ، تزداد العتمة ، وتسترعى انتباهى مع الوقت نقاط تلتمع بين الأفرع على الجانبين ، أمد يدى لألمسها ، فتصطدم بجدار تلتصق به تلك البقع الفسفورية ، ولا أدرى تماما متى استبدلت الأشجار بتلك الصور الجدارية للغابات الموحشة على الجانبين ، ولا أستطيع تبين ملامحه فى العتمة ، وهو يسير بجوارى ، أسمع تردد أنفاسه ووقع خطوه الرتيب مرافقا لخطوى ، يزداد الطريق تعرجا وصعودا وهبوطا ، وتؤلمنى قدمى من السير ، وأنا أتحسس الجدران بحثا عن مخرج ولا أستطيع إلا المضى ، حتى أننى لا أتذكر بالضبط ، متى توقف الحديث بيننا ، ولم أعد أتسمع وقع خطواته .. يبدأ الطريق فى الانحدار ، وأحاول التحكم فى موطىء قدمى حين تنزلق ، وأسمع صوت قرقعة وارتطام ، لا أدرى مبعثهما ، وأنا أتطاير ويداى مرسلتان فى فراغ ، وأتحسب لحظة وقوعى حين أهبط كبالونة دون ارتطام ، أرى بصيصا من الضوء ، وألمح كوة فى الجدار ، فأنفذ منها .

fb/mashro3pdf

مساحات من الرمال والكثبان تمتد مترامية ، أنادى بأعلى صوتى ، ويتردد الصدى متدرجا حتى يتلاشى ، أنادى ثانية ، ألتفت إلى الجانب الآخر ، أرى أبنية على مسافة قريبة فاتجه إليها ، تنغرس قدمى فى الرمال وأنا أخطو وسرعان ما تتبدد آثارها ، رمال ساخنة حصبتها الشمس وليس كرمال الشواطىء الندية ، رمال تشكلها الرياح أينما تهب ولا أثر فيها لخطوط الموج .

أسير بين الأبنية وأنا أتلفت حولى ، ألمحه يعبر الشارع من بعيد ، أهم بأن أناديه ، ثم أتوقف عندما لا أتبين أهو أم لا ، أواصل السير بين أبنية متراصة سابقة التجهيز ، مازالت الأوناش تعمل فى استكمال أجزاء منها ، أنظر إليها وألف حولها ، أتطلع إليها من كل الجهات .

مجموعات متماثلة من الأبنية تفصل بينها فرجات متسعة فى أشكال غير منتظمة ، تطل واجهاتها الأربع المتماثلة على فراغات فيما بينها وتنعدم الفراغات بداخلها ، النوافذ محاطة بإطارات معدنية تمتد فى خطوط مستقيمة ، تبدو مع الابتعاد قليلا قضبانا أفقية ورأسية متعامدة بطول وعرض المبنى ، وكذا أسيجة الشرفات المعدنية بمحاذاة الواجهة ، بحيث لا يستطيع الواقف فيها رؤية جاره .

أخرج ورقة وقلما من الحقيبة ، أخط رسوما كروكية لشكل الأبنية وأدون بعض الملاحظات عن انعدام التمايز والخصوصية ، والتكرار الذى يحد من التفكير بما لا يسترعى الانتباه ويبعث الملل ، واعتقال الوحدة السكنية فى اتجاه واحد فى الفراغ يتحدد بحدود المبنى المقابل وهى مسافات متقاربة ومتساوية ، كذلك انحسار علاقات الجيرة عن الشارع الذى أصبح مخصصا للأغراض الاستهلاكية والتجارية بتخصيص الطوابق الأولى كمحلات وأسواق .

fb/mashro3pdf

أسير بجوار الجدران تفاديا لبرك المياه المتسربة من الأبنية ، وأكوام الرمال والزلط ، أقف لصق الجدار ممسكة بالورقة والقلم والحقيبة أنظر إلى حذائى الذى أصابه البلل .

– أتودين إصلاح حذائك ؟

ألتفت نحوه وأراه واقفا بجوارى ، أحملق فيه ، شئ ما غير مألوف يضيع معه انطباع الوهلة الأولى .

– ماذا بك ؟

– أين كنت ؟

– رأيتك منذ قليل تتجولين بين الأبنية ، ناديتك ولم تسمعى .

يشير إلى الأبنية قائلا : سيتم تنفيذها قبل الموعد المحدد ، تم حجزها بالكامل .

صناديق عملاقة متراصة ، نقف بجوارها كأننا سقطنا منها ، يخايلنى تصور ما أن أمددها أفقيا وأقتطع أجزاء منها لأعيد تشكيلها من جديد .

– جاء المسئولون فى الوزارة مع مسئولى الشركة ، أطروا كثيرا عليها وأشادوا بحماس العاملين فى المشروع ..

أغسل وجهى وأطالع صورتى فى المرآة ، أجفف المياه وأمر بأصابعى على تلك البقع الداكنة حول عينى ، أسمع وقع خطواته .

– ألم أقل لك ؟

أنظر إلى الصور المعلقة على الحوائط .. أتوقف عند صورة ذلك التمثال لامرأة تميل للأمام وهى تخطو بقدمها ، يتطاير غطاء رأسها وثوبها منتفخ معبأ بالرياح يشى بالصخب المعتمل داخله كأنها على وشك الإقلاع ، فى

fb/mashro3pdf

خطـوط انسيابية ناعمة ، وحس مرهف بالكتلة ، وذلك الانتفـاخ الذى يتصدره جسدها فى عنفوانه واحتوائه للفضاء الخارجى ، ألامـس خطـوطها بأناملى ، تتسلل إلى تلك الرغبة فى الانطلاق .

أصبـو إلى تلك القرية الجنوبية ، صور البيوت والقباب التى تعلو الأبنية تحوى فضاء يتنـاغم فى خـطوطها ويندلح فى مواضع منها إلى الفضاء الخارجى فى الأفنية السماوية ، وفتحات التهوية التى على شكل أحجبة ودوائر تبدو كنقوش الدانتيللا ، والعقود ذات الحواف المتعرجة والمستديرة ، وجدران مشربة بالاحمرار تحت شمس قوية ، تنساب على أرض صخرية صلبة فى أنحاء مرهف متدرج .

تزداد ابتسامته اتساعا : بداية مبشرة ، فرصة تتلوها فرص كثيرة .

بانوهات وتماثيل ، شخصيات شعبية ، باعة وحرفيون ومهن منقرضة ، عنزة تدس خطمـها فى العشـب ، فـارس يمتطـى جـوادا شـاهرا سـيفـه بمنظور مستعرض مع حـركة الجواد ، امرأة ذات وجه وجيد نحاسى وجدائل سميكة من شعر مجعد ، نسـاء يصنعن كعك العيد وصـاجات متراصة على رأس صبية صغيرة لا يكاد يبـدو جسدها ، وأطفال يلهون بالفـوانيس ، وبنات صغـار يلعبن الحجلة .

– ألم أقل لك ؟ ليست تلك سوى بداية .

أنزع الصور من الحوائط وأجمع التماثيل وأنظر إلى جدران مجردة ، تتسرب عبر الفتحات وتظهر وتختفى ، أتبعها إلى الشرفة وأراها تظهر فى مواضع شتى ، تتجمع فى هياكل ابنية متماثة تتخللها فتحات متكررة بنفس الرتابة ، وجوه تسترق النظر من خلالها إلى آخرين لا يعرف أحدهم الآخر ، نقاط متناثرة من الضوء أحاول أن أنظر إلى ما ورائها .

fb/mashro3pdf

تضـغط يده على كـتـفى ، تغـوص بى الأرض ، انفلت بعـيـدا ، تنسل يداه تجوسان فى جسدى ، تقبضان عليه ، أحاول الافلات ، استجمع انفاسى وأشرئب برأسى إلى أعلى ، أستنشق نفسا طويلا وأميل برأسى ، برودة ما تلامس وجهى ، قطـرات متطـايرة ، أرفع وجهى إلى أعلى وأشعر بملمسها وهى تتجمع على وجهى ، أخطو ببطء فى أرض زلقة ، تتسارع القطرات وتغمر وجهى ، أمد قدمى فى منتصف الطريق ، انتبه فجأة إلى تلك الخطوط المتشققة حين تنزلق قدمى ، ينتفض جسدى .

- ماذا بك ؟

يقول مغالبا صحوة مفاجئة .

- أود أن أعود .

- ..... أين ؟

- الخرائط القديمة .

fb/mashro3pdf

(٣)

شارع العباسية وميدان عبده باشا ، أرصفة مزدحمة بالتلاميذ لحظة الخروج من المدارس ، القبة الفداوية ومؤسسة المواساة الخيرية ومكتبة البارودى وسينما سهير ومدرسة الحسينية وإسماعيل القبانى ومدرسة العباسية القديمة وكلية الهندسة ، ميدان مختار وشارع عشرة وغرب القشلاق وأرض الطواشى وبين السرايات والعباسية الشرقية ، جامع السنية والسرجة وسوق الوايلية وميدان ابن قرة والسبع بنات ، لوقا البقال وعم محمد البنان ، وخردوات العسيلى ومدام صوفى ، محلات الأقمشة والأثاث القديم والعصير ومكتبة سعفان للكتب والمجلات القديمة التى كنا نحصل عليها للقراءة وإعادتها مقابل نصف الثمن .

نرفع وجوهنا إلى أعلى ونرى الشارع فرجة مستطيلة محاطة بتلك الأبنية القديمة ، تبرز ملامحها فى إيقاعات متداخلة على الجانبين ، أفاريز بارزة وشبابيك واسعة وشرفات ذات أسيجة من الحديد المشغول فى وحدات زخرفية متكررة ، أو انتظمت فيه أشكال من العروسة الحجرية ، زخارف أعلى النوافذ والشرفات وفوق المداخل ، ودعامات على شكل تماثيل مائلة بانحناء أسفل الشرفات الواسعة التى تحتل جوانب من الأبنية وتأخذ شكلا مستديرا فى بعضها محاطا بالفراغات ، تتخلل تلك الأبنية عمارات بنيت فى فترات تالية ذات خطوط انسيابية وواجهات خالية من الزخارف وجوانب مستديرة، تحتل واجهاتها شرفات مستطيلة ضيقة تكسر رتابة الإيقاع بارتفاعها المفاجئ ، ننتبه على قرقعة ترام

fb/mashro3pdf

يسير متلكئاً على قضبانه ، ثم يتوقف أمام العابرين فى حركة مفاجئة يهتز معها الركاب إلى الأمام والخلف فى حركة متوافقة وصبر مراود وقد اتكأ بعضهم على النوافذ .

ننحرف مع خطوط الترام جانبا ثم نعرج إلى شارع بين السرايات ، نمر أمام المستشفى اليونانى ثم المستشفى الإيطالى الذى يحمل اسم امبرتو الأول ، وبينهما طريق يؤدى إلى مصحات أخرى .

قصور وفيلات مهجورة محاطة بأسوار حديدية وحدائق بائرة ، وأشجار ظمأى شائخة ، نوافذ لم يتسلل إليها الضوء منذ زمن ، ألواح زجاج مكسورة وقطع منزوعة من الشيش ، وزخارف اختفت معالمها تحت ركام من الغبار وأوراق الشجر اليابسة ، بوابات حديدية صدئة علقت على جانب منها لافتات تحمل اسماء ألقاب وبيوتات لايزال بعضها يتردد، مداخل مرتفعة ذات سلالم رخامية عريضة أو صفين من الدرج على الجانبين وطريق يمتد فى الحديقة يبدو تحت الأتربة بلاطات رخامية وخطوط زخرفية فى المنتصف ، أبراج تحتل أركان الأبنية تعلوها قباب صغيرة وشرفات واسعة فى جوانبها بدرومات وسلالم للخدم ، أبنية باهظة مهجورة منذ سنوات علاها الغبار ، أين راح ساكنوها وسلالتهم ؟ أسئلة كثيرة تتوارد ونحن نقلع عائدين حيث الشوارع المزدحمة والضجيج الذى يزداد كلما أوغلنا السير داخل الحى ، تصغر مساحات البيوت وتزدحم بساكنيها .. أين تكمن المفارقة ؟

أسمع صوتا ، أتلفت حولى ، ألمح كوب الشاى البارد الذى أعدته ونسيت أن أتناوله ، وأسمع جرس الباب .

أفتح لأجد عزة أمامى ، تقف كل منا فى مواجهة الأخرى قبل أن نتعانق ويعلو صوتها صاخبا : رأيت نور حجرتك مضاء ، قلت لابد أنك مستيقظة الآن .. أوحشتنى كثيرا .

fb/mashro3pdf

– متى جئت ؟

– منذ ثلاثة أيام ، لم أفرغ سوى الآن فقط ، بمجرد أن نام الأولاد خرجت ، أريد أن أرى الشوارع واستنشق هواء ، التقيت بمها منذ يومين ، سألتها عنك قالت إنها لا تعرف شيئاً .

– فعلا ، لم ألتق بها .

ترتدى ثوبا واسعا ، وبدت ممتلئة بعض الشئ ، وقد أحاطت رأسها بإيشارب، تبرق فى معصمها أساور ذهبية وتتدلى من عنقها عدة سلاسل ، تغير شكلها كثيراً ، أسألها عن أخبارها فتقول إن ابنها الصغير الذى تركته مع أمها يتشبث بأمها ويبتعد عنها ، لكنه بدأ يعتادها ، وهى تقدم له اللعب والحلوى وتداعبه ، وأنها لن تتركه ثانية حتى يألف اخوته .

أسألها عن عادل فتقول منذ جاءوا وهو يقيم فى بيت أسرته ، اتصل بها وسألها عنى وعن الأصدقاء ، ويود أن نلتقى جميعاً .

تقول : كل سنة نسافر ونقرر أنها آخر سنة ، وعندما نأتى لانجد سبيلا إلا العودة ثانية ، والحياة هناك مملة ، عادل يستغرق العمل معظم وقته والمكان الوحيد الذى نخرج للتمشية فيه هو السوق ، وزيارة بعض المعارف ، الناس هناك مختلفون ، لم نستطع أن نكون مبلغا معقولا يمكن أن نبدأ به مشروعاً .

أنهض وأسألها عما تود أن تشرب ، تمسك بيدى قائلة إنها لن تمكث طويلاً ، تسألنى: ماهى أخبارك ؟

– على ما يرام .

تنظر فى عينى : أمتأكدة ؟

– ليس تماماً ، لكن ، إلى حد ما .

– لى حديث طويل معك .

fb/mashro3pdf

تهم بالنهوض ثم تواصل قائلة إنهم استلموا الشقة التى حجزها لهم أخو عادل فى مشروع المبانى الجاهزة ، ويقول إنها جميلة وستعجبهم ، تضحك قائلة : أخيراً أصبح لنا شقة وسنقوم بإعدادها على الفور ، سأؤجل سفرى حتى انتهى من ذلك ، وأود أن آخذ رأيك فى لون الموكيت وورق الحائط والسيراميك .

– ليست لدى خبرة فى ذلك كما تتصورين .

– لكنى أثق بذوقك .

تقع عينى على ورقة مكتوب على طرفها كلمة «هام» ، أحاول أن أتذكر من بياناتها وجه أهميتها والمناسبة التى كتبت فيها ، خطوط تحوى أرقاما وأسماء وخطوطا كروكية لمسقط أفقى ، لا أتذكر شيئا ، أضعها مع أوراق أخرى فى ملف وأكتب على غلافه : «مجهول» .

مربعات ومثلثات متشابكة تقطعها طرق ملتوية حيث تنتهى المدينة ، وجوه محاطة بإطارات معدنية ، وعيون تسترق النظرات إلى الماوراء .

يجلس أمام الطاولة ، وضربات النرد تتردد فى إيقاع متواتر تعقبه حركة القواشيط ، يستغرق فى ملاعبة نفسه دوراً بعد آخر ، حتى ينهض مثقلا متهدل الملامح ، هازما ومهزوما بين الأبيض والأسود .

– أتعرفين .. ؟

يصمت فجأة ، ويدفع الزهر فى حركة عنيفة ، يتردد قليلا ثم يقول دون أن يلتفت نحوى : لا داعى .

– تنظر إلى التواريخ من خلال ما مضى من عمرنا فقط .

– التاريخ هو الماضى ، سواء ما عشناه نحن أو ما عاشه غيرنا ، انظرى للأمام .

fb/mashro3pdf

– فى أى اتجاه ؟

يصمت قليلا، يرفع يده الممسكة بالزهر ويضيق حدقتيه : أحلم وعيناى مفتوحتان .

تشتبك خيوط الخارطة فى أقدامه حين ينهض ، وتتلملم حين يسير ، يتركها وقد تكومت جانباً ، أنظر إلى مساحة خالية بلا خطوط ، أحاول أن أعيد ترتيبها ، تتلوى الخيوط وتتعرج ، تتمدد وتتشابك ، تزداد تعرجا وتشابكا كلما أوغلت فيها ، لا أعرف كيف تستوى ملامحها .

أسمع صوت أبى وهو يسعل ثم يتوقف وتتواصل نوبة من السعال ، أسرع إليه بكوب ماء ، وأعطيه ملعقة من الدواء ، يضع يده على صدره وهو يشرئب برأسه ، يلتقط أنفاسه بصوت مسموع شهيقا وزفيرا حتى تنتظم ، يستلقى فى الفراش ، أفرد الغطاء فوقه وأغلق باب الحجرة وأعود إلى حجرتى .

أخلى طرف الفراش من الأوراق وأتمدد عليه ، وأنحى ضوء الأباجورة جانباً ، أتأمل تلك البقع فى الجدران والسقف التى تقشر الطلاء عنها ، ومازالت أجزاء منه عالقة هشة لم تتساقط بعد ، آثار الرطوبة فى الحوائط التى تجمعت فيها قشور ملحية ناصعة وحال لون الطلاء فيها ، تتنقل عيناى بين تلك البقع بحوافها المتعرجة وأشكالها المختلفة ، تتحدد فيها ملامح وتتضح وتزدحم الوجوه ، تحيط بى من كل جانب ويعلو الصخب .

أشعر بالارتباك حين يداهمنى الوقت ، فأحاول التركيز، موسم الامتحانات والنوافذ والشرفات فى الشارع مشتعلة طوال الليل ، تهب نسمات باردة ، فتخفف من سخونة الخماسين ، نراجع آخر الدروس وقد نال منا التعب ، تتفلت ضحكات عزة فتخرجنا للحظات من بين صفحات الكتب ، نسمع صوت أبلة عايدة وهى تنادينا ، نسرع لنلحق بها ، وتكون هى ومها بانتظارنا عند الباب ، وتلحق بنا

fb/mashro3pdf

لويزا ونادية ينضم إلينا آخرون من الشارع ونمضى مجموعة كبيرة باتجاه الشارع الرئيسى ، نتوقف عند محلات العصير والآيس كريم وتقطع بنا مسافة طويلة نتبادل معها الأحاديث والنكات ، تتقدمنا أبلة عايدة بخطواتها الرشيقة والحقيبة المعلقة فى ذراعها ، تكتفى مها بالضحك المتواصل وهى تستحث عزة على المزيد ، تنظر أبلة عايدة فى ساعتها وهى تقول : كفى ، تنتهى الجولة التنشيطية كما كانت تسميها ، ونعود وقد دب فينا النشاط .

كل من إخوتى ينتحى جانبا فى المنزل ، تراجع أمى مواعيد نوم واستيقاظ كل منا ، أتسلل أثناء النهار إلى الشرفة الداخلية المنحصرة بين منزلنا ومنزل الجيران وأغلق بابها ، أمضى بها ساعات حتى ينسوا وجودى ، يسأل أحدهم عنى، فيجيب أبى ضاحكا : قاعدة فى القلاية .

أسمع صوت أمى وهى تجمع أطباق العشاء وتتجه بها إلى المطبخ وتضعها فى الحوض ثم تفتح الصنبور ، يطغى صوت المياه المندفعة على صوتها وهى تتحدث ، ولا أتبين ما تقول ، أسمع صوتها واضحا وقريبا وهى تناديني من الصالة ، أنهض وأندفع من باب الحجرة ، ثم أتوقف فى الصالة وسط سكون تام يخيم على المنزل ، يتردد فيه صوت تنفس أبى بوضوح صادرا من حجرته ، وأعود للفراش.

بيتنا هو الوحيد فى الحى الذى ظل كما هو ، طابقا واحدا ، صار مختلفا عن كل البيوت التى ارتفعت طوابقها عاما بعد عام ، كانت معظم بيوت الشارع ذات طابق واحد ، يتجمعون فوق الأسطح فى أمسيات الصيف يتبادلون حديثا هامساً ضاحكاً ، تشتغل الفتيات الكبيرات التريكو ويطرزن المفارش وملابس العرس لعايدة وسميحة أختى الكبرى، ثم لويزا وسناء ، ونتجمع نحن فى الشارع نلعب الحجلة وننط الحبل، بيت الأستاذ عبد الحميد والد أبلة عايدة هو أكبر البيوت ،

fb/mashro3pdf

ثلاثة طوابق ، يحوى كل منها شقتين، والوحيدون فى الشارع الذين يمتلكون سيارة ، عايدة فقط هى التى أقامت بالمنزل عندما تزوجت ، أما منير فقد انتقل إلى الدقى بعد أن أصبح أستاذا بالجامعة، وفوزى فى مصر الجديدة ثم لحق به نبيل كما انتقل اخوتى أيضا ، سميحة إلى حدائق القبة، وسناء وعبد المنعم إلى مدينة نصر، كانت مها الابنة الصغرى المدللة فى أسرة الأستاذ عبد الحميد، تزوجت فى بداية التحاقها بالجامعة، وكان سعيد هو الوحيد فى أسرته الذى التحق بالجامعة وأكمل تعليمه رغم ثرائهم كتجار ، بدأوا التودد إلى أسرة الأستاذ عبد الحميد ، وأثثوا للعروس شقة فاخرة بعمارة جديدة فى شارع رمسيس وأغدقوا عليها الهدايا ، أما لويزا فلم تتزوج إلا بعد أن تزوج إخوتها الصغار الذين كانت ترعاهم بعد وفاة أبويها ، وأقامت فى شقة أسرتها ، وكانت زميلة لسناء أختى فى الدراسة ، توطدت علاقتها بعايدة بعد أن ترك الجميع الشارع .

معظم البيوت احتلها بعض الأبناء وسكان جدد لا أكاد أتعرف على أحد منهم، لم يبق سوى بيت الحاج عبد الرحمن وعم راتب وأولاده ، ومعارف قدامى من الحى فى شوارع أخرى ، مازال أبى يلتقى بهم فى جلسة آخر النهار عند الحاج عامر العطار ، بعض البيوت تهدمت أو تغيرت ملامحها ، لاتسعفنى الوقائع لمعرفة كيف تم ذلك وماذا سيكون عليه الحى بعد سنوات ، لكن بيتنا ظل كما هو طابقا واحدا ، وقد بدت عليه خطوط السنوات .

fb/mashro3pdf

(٤)

يستغرقنى التطلع إلى تلك المجموعة من الصور ، شوارع دائرية ، بعضها مسقوف وبعضها ذو بوابات ، نساء فى ملابس طويلة فضفاضة تصل إلى أقدامهن ، وأخريات ملتفات بالملاءات والملس ، يسدلن على وجوههن الحبرة واليشمك والبيشة ، وأخريات سافرات الوجوه يضعن الطرح والخمار على رءوسهن، رجال يرتدون سراويل فضفاضة قصيرة مع الاسطنبولية ، وجلابيب وعباءات وجببا وقفاطين ، يضعون على رءوسهم عمامات وطواقى وطرابيش ، شوارع يقطعها الخيالة وقد لاذ المارة بجانبى الطريق ، نساء يطللن من خلف المشربيات ، باعة يفترشون الأرض بأقفاص وسلال معبأة بالخضر والفاكهة ، وأطباق من الخوص صفت فيها أنواع منها بانتظام ، وهم يمسكون بقب الميزان ، دكاكين ذات واجهات ضيقة وممتدة فى عمق الأبنية ، أحواش ، وربوع كبيرة ، ومنازل تتألف من عدة طوابق . عربات كارو وسوارس ، وترام يسير على قضبان تجره البغال . متنزهات وأراض فضاء وبساتين وبرك مياه وكيمان من الأتربة ، ومراكب شراعية .. مجالس لعلماء وورش حرفيين وصناع ، ومقاه ذات أرائك صفت فى مربعات ، ومجالس طرب وحلقات ذكر ومجالس قضاء .

ساعات وأيام نمضيها فى التجوال ، نجمع الصور القديمة ، ونلتقط صورا للشوارع والأبنية وأجزاء منها ، وحدات معمارية ، جوامع ومساجد وقصور ووكالات وأسبلة ، ومدارس وحمامات وأضرحة وربوع وساحات وتكايا .

fb/mashro3pdf

نتطلع إلى القبة التى تعلو الدرقاعة فى قصر الأمير ، مبطنة بخشب الأرو فى نقوش زخرفية متدرجة ، تتخللها نوافذ من الجهات الأربع وتحمل مصاريعها نفس النقوش ، وتتيح عند فتحها دخول الهواء موزعا فى أرجاء القاعة ، وتغطى النقوش السقف وتمتد إلى أجزاء من الحوائط فى مقرنصات ذات ارتفاعات متدرجة .

يتصدر القاعة إيوان رئيسى مرتفع ، خلفه مشربية تحتل الحائط بكامله ، وتحوى نوافذ صغيرة تطل على باحة القصر ، ثم إيوانان جانبيان يطل أحدهما على حديقة خارجية ، ويضم المكان قاعتين أخريين بينهما سلم يؤدى إلى المناظر والتختبوش، والحرملك وأماكن المبيت فى الطوابق العليا والأجزاء الأخرى من القصر التى تتعامد حول باحة مربعة تتوسطها نافورة من الفسيفاء ، وتضم الأجزاء الأخرى من الطابق السفلى حجرة الطاحون والفرن والاسطبل والمخازن وأماكن مبيت الخدم .

كان يتشابه مع الكثير من القصور التى بناها الأمراء والفرسان والأعيان ، وبه وفرة من التكوينات ، والتفصيلات المعمارية التى يقتصر كل منها على وظيفة واحدة فى الاستخدام اليومى، وقد بقيت تلك القصور بالصورة التى بنيت عليها ، وظلت مهجورة عبر حقب طويلة لايحتلها سوى أسماء ساكنيها .

أما البيوت ، والربوع ، وبعض الوكالات المأهولة ، فقد تغيرت معالمها مع الوقت، هدمت أجزاء وأضيفت أجزاء أخرى ، كحلول عملية للاستخدام اليومى ، وتغير ظروف المعيشة ، وان كان ذلك يتم عشوائيا كما يتراءى للسكان ، وكان من الصعب مع هذه التغيرات والتحويرات ، تحديد عمرها الزمنى، سوى فى بعض الأبنية المعروفة ، ومعظم هذه البيوت والربوع تعيش فيها أجيال ممتدة من الأسر، معظمهم من أصحاب الحرف ، أما الأجزاء المعمارية فيها فهى أكثر اختزالا عن

fb/mashro3pdf

القصور ، ويتنوع استخدامها فى أكثر من غرض ، لتفى بأكثر من حاجة فى الاستخدام اليومى .

نبذل جهدا كبيرا ونحن نحاول التعرف على الكيفية التى تمت بها تلك التغييرات والتحويرات فى الأبنية ، يقودنا ذلك إلى حياة ساكنيها المتواصلة عبر أجيال مختلفة، وكيف يسرى القديم فى الجديد ، كذلك بساطة الأبنية والخامات المستخدمة فيها ، التى لاتتناسب مع الاسراف فى بناء القصور التى سكنتها أسر وأجيال محدودة ، لتبقى مهجورة ، عبر حقب طويلة .

نجلس تحت تعريشة الياسمين ، فى ذلك الجزء من الشاطئ الذى يشرف على الخليج ، حيث تندفع مياه الفيضان بلونها المحمر ، محملة بالغرين ورائحة الخصوبة ، تغمر الجزر المزروعة بالخضر والحقول الصغيرة المحيطة بالضفاف، تفيض الترع والقنوات ، وتنسرب إلى البرك ، وتعتصم منها بيوت وأكواخ الفلاحين والصيادين .. يفد الناس إلى الخليج ، مع انكسار حدة الشمس ، يتخذون مجالس حوله ، نرقب القوارب الراسية فى الخليج ، وقد ارتفعت صواريها متزاحمة ، ومتشابكة ، مشكلة فراغات بأحجام مختلفة تحتوى أجزاء من زرقة السماء .

يعد لنا الرجل العجوز الشاى وهو يواصل حديثه ، يحكى لنا كيف كانت تلك الأرض خالية إلا من قليل من السكان ، وكيف بدأوا يتوافدون إلى المكان حتى أصبح بالصورة التى هو عليها الآن ، وقام بعضهم باستزراع الأرض ، واشتغل آخرون بالصيد ، ثم أقيمت ورش ومتاجر وسط القراريط المزروعة بالخضر التى عمل فيها صبيا مع أبيه، وكانت الجمال والحمير التى يأتى بها التجار تحملها إلى أسواق المدينة ، تمنى يوما أن يذهب مع هؤلاء التجار ، كما كان يحلم أن يمتطى النهر على ظهر إحدى المراكب التى يراها تعبر أمامه ، محملة بالمقاطف

fb/mashro3pdf

والبلاليص والصناديق ، حيث يمكث الرجال أياما طوالا مبحرين عبر النهر .. يحكى عن عروس النيل التى ألقوا بها فى احتفال كبير حضره الأمراء والأعيان والفرسان ، وكيف انبهر الجميع بجمالها ، واختطفت قلوب الكثيرين حين كشفت وجهها ، ثم أسدلوا عليه النقاب ، قبل أن يلقوا بها فى النهر ، رجال من صفوة القوم أضناهم الهوى، وهى تناديهم بصوتها لتسحبهم إلى القاع حين يفيض النهر، وتندفع المياه فى الترع ، وتفيض برك الأزبكية والفيل والرطلى .

يحكى لنا حكاية شيخ الصيادين مع الولى ويؤكد بأنه شاهد أحداثها بنفسه وهو صغير ، أسأله : وهل كان ذلك فى زمن الولى ؟ لكنه يواصل الحديث ، دون توقف ، قائلا : إن الوزير استصدر أمرا من السلطان بفرض أتاوات جديدة على الحرافيش ، أسأله وهل كانوا صيادين ، أم فلاحين ، أم حرافيش ؟ وهل كان الولى أم السلطان؟ يواصل سرد الأحداث ، ويعيد بعضها ، ويضيف إليها تفصيلات ووقائع جديدة ، ويحذف أجزاء أخرى ، ويستبدل شخصيات منها بأخرى ، يتحدث عن قوافل التجارة ومراكب الصيد، وعمال التراحيل والفلاحين ، وعن المرأة الفلاحة وبنت الشهبندر ، والحطاب وشيخ السقايين والشطار والخليفة وقاضى القضاة وأمير الجيوش وعسكر الدورية والكونستابل ، شخصيات وحكايات متداخلة لا أعرف من أين تبدأ وأين تنتهى ، يحكيها وهو لايحيد ببصره، ولا تستطيع نسمات الغروب الندية أن تمنع حبات العرق التى تنزلق فى غضون وجهه .

نسلك الطريق المؤدى إلى الساحة وسط الزحام ، نسير متشابكى الأيدى ، ونشق الجموع فى صف طولى ، ننطلق بالصفافير والشخاليل المعدنية والبيارق الملونة ، وقد ارتدينا الطراطير ذات الشراشيب .. المقام مزدان بالرايات الملونة

fb/mashro3pdf

والمصابيح ، ونساء فى ثياب زاهية يحملن سلالا وصوانى الأطعمة حول المقام ويوقدن الشموع بداخله ، مواكب الصوفية والمشاعلية وحلقات الذكر والإنشاد والمهرجون والحواة ورواة السيرة والوعاظ وحلقات المبارزة وخيال الظل والأراجوز والغوازى .

نتوقف فى دائرة من الناس التفوا حول حلقة مشتعلة من النيران ، وشخص يرتدى سروالا حريريا ونصفه الأعلى عار ، يطوف بالدائرة ، ثم يقفز من الحلقة المشتعلة ، فيصفق الواقفون ، وبجوار المقام ازدحم الناس حول رجل يعتلى مقعدا وهو يسرد معجزات الولى والناس تكبر وتهلل ، ثم يأخذ فى العزف على الربابة وتتصاعد الأنغام ويعيد المقاطع ، ويشدد عليها ونردد مع الواقفين :

قل واستمع ذكر من أنواره لمعت .

يتهدج صوته ، وهو يردد المقطع عدة مرات ويستحثهم على الإعادة ويردد معهم : أيوه ياخويا أيوه لمعت ، ثم يأخذ فى السرد ثانية .

تتجلى المعجزة المباركة فى الوجوه .. الليل يمضى وسط الاهازيج، والإنشاد، والطرب والرقص والأدعية والغناء والابتهالات واللهو .. جموع متزاحمة ، وباعة يعرضون أنواعا من السلع والمأكولات ، تضيع نداءاتهم وسط الزحام .. تتألق الوجوه وتلتمع العيون ، فى حركة لاتهدأ ، ولا يراد لها أن تنتهى ، تفيض النفس بالنشوة ، وتنفرط عناقيد من الضوء أمام عينى ، لتتسع وتملأ الدنيا بهاء .

تسرى همهمة وتتصاعد ، ويعلو هرج يطغى على الأصوات ، ويتدافع الناس ، وفرس جامح يشق الجموع ، يقرقع الراكب بسوطة ، يتصادم الناس على الجانبين وتتعالى صرخات ، يقع البعض على الأرض محاولا الإمساك بالآخرين ، أراه مقبلا نحوى ، فأنتحى جانبا ، أشعر بلهب يندلع فى وجهى وكتفى ، وبلل فى يدى

fb/mashro3pdf

حين أتحسس موضع الألم ، يجذبنى يوسف وسط الجموع ، ويندفع تجاه الفرس، يميل برأسه متفاديا السوط ، يجذب الراكب فوقه ويوقعه أرضا، فيتكالب عليه الناس ، أرى دوائر مزدحمة فى الساحة فى أماكن متفرقة ، تمر لحظات ثم تقرقع سياط أخرى تفرقهم ، وصف من الخيالة يتقدم ، ويشق الجموع فتندفع إلى جوانب الساحة ، يقطع الخيالة الساحة ، فيندفع الخلق إلى طرق جانبية وتخلو أمامهم ، وهم يدورون فيها ، يقرقعون سياطهم ويرمحون ويتخاطفون الأسلاب ، وسط صرخات ودعاء وسباب ، أندفع فى طريق جانبى مع الخلائق وألمح المقام حوله موائد طعام خالية وزينات وعقود وأحجبة وشموع ، تتوارى عن عينى وأنا أنحرف معهم فى طريق جانبى ، نتفرق فى طرق أضيق ، نعبر بوابات وأبوابا فى الظلمة لا أدرى أين تؤدى بنا ولا أعرف الطرق من البيوت ، أدخل مع البعض إلى مكان متسع ، صفت به أرائك ، وقد جلس البعض على الأرض ، أجلس معهم إلى أن يظهر الأراجوز ، فيصفقون .

– يوسف !

أهتف حين أراه ، وأكاد أقول للجالسين أننى أعرفه ، وأنا أشير للأراجوز، تعلو ضحكاتهم ، ويمكثون فى ترقب يتبعونه وهو يتسلل إلى قصر السلطان، والوزير ينحنى أمام السلطان قائلا: كله تمام يامولانا ، فيربت على كتفه قبل أن ينصرف ، وحين يستدير بوجهه نفاجأ بأنه أبو عرام شيخ المنسر، وأفراد المنسر يأتون إليه بالأمتعة التى سلبوها ، يلقون بها عند أقدامه أكواماً ، ويوسف يرقبهم من مكمنه يتحين الفرصة ليشير للجموع ، فتندفع لتسترد أشياءها المسلوبة ، يستشيط أبو عرام غضبا ، ويصدر أوامره للحراس بالقبض عليه ، ويوسف ينجو منهم بحيلة بعد أخرى، ويجعل منهم مسخرة ، والناس تصفق له كلما نجا من مكيدة ، فأصفق معهم ، وعين كل منهم

fb/mashro3pdf

عليه ، أكاد أقول لهم هو يوسف الذى أعرفه .. هو بنفسه ، وأننى كنت قد يئست من العثور عليه .

أسير فى الطريق الذى يضيق تدريجيا ، وسط مساكن متلاصقة ، حتى تصبح ممرات بين البيوت ، ألاحظ أجزاء أضيفت إلى الواجهات والفراغات بينها ، بحيث تجعل المبانى تبدو متداخلة ، يصعب تحديد فتحات أى منها عن الأخرى ، كما تجعل الطرق تبدو متعرجة ، مصاريع النوافذ فى الأجزاء التى أضيفت عبارة عن ألواح خشبية بها فتحات صغيرة ومستديرة للتهوية ، أستطيع أن ألمح فى الفراغات بين الحوائط أجزاء لمشربيات وفراغات لعقود سدت بالحوائط ، وأجزاء من أعمدة حجرية ورخامية ، وأفاريز عليها كتابات بالخط الكوفى والريحانى ، ومقرنصات متآكلة .. تسقط أشعة الشمس عمودية على الطرق ، فتزيد من حرارة الجو المشبع بالرطوبة ، ويقل عدد المارة فى الطرقات بشكل ملحوظ .

أحاول أن أحدد مسارات الطرق واتجاهاتها وشكل الأبنية ، أقف فى مدخل أحد البيوت لأحتمى من حرارة الشمس ، أشعر بهواء رطب ينبعث خلفى فأستدير لأجدنى أمام ساحة واسعة مسقوفة ومزدحمة بالناس ، فى جوانبها دكاكين متراصة وعربات طعام وطاولات لباعة يعرضون صنوفا شتى من السلع ، ملابس وأدوات منزلية وحلى مقلدة ومسابح وبخور وبسط وطواقى .. نساء يجلسن على عتبات الأبواب ، يمسكن بالمغازل وقد ثبتن بعض الخيوط فى أصابع أرجلهن الممددة .

أبواب مختلفة الأشكال والأحجام يتصدرها باب ذو درج عريض ، يفضى إلى ممرات ، بها ورش صناع وحرفيين ومخازن تجار ، وبيوت أخرى . أشعر بتيار رطب يسرى فى المكان لا أتبين مصدره تماما ، الأرض منخفضة عن مستوى

fb/mashro3pdf

الطريق ، والمارة يواصلون سيرهم عبر طرق جانبية ، يتطلع بعضهم نحوى فى فضول .

أحاول أن أتعرف على معالم الطريق المؤدى إلى الساحة، أسأل المارة فيشيرون إلى قبو يؤدى إلى طريق على الجانب الآخر فأنفذ منه .. أسير فى الطرق التى تضيق أكثر ، بحيث لاتتسع فى النهاية سوى لمرور شخص واحد ، أمر بأبواب وأقبية تخترق المنازل والأبنية حتى أرى السور المرتفع المحيط بالقصر وأحاول أن أتبين جانبا منه يؤدى إلى الساحة ، حتى أجد بابا وأنفذ منه إلى مكان متسع مزدحم بالأبواب والنوافذ ، وفى منتصفه شجرة كافور جلس تحتها أناس على أرائك يتناولون الطعام والشراب ، تقدمه لهم امرأة تقف خلف نصبة ، والمداح يقعى أمامهم على الأرض ممسكا آلته يشيد بصاحب الكرامات ، وهم ينصتون إليه .

أجلس على طرف الاريكة وأمسح وجهى بالمنديل ، يتعالى تهليلهم ، تنهض امرأة ، وتدور مع أنغام الربابة ، وهى تتمايل وتصفق بيديها ، تتناول قلة من سبيل بجوار الحائط ، وتعطيها للجالس فى طرف الأريكة ، فيناولها للجالس بجواره الذى يناولها بدوره للذى يليه ، حتى يعطيها إلى الجالس بجوارى، أعب من مائها البارد بطعم النعناع الذى يطل عوده الأخضر من حلقها ، حتى أرتوى وأناولها للجالس بجوارى ، يتناوبون تناولها إلى أن توضع فى السبيل .

أسألهم قبل أن أنصرف ، يشير أحدهم إلى باب يؤدى إلى طريق جانبى ، فأمضى فيه ، واجده يفضى إلى طريق دائرى، يلتف حول المنازل والأبنية ، تخف حدة الحرارة تدريجيا ، وأشم رائحة حريفة ، تزداد كلما سرت حتى أدرك رائحة اليود المميزة وأجدنى فجأة أمام البحر .

fb/mashro3pdf

المياه تضرب فى الجدران الحجرية ، ومجموعة من الصخور تنمو فوقها الطحالب بغزارة ، وتغطى المياه الراكدة فيما بينها ، أرفع عينى وأنظر بعيدا فيغشى عينى وهج ساطع ينعكس مفضضا على صفحة المياه الزئبقية بأمواجها المتماسكة ، أظلل عينى بيدى ، أمعن النظر ، أرى المقام وسط المياه على مسافة غير بعيدة ، مزينا بالنقوش والأحجبة والعقود والبيارق الملونة ، والشموع مضاءة بداخله ، تتراقص ذبالتها .. أراه ينهض من مقامه ، ناشرا عباءته ، ثم يجلس متربعا فوق القبة ، بلحيته البيضاء الكثة التى تغطى صدره ، وحاجبيه الكثيفين الأبيضين ، يتهدل أحدهما على جفنه ، ويغطى عينا نصف مغمضة ، بينما يحدق بالأخرى فى نظرة ثابتة ، أطيل النظر إليه ، ويخيل إلى أنه يرانى بوضوح كما أراه ، وهو ساكن فى جلسته .. أتراجع حتى ألاصق الجدار وعيناى مثبتتان عليه وسط الوهج الفولاذى .

يتأرجح المشهد بين الوهج والظلال .. أخطو خطوات جانبية قصيرة دون أن أدير وجهى ، حتى ألاصق الجدار .. يتضرج المشهد بحمرة خفيفة تزداد تدريجيا حتى يصطبغ بلون أرجوانى ، وأرقب قرص الشمس وهو يسقط فى المياه تدريجيا حتى يختفى ، ويبزغ هلال بعيد ، فتنحسر المياه .

fb/mashro3pdf

(٥)

يقول أبى : لم يأت أحد من الأولاد منذ فترة ، أريد أن أطمئن عليهم .

يقترب ويجلس أمامى وأنا أطالع الجريدة .

– أصبحوا يكتفون بالاتصال بالتليفون ، أود أن أراهم .

أطالع خبرا فى الصفحة الأولى عن انهيار منزل والتفاصيل فى الداخل .

– ليتك تذهبين اليهم لتطمئنينى عليهم ، وتؤكدى عليهم أن يأتوا ، منذ فترة طويلة لم نتجمع معاً .

أرى تلك النظرة فى عينيه اللتين ضاقت حدقتاهما وانكسر الضوء فيهما .

أربت على كتفه قائلة : سأذهب إليهم فى أقرب وقت .

– حتى أخوك انقطعت رسائله منذ فترة ، كان يكتب بانتظام فى البداية ، وقد أكدت عليه بذلك .. ليتك تكتبين إليه .

أعده بذلك فيهز رأسه متمتما : لم أكن أود أن يذهب .

تتصدر الصفحة صور الضحايا من السكان ، وعناوين بخط كبير عن شهود العيان الذين شاهدوا المنزل لحظة سقوطه ، وصور للأنقاض يحيط بها جمع من الناس ورجال البوليس وعربات النجدة والإسعاف والمطافئ ، وعنوان آخر عن المالك الذى هرب وجار البحث عنه ، وتحذيرات من سقوط منازل أخرى .

– خالتك اتصلت ثانية ، تسلم عليك .

– كيف حالها ؟

fb/mashro3pdf

– تود أن تراك .

تصدع منازل مجاورة وإخلاؤها من السكان ، فجوة عارية وسط الزحام ، أضع إصبعى فوقها ، أضغط بقوة كى لاتنفلت الخطوط ، يخترق اصبعى سطح الخارطة .

– ماذا تفعلين ؟

أنتبه وهو يحدق فىّ

– تدفنين نفسك وسط الأوراق ، كأن الامتحانات على الأبواب .

– أرتبها ، وأراجع بعضها .

– لماذا ؟

لا أعرف بم أجيب ، أقول : أشياء كثيرة تتغير ، أود أن أعرف كيف ؟

– طبيعى ، كل شئ يتغير ، تلك سنة الحياة ، هل تظلين عمرك تفعلين ذلك ؟

– ...

يسألنى : هل ذلك مطلوب منك فى العمل ؟

– لا علاقة له بالعمل .

يمط شفتيه ، أنظر إليه وهو يهز رأسه برتابة ، تلك الحركة التى أراه مسترسلا فيها وهو مستغرق فى التفكير ، وأتأمله بشعره الأبيض الحليق وحاجبيه الكثيفين الأبيضين .

– أنا قلق بشأنك ، أنت واخواتك .

أربت على كتفه ، أقول له ألا يقلق ، فالعمر تقدم بنا ، ولم نعد صغاراً .

زيارات عابرة متباعدة وكلمات عبر التليفون ، لم أر اخوتى منذ فترة ولم نجتمع معا منذ زمن ، وجوه غير مألوفة يشق أبى بينها طريقه إلى جلسته المسائية مع الأصدقاء والمعارف القدامى .

fb/mashro3pdf

تستقبلنى عايدة مرحبة ، تسألنى عن أخبارى ، تأتى مها من الداخل وتفاجأ بوجودى ، تمسح عينها وتقبلنى وأثار دموع على خديها ، تصحب الأطفال إلى الداخل وتدخل عايدة وراءها ، أسمع أطرافا من حوار محتدم : أبيه منير لا يتدخل ولا أحد يفعل شيئا ، تأتى عايدة بعد قليل تعتذر فأستأذن فى الانصراف .

تتخلل عيناى فرجات بين أفرع مورقة ، شباكان مستطيلان يطلان على ممر ضيق ، يؤدى إلى فناء داخلى ، أصص للزرع وضعت بينها قلة فخارية ذات غطاء مخروطى ، يتناهى ضجيج الشارع وأصوات الكلاكسات فى النصف الأول من النهار، تمتد أمام الشباكين أفرع شجرة عتيقة تحجب الرؤية عن المبنى المقابل.

– ألن تنقلى مكتبك ؟

يسألنى محمد زميلى فى الحجرة ، يقول : كل منا اختار مكاناً لمكتبه ، لكن أنت الوحيدة التى لم تتحرك حتى الآن .

الحركة لم تهدأ منذ بداية اليوم، والجدل حول اختيار الأماكن والمسارعة بالحجز فى حجرات الإدارة والمجاورة لإدارتنا التى أخليت حجراتها وانتقلت إلى مبنى آخر، وضم حجرات منها لإدارتنا ، السعاة يتلقون الأوامر والتعليمات من كل على حدة، الأصوات خفتت تدريجيا ، أثر مشادة بين اثنين من الموظفين تعالى صوتاهما حتى طرق أبواب المدير العام الذى خرج مستطلعا ، وأشار لهما للحاق به فى مكتبه ، ثم خرجا بعد قليل وأثر الحديث على وجهيهما بينما تناثرت التعليقات فى كل مكان .

المكاتب متلاصقة بالحجرة ، نمر بالكاد بينها لنصل إلى مكاتبنا ، فى البداية ثلاثة مكاتب ومناضد للرسم ، وكل فترة يضاف مكتب جديد حتى ازدحمت الحجرة ، ثم بدأوا يضعونها فى المنتصف ونقلت مناضد الرسم إلى ركن فى حجرة فى آخر الممر الذى به مكتبنا .

fb/mashro3pdf

تقول إلهام التى تجلس إلى مكتب مجاور لمكتبى : أخيرا سنخرج على وش الدنيا ، حجزت مكانا لمكتبك بجوارى كى نظل كما نحن ، وأوصيت الساعى أن يأتى لنا ببعض نباتات الظل .

يقترب محمد قائلا : عبد السلام أصر أن يضع مكتبه فى صدارة الحجرة ، حاول البعض إقناعه بإزاحته جانبا كى تتسع الحجرة لمكاتب أخرى لكنه رفض ، وهو يريد بذلك أن يؤكد أن له وضعا مميزا .

يتدخل زميل آخر قائلا : يوصل الأخبار للمدير العام .

تتسع الدائرة وينضم آخرون للحوار وتتداخل دوائر أخرى ، تتطرق إلى المشادة التى وقعت منذ ساعات ، تتسع الدوائر وتضيق وأنا ألوذ بجانبها ، تحتويها دوائر أخرى وتضيق فتتلاشى أطرافها ، يتوقف الحديث فجأة وأنظارهم تتجه نحو الباب وهم يشيرون إلىّ ، تتجه فتاة نحوى ، أنهض واقفة .

– ليلى !

– مفاجأة ، أليس كذلك ؟

يبتعدون وأنظارهم عليها بشعرها الطويل المهوش ، وهى ترتدى سترة واسعة وبنطلونا چينز ضيقا وحذاء رياضيا ، وحقيبة معلقة على ظهرها .

– علمت أنك جئت وسافرت دون أن يراك أحد .

– ثلاث مرات ، لكن لو عرفت لعذرتنى ، وعموما سأتى لأقيم فترة طويلة ، سأحكى لك كل شئ أما الآن فأنا جائعة .

أنظر إلى الساعة وأتناول حقيبتى ، بينما يسألها البعض عما تود أن تشرب وهى تهز رأسها ، نسير بخطى سريعة وحقيبتها المنتفخة مستقرة على ظهرها ونتجه إلى مطعم قريب .

– هل قررت العودة ؟

fb/mashro3pdf

– ليس ذلك بالضبط ، سأقوم بمشروع تحت إشراف المؤسسة ، وقد جئت المرات الماضية للإعداد له .

تحكى عن المشروع ، وهو إقامة نمط سكنى للبدو فى سيناء ، وعن الزيارات التى قامت بها لمناطق مختلفة لاختيار مكان لإقامة المشروع، حتى استقرت عليه ، تحكى عن انطباعاتها عن الأماكن والناس الذين التقت بهم هناك ، وعن التغييرات التى لحقت بهم وشكل حياتهم ومساكنهم ، تقول إنها تدرس ذلك حاليا وتقدم تقارير مفصلة عن الخطوات التى تقوم بها عقب كل زيارة ، حتى يتم اعتماد ميزانية والموافقة عليها خطوة بخطوة ، تتحدث بحماس وترسم خطوطا بأصابعها ويتحرك رأسها وجسدها .

– غير معقول !

تتوقف عن الحديث ، أقول لها : أخبارك كلها مفاجآت ، من القاهرة لأمريكا لبدو سيناء ، ما علاقة هذا بذاك بالمؤسسة ، احكى لى بهدوء أكثر .

تواصل بنفس اللهجة :المؤسسة متخصصة فى الدراسات العمرانية والسكانية وتقدم نماذج لتجارب جديدة ، ووجدتها فرصة لاقوم بعمل ما هنا ، وحتى يتم ذلك لابد أن تكون كل التفاصيل واضحة لديهم ، يناقشوننى فى كل كبيرة وصغيرة حتى يوافقوا على الخطوة التالية ، وأنا على وشك الانتهاء من دراسة المكان ، وأقوم حاليا بعمل تصميم مبدئى للبيت ، وذلك يستلزم عدة زيارات حتى استقر على ذلك وبعدها أبدأ التنفيذ .

– وأخبار ماك ؟ والزواج ؟

– المفروض أننا حددنا موعداً للزواج بعد شهرين ، لكن ذلك يتوقف على الظروف ، وربما يصحبنى عند حضورى المرة القادمة ، لكنه لن يمكث طويلا لأنه مرتبط بعمل هناك ، بالمناسبة هو يعرفكم جميعا لكثرة ما أحدثه عنكم ويرسل لكم التحية .

fb/mashro3pdf

تسألنى : ماهى أخبارك أنت ؟

- أحاول ترتيب أمورى .

- ممكن أسألك سؤالا ؟

- أعرف .

تتوقف ، ثم تقول : أعترف أن الأمر كان مفاجأة بالنسبة لى .

ـ لماذا ؟

ـ الأمر بالنسبة لكما مختلف ، لم أتصور ذلك ، يعنى أنا وخالد مثلا كنا مختلفين ، اكتشفنا ذلك بعد فترة ، والظروف أيضا كانت ضدنا ، أما أنتما ، كانت أشياء كثيرة مشتركة بينكما ، وكنتما مترابطين ومتحابين .

تترقب إجابة ، أقول فى السياق نفسه : اختلفنا حول أشيائنا المشتركة .

ـ مجرد سؤال !

ـ لا أعرف إجابة محددة ، كنا غير قادرين على الاستمرار وكل منا بحاجة أن يحدد نفسه بعيدا عن الآخر .

ـ على فكرة التقيت به ، وكان كلامه يدور حول المعنى نفسه ، أحسست بأن الموضوع لم ينته ، على الأقل بالنسبة له .

تصمت قليلا ، ثم تقول : أنا آسفة .

أتأملها حين تقول تلك الكلمة «آيام سورى» وكلمات أخرى مثل «واى نوت»؟ «وات بروبلم» تمسح تلك الكلمات تعبيرا مايعلق بملامحها ليظل وجهها كما هو ، قالتها حينما أصرت على الزواج من خالد رغم اعتراض أبيها ، وقالتها عندما انفصلت عنه ، وتركت للآخرين مجال الحديث فى التفاصيل والتحليل والاستنتاج والتعقيب .

ـ كنت أتمنى أن نلتقى جميعا معا ، أوحشتونى كثيرا ، وأنت بالذات ، لكن الوقت لايسعفنى ، ولابد أن يتحقق ذلك عندما آتى المرة القادمة.

fb/mashro3pdf

- ماالذى جعلك تفكرين فى البدو تحديدا ! وماوجه اهتمام المؤسسة بذلك ؟

- أود العمل فى مجال جديد مختلف ، والفكرة وردت الى ذهنى منذ فترة ، عندما جئت فى زيارة مع بعض الأصدقاء ، وذهبنا الى سيناء وتجولنا فيها ، لاتتصورى مدى انبهارهم بالمكان والطبيعة ، لو تم الاهتمام بها فستصبح من أجمل بقاع الأرض ، وبدأت بعد ذلك أتابع أحاديث وأخبارا عن زرع الصحراء وتعميرها وتسكين البدو ، الفكرة بدت لى غير تقليدية وجديدة ، وهى تسكين البدو فى تجمعات سكانية تكون مركز جذب ، بدأت أتعرف على بعض الأشياء أثناء الرحلة ، ثم قمت بجمع معلومات ومتابعة دراسات وتقدمت بفكرة المشروع وعرضتها على المسئولين بالمؤسسة ، هم لايتقبلون الأمور بحماس لا مبرر له ، بل من خلال أفكار محددة ومقنعة .

- أتعتقدين أن الأمر يمكن أن يتم بسهولة ودون عقبات ؟

- بالطبع البدء من هنا يجعل الأمر صعبا ويدخل فى تعقيدات روتينية كثيرة ، لكن من خلال المؤسسة يمكن أن يتم ذلك بشكل أسهل ، هناك تيسيرات واتفاقيات، كما أن ذلك يأتى فى اطار الدعوة للتعمير ، المهم أن يقتنع المسئولون فى المؤسسة بالخطوات التى أقوم بها ، وهو مايتم حاليا ، يناقشوننى فى أدق التفصيلات حتى يوافقوا على القيام بخطوة تالية .

التفت الى بروفيل وجهها وهى تسير بجوارى فى الزحام بخطواتها المسرعة ، أرى الأشياء تتحرك حولها وملامحها وهى تخترق المعالم يتقدمها أنفها باستقامته المدببة ، تتجمع المعالم فى ملامحها ثم تنفضها من شعرها المهوش فتتناثر خلفها .

fb/mashro3pdf

(٦)

تتمدد الخيوط في الخارطة تنفض عنها تعاريجها ، وتندفع كأنشوطة تجذبني في لمحة خاطفة تتجمع المرئيات في بؤرة لامتناهية ، تتمدد منها خيوط في اتجاهات شتى ، لاتلبث أن تتفرع وتتعرج.. أتوزع في مساربها .

تقع عيني على تلك المجموعة من الصور لماكيت المشروع ، أتوقف عندها ، أرتبها حسب زوايا الرؤية ، حيث تبدو الأبنية في خطوط إنسيابية وارتفاعات متدرجة ومواقع متبادلة للوحدات تتمحور حول شوارع رئيسية ، وفراغات تنداح الى الفضاء المترامي عبر البحر .. منافذ التهوية واتجاهات الرياح وسرعتها ومعدلات الرطوبة وأشعة الشمس ، دراسة جدوى وقوائم تكاليف ودراسة عن دور العنصر البشـــرى في عملية البناء ، والخامات البيئية المتوافرة واستطلاعات للرأى .

إحدى قاعات الكلية في فترة الاجازة الصيفية عقب انتهاء الامتحانات ، ونحن نتزاحم في الصفـــوف الأولى من المدرج ، والدكتور عزت عبد الوهاب ومعه بعض المعيدين .

– لابد أن يكون هناك دور للجامعة والخبرات العلمية المتوافرة فيها لتأخذ مكانها في إعادة تعمير مدن المواجهة بعد الحرب ، فستكون هناك عمليات تعمير ضخمة ، وهذا سيخلق فرص عمل في انتظاركم بعد التخرج ، وهو مايجب أن نعد له من الآن .

fb/mashro3pdf

مدن حديثة أكثر تطورا تفتح آفاقا للمستقبل ، وتعوض المهاجرين أعباء سنوات الهجرة والحرب.

نراجع استمارات الاستطلاع ونكون مجموعات عمل تحت اشراف المعيدين ، زيارات لتجمعات المهجرين ومعسكرات التهجير ، وزيارات للمدن ودراسة أنماط السكن خاصة فى الأحياء الشعبية التى تعرضت للقصف الشديد .

ـ يجب ألا يترك ذلك للمقاولين دون إعادة تخطيط هذه المدن ، كما يجب أن ننمى خبراتنا وإمكانياتنا والاستفادة من خبرات أخرى خاصة الدول التى تعرضت بعض المدن فيها للتدمير أثناء الحروب .

وجوه ملتفة وعيون متسعة ، وأحاديث تفيض باللوعة عن أماكن وأحياء وبقاع واسماء أماكن .. العودة ، نعود الى بيوتنا ، المهم أن نعود أولا ، نطرح معهم تساؤلاتهم فتدور دفة الحديث ، ويبدو الأمر أكثر طواعية ونحن نشاركهم الحديث عن البيوت القديمة والشوارع والحارات ، والمدينة بقسميها العربى والأفرنجى يتواصل الحديث ، وتنطلق الذكريات والأخيلة والأحلام .

كلمات متناثرة تعترض على المشروع داخل أروقة الكلية ، وحديث عن صعوبة استمرار ذلك فى تلك الظروف وسط اجراءات مشددة بدعوى الظروف الراهنة ، والأوان الذى لم يحن بعد ، وأن هناك أولويات أهم الآن ، وسياسة الخطوة خطوة ، ينكمش العدد ويزداد الحماس .

مدن خاوية ومبان مهدمة وحوائط مثقوبة وفتحات معتمة فاغرة ، وجدران مبرية بفعل القصف والرطوبة ، وبيوت ظلت كما هى ، تندفع الأمواج عمودية على الشاطىء ، ينغلق البحر وينكمش الشاطىء وتبقى الأسلاك الشائكة، يتناثر الرذاذ على الواجهات فتتساقط الأتربة .

fb/mashro3pdf

- لو يتحقق ذلك !!

- تتغير أشياء كثيرة .

- الأمر ليس بتلك البساطة .

نلتقى ببعض السكان الذين يترددون على المدينة وبعض العاملين فيها والذين لم يهجروها ، تفيض أحاديثهم عن الأماكن والبيوت وذكريات وتواريخ مرتبطة بالأماكن عن الصيادين والبمبوطية والمهن التى ارتبطت بالبحر وانقطعت سبل العيش بأصحابها واضطروا للهجرة إلى أن ينفتح البحر ثانية ، والأماكن البعيدة التى انحدر منها سكان المدينة ،وهل يتذكرون الآباء المهاجرين الذين أسسوا المدينة منذ حقب وسنوات .

نعرج إلى الخلاء الممتد من الشاطىء حيث تتسع مساحات الرمال ، نعلو ونهبط فوقها .. تتعثر قدمى ، يجذب يدى فى اللحظة التى أقع فيها على الأرض ، أرى طرف ماسورة التهوية للخندق التى طمرتها الرمال ، ومازالت فتحتها المستديرة المائلة بطرفها المدبب بارزة ، يجلس بجوارى على الرمال الباردة .

الشوارع خالية من المارة ، صوت الانفجارات يدوى فتهتز الجدران ويتساقط زجاج النوافذ .. كتبى المدرسية المبعثرة ودوى صفارات الانذار ، وبكاء أخى الصغير الذى لايتوقف، الأسلاك الشائكة والنظرة الأخيرة لأمى على المدينة ، وأعلى الفنار الذى يختفى تدريجيا قبل أن تستدير العربة ، نهنهة أبى وهو راكع أمام الأجساد المسجاة بالملابس المخضبة بالدماء والبارود ، تتشابه جميعها ولايتعرف فيها عليه ، هلع اخوتى وتخبط الناس فى الشوارع وقطع أثاث مهشمة ملقاة فى الطرقات ، والبحر حين ينشق بالقذائف فتتناثر أشلاء المراكب .. أغنيات حزينة تنبعث من المداخل المعتمة على ألحان السمسمية تعلو نبراتها وتنتشر عبر الأثير .

fb/mashro3pdf

تندفع موجة داهمة ، أمد ذراعي وأندفع نحوها ، فأرتطم بالأسلاك الشائكة تندلع الحرارة في وجهي وذراعي ، يجذبني الى صدره وأرى الدموع المتساقطة من عينيه قبل أن تغيب الرؤى .

تتوالى الكثبان الرملية ونحن نعلو ونهبط معها ، وأنا مستندة الى ذراعه ، يلتفت الي وهو يبتسم قائلا : أتذكرين عندما تأبطت ذراعي ، ونحن نحاول الهرب من مطاردات البوليس ، أثناء فض المظاهرة ؟

ـ كنا نتظاهر برباطة الجأش ، وكنت تبدو كرب أسرة مغلوب على أمره .

– كانت آثار الضرب واضحة عليك ، وكنت مضطرباً ، كأنني أنا من أوسعك ضربا .

تتحدد مهام كل مجموعة ، ويتحدد دور كل منا بعد مناقشة شتى التفاصيل والاحتمالات ، يقول مصطفى : التوقيت عامل مهم .

انتهى أنا وعزة من صف الأوراق في مجموعات .

يقول عادل : لاداعي للخروج الآن .

ينظر مصطفى الى ساعته قائلا : مضطر للذهاب الآن .

يتطلع يوسف من خصاص النافذة ، يقول : اذهبي أنت الآن مع ليلى .

ألفلف الأوراق حـــول جسدي وأتدثر بسترته الواسعة ونؤكد على أماكن الانتظار .

في غبش الصباح المضبب أراه يغذ الخطى على الرصيف المقابل ، وبرودة الهواء الطازج تصافح وجهي ، ألمح ابتسامته في التفاتة سريعة ، ثم ألمح بقية الزملاء وهم ينطلقون فرادى مسرعين كأنهم في طريقهم للحاق بالعمل ، نواصل السير عبر أماكن مختلفة ، وعيوننا على القاعدة الخالية في منتصف الميدان ، يقترب الموعد فنقترب منها ، نلمح الاشارة فنتجه مسرعين نحوها ، ومع ساعات

fb/mashro3pdf

الصباح الأولى كان الميدان ومداخل الشوارع المتفرعة منه تضج بالزحام والحناجر المدوية ، تتوقف حركة المرور وتزدحم الشوارع وتمتلىء النوافذ والشرفات ، ويطل راكبو الأتوبيسات من فتحات الزجاج ويرددون معنا .. ينضم الناس من كل صوب، الحرب ..الحرب .. الطلبة والعمال .. الحرب .. الحرية .. المستقبل ، الحرب .. ضد القهر والفساد .

تتساقط قنابل الدخان فتتقاذفها الأرجل خارج الجموع تتساقط قنابل أخرى . يتباعدون يلقون بها بعيدا وتلتحم الفجوات ، تتساقط .. تختنق الأصوات الهاتفة . وتلقى بها الأيدى والأرجل من حيث أتت .. تتكاثف الأدخنة .. نتلمس أماكننا وعينا كل منا على الآخرين ، تتماسك الأيدى ، وتتكرر المحاولات من كل جانب .. والاعداد المتزايدة تتلاحم ، وتتزايد أعداد الجنود فى صفوف طويلة فى الشوارع المحيطة بالميدان يزداد الدخان كثافة، ونتبين من خلالها صفوف الجنود وهم يقبلون مسرعين نحونا مسلحين بالدروع والعصى ، يتدافع الناس الى قلب الدائرة الهائلة فتنضغط فيها ، ثم تنفلت الى الشوارع الجانبية ونتلاقى فى مجموعات ، والجنود يخترقون الميدان ، هتافات من أماكن شتى يلاحقها الجنود ، ويختلط المارة بالجموع ، أتلقى ضربات على ظهرى وساقى ، تجذبنى الأيدى ، أجرى معهم ، أتساند على ذراعه ، نحاول أن نبدو رابطى الجأش .

ـ يمشطون المنطقة .

يقول أحدهم لنا وهو يسرع جريا بجوارنا ، أنفلت من ذراعه وأجرى ، أنفذ الى شارع جانبى ضيق ، أجد الطريق مسدودا ، أدخل أحد البيوت ، أجذب جسدى وأنا ممسكة بالدرابزين الحديدى وأندفع على الدرج صاعدة .. أسمع ضجيجا أسفل السلم .. أطرق بابا يطل رجل فى أواسط العمر ، يفسح جانبا ،

fb/mashro3pdf

أدفع بنفسى للداخل وأغلق الباب، تأتى امرأة فى جلباب بيتى ، تقدم لى كوبا من الماء وتغلق الشرفة المفتوحه تحكى عما شاهدته والرجل يكمل كلامها ، نسمع ضجيجا على السلم ، تقودنى الى الداخل ، تجذبنى الى فراشها وتفرد الغطاء فوقى ، ثم تخرج وتغلق باب الحجرة ، أغمض عينى للحظات ، شىء مايتحرك فوق ملامحى أفتح عينى ، أنتبه لطفل صغير يمد إصبعه متلمساً ملامح وجهى ، يسألنى ، هل أنت مريضة ؟ أهز رأسى ، يسأل لماذا ؟ لا أدرى بم أجيب ، أسمع طرقات على باب الشقة ، وأصواتا بالخارج ، يواصل اسئلته بإلحاح ، وأحاول أن أسكته ، يقول محتدا : سيعطيك الدكتور حقنة !

اسمعهما يتحدثان الى الجنود ولا أتبين الحوار ، ينهى الرجل حديثه قائلا : تفضلوا، فى الوقت الذى أسمع صوت أقدامهم على الدرج .

درج ذو سياج من الحديد المشغول تعلوه مرائن خشبية ذات قشرة بنية تقشرت فى مواضع منها ، منزل من أربعة أو خمسة طوابق مرتفعة وشرفات حديدية أسدلت عليها ستائر من قماش سميك ، أثاث قديم ، نظيف ومرتب بعناية ازدحمت به الشقة ، تحتل منضدة الطعام مساحة كبيرة من الصالة ، وأنتريه أسيوطى صفت مقاعده متلاصقة وأضيفت اليه قطع حديثة لازمة للاستخدام اليومى ، نفس الأثاث الذى أعد عند الزواج ، وائل ومحمد الآن بالجامعة ، ورشا بالثانوية العامة ، وهى تشكو من وقتها الموزع بين العمل والاهتمام بالبيت والأولاد .

تفتح باب الحجرة بحرص ، ألتفت نحوها : تقول : هل أنت مستيقظة ؟ .. تجلس سميحة على حافة الفراش بجوارى .

– كنت تبدين مرهقة لم أشأ أن أوقظك .

– آه .. فعلا ، كم الوقت الآن ؟

– ماذا بك ؟

fb/mashro3pdf

– لاشيء إرهاق عادى .

تصمت قليلا ثم تقول : طمئنينى ، بابا بخير؟

– نعم .

– لماذا طلب منك أن تأتى بنفسك لتخبرينا كى نذهب اليه ؟ لماذا لم يقل ذلك فى التليفون عندما حدثته ؟

تزداد توترا وهى تسأل ، ماذا حدث بالضبط ، أخبريني ؟

– لا شيء .. هو يقول منذ فترة طويلة لم نجتمع كلنا معا فى البيت .

تهدأ قليلا : فعلا فترة طويلة تعرفين الأولاد ومشاغلهم والبيت ، لا أكاد انتهى منها .. هل أخبرت سناء وعبد المنعم ؟

– سأذهب اليهم لأخبرهم .

يعاودهم القلق ثانية .. هل هناك شيء ؟

– أبـــدا بابا فضل أن أذهب اليكم بنفسى يعتب علىّ أيضا لأننى لاأزور أحدا .

– فى هذا معه حق ، أود أن تخرجى من عزلتك ، وتعيشى حياتك .

تتأملنى طويلا .. وأنت ؟ ماهى أخبارك ؟

– بخير .

– فكرى فى الأمر ثانية ، بهدوء .

fb/mashro3pdf

(٧)

أتناول سماعة التليفون ، ويأتيني صوته .. يوسف .

- كيف حالك ؟

- بخير .

تأتي بعدها لحظة الصمت التي أصبحت تنتاب أحاديثنا ، نستحضر معها كل شيء ولانجد رغم ذلك مانقوله .

- أود أن أراك .

- .....

- سأسافر

- متى ؟ كيف ؟

- سأخبرك بكل شيء عندما نلتقي .

يتلو الخبر كمفاجأة لا أدري في أي سياق يمضي ، مدة طويلة مضت منذ التقينا آخر مرة ، تلاشت مبررات اللقاء ، هل يحاول أن يحدد نقطة ماتكون مرتكزا لتواصل من جديد ؟ هل تتخلى الكلمات عن أجنحة المراوغة ، لتمضي كحد فاصل بين الإيهام والتهويم ؟

أطالع صورتي في المرآة التي بدأت أألفها بدونه ، استعيد ملامحي أتأملها من زوايا مختلفة ، وأحدد قسمات وجهي ، يتسلل اليها وأنا مستغرقة فيها .. أبتعد خطوات للخلف، وأنا أحملق فيها .

fb/mashro3pdf

تنسرب مشاعر استكانت تفاصيلها منذ زمن ، كلمات تتوارد .. أصبحت رموزا لمشاعر ومواقف وأحداث ولحظات ، تيار جارف يأخذنا من مشارف الرؤى الى متاهة اليقين ، أشعر فى سريانه بتلك النكهة ، مثل ملمس الأشياء أو رؤيتها فى تتابعها استشعر دبيبها فى عروقى ، اشتم نكهتها فى وتنضح بها مسامى .. تمتزج الأنا بالأنا حتى يصبح الابتعاد بحثا عن أنا أخرى .

من أين بدأ الخلاف على وجه التحديد ، أعرف أنه استشرى بيننا ، حتى لحظات أشعر فيها أننا غريبان بلا سياق ، يزيد من غربتى أحيانا أن ذلك لايستلفته ، هل مامضى كان الحقيقة التى ابتعدنا عنها أم الوهم الذى عشناه ؟ وأين الفاصل بينهما فى لعبة التجاذب والتنافر ؟

تتمدد الخارطة ، أطوف بأصابعى عليها ، يبدى دهشته من اختيارى لهذا المكان الذى تبادر الى ذهنى فجأة ونحن نحـــدد مكانا للقاء .. كافيتريا صغيرة على اطراف الحى، لم نطرقها قبلا ، ولم أتوقف عندها ، أثناء مرورى العابر، بل لا أذكر متى تواجدت ، تتبادر الى ذهنى وأنا أفكر فى نقطة غير مطروقة نبدأ منها رسم الخارطة ، نطرق منها شوارع الحى ومعالمه ، فى تجل جديد للمرئيات .. البيوت التى أعرفها بتفاصيلها وتراتبها وأنمـــاطها المختلفة ، يغلب نمط منهـــا فى مكان ما، ليضفى عليه طابعا خاصـــا ، ويطغى نمط آخر فى مكـــان آخر ، لكن يصعب الفصـــل بينها داخـــل الحى عبر ســـنوات من علاقات الجيرة والجوار .

أحدد الخارطة بمثلث ذى ضلع شرقى منفصل ، مكان هادىء على تخوم المدينة ، يشرف على صحراء واسعة «الريدانية» دارت فى أرجائها معارك قديمة ، بنى الخديو عباس حلمى الثانى قصرا فيها وأصبحت «العباسية» بعد الاسماعيلية وبعد التوفيقية ، يتوافد عليها أناس ضاقت بهم الأحياء القديمة المكتظة ، وضجيج المتاجر ، أثرياء تجار صعد نجمهم يزحفون إليها من الجمالية والازهر والغورية ،

fb/mashro3pdf

وأصحاب ألقاب جديدة ، وبيوتات قديمة ، وأجانب متمصرون ومصريون متفرنجون ، يقيمون حيا جديدا ، فى الضلع الشرقى ، على تخوم الصحراء شوارع واسعة وقصور وفيلات محاطة بالحدائق ، أسوار حديدية تتسلقها أشجار الياسمين ، وتطل من فوقها أفرع الجهنمية والبونسيانا ، وبيوت كبيرة على الطراز الأوربى ، ذات واجهات متماوجة ، أزمنة تتقاطع بهم فى ذلك المكان ، يمضى كل منهم الى سبيله ، وتبقى تلك القصور والفيلات المهجورة ، لا أحد يعرف أين كان يقع قصر الخديو أو مكانه تحديدا تحول معظمها الي مدارس ومرافق وأبنية حكومية تمتلىء بالضجيج والزحام فى النصف الأول من النهار ، بعضها تم هدمه واقامة عمارات عالية مكانها .

عمارات قديمة تمتد موازية للضلع الشرقى على شارع العباسية ، تتغلغل مسافات داخل الحى ، تحمل الطابع الأوربى بطوابقها المرتفعة ، والشرفات والشبابيك الواسعة ، ثم عمارات حديثة ، بنيت فى فترات تالية لاتحمل التماثل نفسه فى الواجهات ، تتفرع الشوارع ثم تتشعب داخل الحى الى بيوت تصغر تدريجيا ، تحتوى بينها بيوتا قديمة ، تزداد تعاريجها الى حوارى الوايلية الضيقة التى تتكاثف فيها بيوت صغيرة مزدحمة تحوى ربوعا قديمة ، وأنماطا من البيوت الشعبية ذا الأحواش ، بيوت ذات واجهات ضيقة ومساحات صغيرة ، تتراص متلاصقة ، أخبره بأسماء الشوارع والبيوت القديمة وأسماء سكانيها وبيوت رفاق الدراسة القدامى ، يسأل : هل هم هم ؟

نمرق فى سوق الوايلية الممتد فى قلب الحى بازدحامه وضجيجه والنداءات المميزة للباعة الذين تزاحمت عرباتهم منذ الصباح الباكر ، وفلاحون جاءوا بالمقاطف والأقفاص وافترشوا الأرض منذ الصباح ، يحاولون انهاء حمولاتهم قبل انتصاف النهار ، أوضح له أماكن الدكاكين القديمة ، المصبنة والسرجة ومستودع

fb/mashro3pdf

الدقيق ومبيض النحـــاس ومعمل الطـــرشى ، ودكان الجرانيتا الذى كنا نقف أمـــامه نرقب العمـال وهم يقـومـون باعدادها وتعبئتـها فى تنكات توضع فى عربات يد صغيرة تطوف الحى على ايقاع الطبلة الذى لا تخطئـــه أذان الأطفال والبـائع يطوح رأسـه راسـمـا دوائر بزر طرطوره الطويل ، ينظر الى فـتـرينات السـوبر ماركت والمينى ماركت التى اصطفت على جانبى السوق ، تعرض كل شىء ، أدوات منزلية ومستحضرات تجميل وملابس وأحذية وأجهزة كهربائية ، وكل شىء .

الميدان الذى يلى شارع السوق وتتفرع منه شوارع أخرى ، ويتمدد واسعا قرب مجموعة من المدارس امتلأ بمكتبات مدرسية ومحلات خردوات ، وصباح يوم الجمعة ، عندما نذهب لنؤجر العجل وأطواق الهولاهوب ، ومقهى الضظوى ، حيث يجتمع هواة كرة القدم والمشجعون ، والمباريات ، التى تقام فيه ظهر يوم الاثنين ، ويزدحم بالمشاهدين الذين يقفون فى مربع كبير ، وتزدحم الشرفات المطلة على الميدان ، حين تنطلق صيحات مدوية فى صوت واحد .

جامع السنية بشبابيكه الواسعة من الخشب الخرط ، وبوابتـه الضخمـــة المنقوشة ، والمئذنـــة القصيرة المدببة والمقرنصـــات التى تعلو حافته .

الحدائق الواسعة المحيطة بالحى ، ومبرة طلعت حرب ، والنادى الملحق بها ، الذى كنا نرتاده لنمـارس ألعـابا وهـوايات شـتـى ، مع أطفـال الحى ، مـؤسسـة المواساة ، والحفل الخيرى السنوى الذى ترتاده سيدات أنيـقات ، تفوح رائحة عطورهن ، والاطفال الذين تجمعوا فى ثياب جديدة ، يؤدون الاناشيد والمشاهد التمثيلية وسط تصفيق المدعوين .

ينظر الى الخارطة ، يمر باصبعه عليها يقول : كل ذلك أعرفه ، رسمناه قبلا ، أعرف كل ماسنقولين ماذا يجدى أن نعيد رسمها ؟

fb/mashro3pdf

يغمض عينيه ، وهو يعدد الأسماء ، ويردد : أعرف كل ذلك .

أقفز أمامه ، أتوقف وأنا أشير الى مبنى المدرسة الابتدائية ، نقف أمام السور الحديدى المبطن بالصاج تطل من فوقه أفرع الأشجار ، أذكره بلعبة الحجلة على الرصيف قبل دقات الجرس ، وباعة الدوم والحرنكش وغزل البنات وحمص الشام، وكيف ستبدو فى الخارطة أبلة عزيزة الناظرة وهى تقف فى شرفتها لتشرف على طابور الصباح ، وحركتها التى لاتهدأ بين فصول المدرسة ، أذكره بأبلة شفيقة مدرسة الفصل على مدى سنوات دراستنا بالمدرسة بعد تخرجها من مدرسة المعلمات مع أبلة عايدة ، كنا أول فصل تتولى الاشراف عليه ، تعرفت بأهلنا جميعا وعرفت كل شىء عنا ، جلساتها معنا قبل الامتحان لنراجع الدروس ، وانتظارها على باب لجنة الامتحان مع أولياء الأمور لتطمئن بنفسها على الاجابات .. الأستاذ وجيه مدرس التربية الزراعية علمنا كيف نغرس زهور عباد الشمس والبتونيا والبانسية ، وقد جعلنا ذلك حريصين عليها أذكر أن أحواض الزهور لاتزال موجودة حتى الآن ، وأخبره أن أبلة عايدة أصبحت هى ناظرة المدرسة الآن .

يقول : وكيف كانت تبدو فى الخارطة عندما كانت فيلا يسكنها الموسيقار الكبير قبل أن تصبح مدرسة .

أقف أمام مبنى المدرسة الثانوية ذات الطراز الانجليزى بخطوطها المستقيمة، ولونها الطوبى، بخطوطها بيج فاتح فى الأفاريز المستقيمة البارزة، تحتل مساحة واسعة من الشارع الرئيسى، وتمتد الى شارعين جانبيين، والشرفات ذات الأسوار الخشبية التى تمتد بطول المبنى وتقع به فصول الدراسة، والبرجولات التى تعلو شرفات الطوابق الأخيرة، واحدة من أقدم المدارس التى تقع فى الأحياء القديمة المحيطة بوسط المدينة، أحكى عن حفلات الخريجين التى شهدت آخرها

fb/mashro3pdf

وأنا صغيرة ، يأتى رجال مشهورون ونجوم مجتمع ، يستقبلهم الأهالى بالزغاريد، وعن رجال كهول يتحدثون عن المظاهرات التى خرجت منها للمطالبة بالجلاء والتنديد بالاحتلال ، ومطاردات البوليس للمتظاهرين فى شوارع الحى ، وعن المحاكمة التى عقدت فى قاعة المدرسة ، وظلت محورا لمناقشات طويلة ، كان الطلبة هم المتهمين ، والدفاع والقضاة والادعاء ، بينما جلس الناظر والمدرسون والأهالى فى صفوف الجمهور وعن شباب يجلسون فوق أسطح البيوت وعلى المقاهى يتبادلون الحديث عن كتب قرأوها وأفلام شاهدوها يتحدثون فى الفن والفكر والسياسة ويرسمون خطوطا لمستقبل عريض ، يتطرق الحديث عن أجيال جديدة من التلاميذ كيف يفكرون وماذا سيحكون لأطفال لم يولدوا بعد ؟

كيف تبدو تلك المدرسة فى الخارطة ؟ مستطيل كبير يحده الشارع الرئيسى، مكتبة البارودى التى تشغل فيلا قديمة وفناء صغيرا محاطا بسور حديدى الساعات التى أمضيناها داخل قاعات الاطلاع ،استعارة الكتب وتبادلها ، ندوات جماعة أصدقاء المكتبة ، أرفف تحوى عناوين على عوالم مفتوحة ، ومن الذى قرأ أولا واكتشف لنا كتابا مهما منها .

أذكره ونحن نمر أمام القبة الفداوية بالحكايات التى سمعناها عنها ، لا أحد يعرف من الذى بناها وأسماها ، مبنى مرتفع ذو درج عريض تغطيه قبة واسعة ، كانت الأرض المحيطة به رملية خلاء ، يتحدثون عن قطاع الطرق والأشباح الذين كانوا يسكنونها ، والخوف من الاقتراب منها ، وعندما أصبحت وسط المبانى تمت زراعة حديقة حولها وأقيمت فيها الصلوات ودروس العشاء ، ورجال البوليس الذين أحاطوا بها يوما للقبض على بعض المترددين عليها .

ضريح رئيسى الوزراء اللذين أغتيلا ودفنا فيه متتابعين ، بارتفاعه وقبته

fb/mashro3pdf

المزخرفة ، واجهاته الزجاجية الأربع ، المغطاة بمشغولات حديدية مزخرفة ، وكيف تم بناء هذا الجامع ملاصقا له فى أحد جوانبه ، هل ينسى الناس مع الوقت من دفن فيه ؟ ليصبح شيخا يسعون لنيل بركته .

– وكيف يبدو كل ذلك فى الخارطة ؟

– ها هى .

يرفع القلم عن الورقة وهو يناولها لى : أليست تلك هى الخارطة ؟ أليست تلك هى الأبنية التى ذكرت ؟

– لكن ...

– مثل كل الخرائط القديمة .

أحاول أن اســـتجمع أنفاسى وأنا ألهث ، يقول : ماذا يجـــدى أن نعيد رسمها ؟

أحدثه عن البيوت والشوارع التى خرج منها أناس معروفون ، كتاب وفنانون وسياسيون ووزراء ، وبيوتات وبيوت قديمة ، أشير الى تلك الشقة فى الطابق الأول التى كان يغطى اللبلاب شرفتها وأصوات الموسيقى التى كانت تنبعث منها ، والشباب الذين كانوا يتوافدون عليها حاملين آلاتهم ، وكيف أصبحوا أشهر فرقة موسيقية .

– لم يعد هنا أحد .

من يوجد الآن فى تلك البيوت والشقق ؟ قلب الحى يضيق بالبيوت المكتظة ، فيمتد الى الاطراف ، فتضيق الاطراف بدورها وتتناثر بعيدا الى اتجاهات شتى بعيدة .

تتجه عيناى الى حيث تشير اصابعه الى أجزاء متآكلة من بيوت قديمة ، تهدلت ملامحها .. أتسمع هدير الموج متلاطما وهو يضرب فى الجدران، ويتراكم الزبد على ملامحها .

fb/mashro3pdf

- أنت التى قلت ذلك .

- قلت ماذا ؟

- ليس هناك زمن يعاش مرتين .

- ربما !

- وأنا متفق معك فى ذلك .

- ظننتك أنت الذى قلتها .

- ربما !

يختفى عن عينى وأنا أتابع السير من شارع الى شارع ، أحاول أن أتذكر متى قال أو قلت ذلك ، أمعن المرور عبر شوارع كثيرة ، أتمنى لو يلقانى خلالها مصادفة ، كما كنا نفعل فى لعبة الاستغماية .

أتوارى فى الشوارع والحوارى والأزقة ، وأتأكد أنه لن يرانى ، أو يستطيع تمييز مكانى فى تلك اللحظة بسهولة ، تبزغ الاضاءة من النوافذ والدكاكين ، وأصوات الاعلانات التى تسبق المسلسل التليفزيونى ، أعرف أنه فى تلك اللحظة يجلس الى مقعد بجوار النافذة الزجاجية قابعا تحت سقف واطىء ينظر الى ساعته ويحتسى القهوة وعيناه على الطريق يستدعى الجرسون ، ويسألنى عما أود أن أشرب .

وبمجرد أن انتهى من تناول كوب العصير ، ينهض واقفا ، أنظر اليه فيقول :

جئت فقط لأنك أردت أن نلتقى هنا ، لنذهب الآن الى مكان آخر لنستطيع الحديث بهدوء .

fb/mashro3pdf

(٨)

تشير لى لويزا وهى تقف بجوار عايدة فى الشرفة ، ومعهما جارة أخرى ، أصعد اليهم فى شقة عايدة ، تقدم لى الجارة قائلة نجيبة .

تشير برأسها محيية ، تقول إنها تعرفنى ، وعندما لايبدو أننى أعرفها تقول لويزا : زوجة صلاح ابن الاستاذ فهمى ، أتذكر صلاح الابن الأكبر للأسرة الذى تزوج فى البيت نفسه هو وأخته الكبرى بينما انتقل باقى اخوته الى بيوت أخرى فى الحى نفسه ، كان الاستاذ فهمى يقيم فى الشقة نفسها قبل وفاته .

تقول عايدة : لم يعد إلا القليل من الجيران القدامى ، أناس جدد وطباع مختلفة ، يصعب التعامل معهم ، أصبحنا مجموعة قليلة بعد أن كنا نعرف بعضنا البعض جميعا فى الشارع .

تواصل لويزا حديثها معهم عن نادية أختها التى هاجرت هى وزوجها ولم تخبرها إلا بعد أن أعدا كل الترتيبات .

تقول لها عايدة : زوجها السبب ، فهو مؤكد طلب منها ذلك حتى لاتثنى عزمها .

تقول لويزا: ليست أختى فقط، بل ابنتى ، كان عمرها ثلاث سنوات عندما توفيت أمى .

fb/mashro3pdf

تتدخل نجيبة : لم تقصرى معها فى شىء ، لكن هذا شأن الأولاد جميعا .

يبدو الحديث معادا ومكررا ربما بالعبارات نفسها ، تستأذن بعد قليل فى الانصراف وتنهض معها نجيبة أنهض معهما، تشير لى عايدة بالانتظار قائلة أنها تريدنى فى أمر ما .

تجلس ببطء فى المقعد وهى تتساند عليه بجسدها الممتلىء فى الجلباب البيتى الواسع ، أسألها عن الأولاد ، تقول : ياسر على وشك التخرج ، ونبحث له عن شقة ليفتحها عيادة ، والأولاد مازال أمامهم مشوار حتى يقفوا على أقدامهم .

تلتقط أنفاسها وتتنهد وتظل صامتة ، أسألها عن مها .

تقول : هذا ما أريد أن أتحدث معك بشأنه .

تميل برأسها قليلا نحوى : أريدك أن تعقليها اذا تحدثت معك .

ـ فيم ؟

ـ هى لابد أخبرتك ، وشكت لك .

ـ لكنى لم ألتق بها .

ـ لكنها قالت إنها التقت بك .

ـ أنا ؟ .. متى ؟

ـ أنت وعزة .

ـ آه .. هذا صحيح ، رأيتها عند عزة .

كانت تتحدث الى عزة وهى لاتكف عن البكاء، وعزة تقول لها ألا تكون ساذجة وتتخلى عن كل شىء ببساطة ومها تقول من بين دموعها : لا أحد يشعر بما أنا فيه .

fb/mashro3pdf

أنظر اليها فأجدها تحملق فى : إذن قابلتها .

- نعم ، لكنها لم تتحدث معى فى شىء .

- والله لا أعرف كيف تتصـــرف هكذا .. لاتطوى أســـرار بيتـها ، مـاذا يقـول الناس عنها من ورائها ، كل البيوت بها مشاكل ، لكنها لاتدع الأمر يمر بسلام .

- لكنها لم تحك لى شيئا .

- لكنها تكلمت مع عزة ، وفى وجودك .

- هذا صحيح ، لكنى لم أعرف على وجه التحديد ، ولم أشأ أن أتدخل ، وعزة صديقتها على أى حال وصلتها بها لم تنقطع .

تقول بصوت تحاول أن تجعله هادئا وحاسما : عموما سأقول لك ، حتى اذا تحدثت معك حاولى أن تعقليها ، فهى تريد أن تلتحق بعمل .

- طبعا هذا من حقها .

يعلو صوتها قليلا : كيف ؟ زوجها يعارض ذلك .

- ولماذا ؟

- هو لايريد ذلك ، وماحاجتها للعمل مادام يوفر لها كل شىء ، كيف لها أن تخرج كل يوم وتهلك نفسـها مابين العمل ومطالب البيت وتترك أولادها ؟ عندما اعترض على ذلك هددته بأن تترك البيت .. تصورى ؟ قال لها اذا تركت البيت فلن تعودى ثانية ولن ترى الأولاد .

- لكن ماهى وجهة نظرها ؟

- وجهة نظرها؟ فى ماذا ؟ فى أن تخرب بيتها وتشرد أولادها ؟زوجها أعماله توسعت وأصبح يمتلك الكثير، وهى مدللة لاتدرك ذلك، ولاتدرك حجم مسئولياته تردد حججا واهية ، إنها لاتعرف عنه شيئا ، ولا عن أعماله ولايخبـــرها هو بـأى

fb/mashro3pdf

شيء ، هذا لأنه يشارك أهله فى مشروعات كثيرة ، تقول إنهم يعرفون كل أسراره ويتدخلون فى كل شئون حياتهم ولايخصص لها أى مصروف خاص وهى كالغريبة فى وسطهم ، تصورى ؟ غريبة وأولادها هم أولادهم ، لا أعرف ماذا تريد بالضبط ، مادام يوفر لها وللأولاد كل احتياجاتهم ، وأين ستذهب اذا تركت بيتها وأولادها ؟

- كنت أظن أن الأمر مختلف ، فهو تزوجها عن حب ودائما كان يحاول ارضاءها ويتحسب رضاكم .

- زمان ، الأمور الآن اختلفت وهى لاتدرك ذلك، كنا فى مستوى أفضل منهم رغم ثرائهم وكان هو وأهله فرحين بالنسب ، الآن وضعهم مختلف بعد أن توسعت اعمالهم وأصبحوا رجال أعمال ، وهى لاتريد أن تضع عقلها فى رأسها .

تنظر إلى فى انتظار ما سأقول ، ولاأقول شيئا ، تواصل : أرجوك اذا قابلتها أن تفهميها ذلك .

- لكنها لم تأت إلى ولم أرها .

- أنت وضعك مختلف عنها .

أنظر إليها طويلا فتقول : لاتؤاخذينى ، والله لا أعرف ماذا اقول : واجهتنا مشاكل كثيرة وكانت تمر بسلام، أما أنتم .. الزمن تغير ، الوقت مختلف ..

أنظر إلى البيوت وأتوقف عند النوافذ والشرفات، معظمها موارب أو مغلق، ينبعث الضوء من خصاصها ، وقليل منها مفتوح، بينما الأضواء القوية المنبعثة من المحلات تغمر أسفل الشوارع مع حركة المارة والزحام ، فى حدود فاصلة بين أعلى الشارع وأسفله.

تعلق عيناى بأعالى الشوارع والبيوت بينما العربة تقطع بنا الطريق مسرعة، حتى نتجاوز الحى ، تخترق المقابر، ويعلو الطريق وسط التلال الجبلية، إلى ذلك

fb/mashro3pdf

المكان الذى يقع فى أعلى نقطة على حافة التلال، ويشرف على المدينة، نجلس إلى منضدة بجوار الحافة، تتكشف المدينة بقعة هائلة متلألئة بالأضواء ، أنهض وأقف بجوار السياج، أسلم وجهى لتيار الهواء المتدفق ببرودة ونعومة ، يقترب ويقف بجوارى .

- أعرف أن المكان سيعجبك.

ملايين البقع الضوئية الرقراقة ينكسر ضوؤها مع دفقات الهواء المتتابعة، يزداد الوهج ويخفت مع تتابعها ، بحر من الأضواء المتماوجة، خلف كل بقعة منها يكمن عالم، تدور عيناه فوق صفحة الأضواء ، ثم يتوقف عند نقطة ما.

- من هنا نبدأ رسم الخارطة.

- وهنا ؟

- ثم هنا .

ترسم أصابعنا دوائر فى الهواء تتداخل وتتماس وتتقاطع أوتارها، وتتواصل الخطوط ، يستند بيديه على السياج، يلتفت كل منا للآخر : أتذكرين؟

نقف أمام الخارطة الألكترونية للمدينة، نضغط زراً فتضاء بقعة ما ، وتنبعث إحدى نغمات السلم الموسيقى ، نضغط أزراراً بالتتابع، تضاء شوارع ومعالم أحياء ، وتتتابع النغمات، أرهف السمع معه، وأطلب منه أن يعيد مع استبعاد النغمات النشاز ونتناوب الأدوار ، ويرهف هو السمع معى ، ونظل نكرر ذلك إلى أن يتواصل اللحن صافيا ، فنبدأ فى رسم الخارطة .

- عمر طويل .

- أترى فيها عمراً ؟

- من الصعب نسيان ذلك .

- ومن الصعب استعادته .

fb/mashro3pdf

يطل وجهه من ثنايا الخرائط القديمة، استعيد خطوطها فى ملامحه، تتحد معالمها بنقاط ضوئية فوق صفحة وجهه، وتتلاشى حدود الوجه ، وسط صفحة مترقرقة بالأضواء .

تتقارب النظرات ، تتلامس الأصابع .. نتقارب ، نتلاصق وذراع كل منا يحيط بالآخر .

- ما الذى حل بنا ؟

- ربما لأننا اختلفنا.

- لكننا اتفقنا كثيراً.

- ولم نعرف كيف نختلف.

- أو لأننا لم نعد كما كنا .

موجات من الأضواء تبحر عبر المدينة، تخفى الارتفاعات والمسافات ، تبتلعنا دوامات لا مرئية، نغوص تحت صفحة الأضواء ، نفض محارات القاع، نبحث عن كتاب النيل وسفر التكوين ، تغوينا عرائس منذورة للفيضان وأزمنة موشومة بالآتى.

- أشياء كثيرة أفعلها ، وأتذكرك دائما ، أود لو تكونى معى ، كما كنا نفعل دائما.

- يراودنى نفس الشعور .

- ماذا إذن ؟

- هل ما يفعله كل منا يستهوى الآخر ؟

- لا أود أن أثير خلافاً .

أتسمع أزيزاً خافتاً ، وأرى نقطة ضوئية تتحرك فى الفضاء منفلتة من ملايين النقاط الضوئية ، تسير فى خط منحن ، تنوء تحت وطأة جاذبية الكتلة الضوئية،

fb/mashro3pdf

وهى تحاول الإفلات ، لتستقر فى الأعالى ، وسط نقاط عديدة تلتمع فى صفحة السماء .

- احك لى عن السفر .

- سأبنى قصراً كبيراً .

- تكلم جاداً .

- أتكلم بجد .

- هل عثرت على الخاتم ؟

- ربما أعثر عليه يوماً .

- كيف ستبنى قصراً إذن ؟ .. وكيف السفر ؟

- قصر فى الصحراء .

- يصلح عنواناً لفيلم .

- تلقيت عرضا بذلك.

يصمت قليلا وهو ينظر إلىّ ثم يواصل : عرض خالد الفكرة علىّ ، فله علاقات واسعة ومعارف كثيرون، طلب منه ذلك أحد رجال الأعمال .. قصر وسط الصحراء، يرتاده خلال رحلات الصيد ، وأوقات أخرى من العام ، يقول بأنه إنسان متفتح وثرى ، ويريد أن يكون البيت ذا طابع تراثى وبيئى مميز . ولديه إمكانيات ، عرض على خالد الفكرة ، وعرفنى به فى إحدى زياراته هنا ، قمت بعمل تصميم ، وأعجبه ، وانتهينا منه، وسأسافر ، لنبدأ التنفيذ .

يطول الصمت بيننا ، يقول : أليس ذلك ماتمنينا ؟ أن نجد الفرصة لتحقيق أفكارنا.

- أهذا ما تفكر فيه الآن؟

fb/mashro3pdf

– نعم أنا الذى صممته ، وسأراه يتحقق أمامى ، بالصورة التى أريد .. سيتضمن بالطبع أشياء كثيرة مما كنا نود أن نحققه .

– القصور .. القرى السياحية .

– ذلك هو المتاح ، وهو مطلوب أيضاً .

– الخبرة تختلف تماماً ، وتفرض نفسها على اسلوب البناء ، أترى كيف استخدمت نفس الطريقة فى بناء القرى السياحية ؟ وكيف جعلت منها مافيا المقاولات والمنتفعون من حولها شيئا باهظاً ؟ حتى يقال ، فيما بعد ، كيف تكون تلك عمارة فقيرة أو شعبية، يسرقون أحلامنا ويمسخونها .

– كفى شعارات .

يقولها بحدة ، وبصوت مرتفع ، يصمت فجأة ، يتناول قليلا من الماء ، ويحاول أن يستعيد هدوءه .

– خضنا دروباً مسدودة كثيرة .

– وقررنا أن نبيع أحلامنا لمن يدفع الثمن .

– ماذا تتصورين أننا فاعلان ؟ البكاء على أحلام انتهى عمرها الافتراضى ؟

يشيح بوجهه بعيداً ، أنهض وأقف بجوار السياج ، ينهض ، يمر الوقت بنا ، أعود إلى مكانى ، يسود بيننا صمت طويل ، نستحضر معه كل شىء ، ولا نجد ما نقوله .

fb/mashro3pdf

(٩)

تتوالى اللافتات وتتزاحم الأسماء ويلمع الزجاج ، أتلكأ أمام الفاترينات وألقى نظرة على المعروضات ، أتذكر ذلك المكان وأنا أنظر إلى المحلات ، اسأل البائع عن المحل الذى يبيع اللوحات والمستنسخات الفنية ، يلوى شفتيه، أذكر له اسم المحل ، يقول: أستطيع أن أدلك على محل لديه تشكيلة كبيرة من اللوحات الجدارية وورق الحائط .

ألمح يوسف على الرصيف المقابل وسط الزحام ، وأواصل السير ، أتوقف عند بائع الكتب فى الميدان، ألقى نظرة على الكتب والمجلات والجرائد وأتوقف عند الإصدارات الحديثة، أتناول بعضها وأتصفح الفهارس ، أحتفظ باثنين منها وأعيد الباقى ، ثم أستدير لأعبر الطريق ، ألمحه عند الطرف الآخر من الميدان ، يمسك بشىء لا أستطيع تبينه، ولا أعرف إن كان قد لمحنى أم لا.

أتوجه إلى كافيتريا ، أطلب كوباً من الشيكولاتة المثلجة ، وأجلس بجوار الزجاج المطل على الشارع ، أرقب العربات وهى تتجمع وتتوقف متراصة حتى تملأ الشارع ، والمارة يعبرون بينها فى خطوط متعرجة، سائحان عجوزان يغادران الفندق ويمسك كل منهما بالآخر والمارة يدفعونهما أثناء السير ، وهما يتقدمان خطوات ويتراجعان ، ألمحه فجأة واقفاً بجوار الفندق وهو يتطلع إلى الكافيتريا ، تستقر عيناه نحوى ثم يتلفت حوله، لا اعرف ان كان لمحنى أم لا من خلال الزجاج الفيميه أغادر الكافيتريا دون أن أنظر نحوه، وبعد مسافة أنظر خلفى ، وأراه يمضى فى اتجاه آخر .

fb/mashro3pdf

واحد من تلك الأبنية الضخمة ذات المداخل الواسعة الرطبة ورائحة مميزة، أصعد الدرج المرتفع وأضغط الجرس ، تفتح فتاة وهى تنتحى جانباً ، أجد عصام أمامى ، يصافحنى مرحباً.

- مصادفة ؟

- لا ، أعمل هنا الآن.

يطرق باب مكتب مصطفى ، ثم يفتحه ، ينهض مصطفى مصافحاً : أخيراً ظهرت !

أفاجأ بوجود خالد معه ، ويبدوان فى حوار لحظة دخولى أنا وعصام ، يصافحنى ويسأل عن أخبارى ، بينما مصطفى يطالع أوراقاً بيده وهو يقول : نصف ساعة وسأفرغ تماماً .

- جئت فى وقت غير مناسب .

- أبداً ، سننتهى سريعاً ، وبعدها ستأتين معى إلى البيت ونتحدث براحتنا ، تهانى متشوقة لأن تراك .

يقول عصام : دعك منهما ، سنتناول الشاى بمكتبى .

يسألنى : ما هى أخبارك ؟ وماذا تفعلين الآن؟

يلتمع زجاج النظارة على عينيه ، ويضيف : اختفيت منذ فترة.

تتضح ملامحه شيئاً فشيئاً .

- أشياء يطول شرحها ، قل لى ، هل تركت العمل بالشركة ؟

- أخذت اجازة من الشركة العمل بها أصبح مملاً ، وعرض على مصطفى أن أعمل معه بالمكتب .

- هنا أفضل بالطبع .

- ليس كما تتصورين ، كل مكان له مشاكله ، العمل أيضاً مقيد بالظروف

fb/mashro3pdf

وشروط السوق ، ويصبح طرح ما نود أمراً صعباً ، خاصة مع عدم توافر الامكانيات اللازمة ، لكننا نحاول قدر المستطاع .

– لكن الوضع بالمكتب استقر إلى حد ما ؟

– الأمر لا يخلو من خلافات بين مصطفى ورأفت شريكه فى المكتب، رغم أنهما اتفقا فى البداية على أشياء محددة .

– وخالد فى زيارة عمل ؟

– بالنسبة لخالد الوضع مختلف ، فهو يعرف طريقه فى السوق جيداً ، ويستعين بنا فى أشياء .

يضحك قائلا : ويعرف طريقه أيضاً خارج السوق ، أى والله ، خلال سنوات قليلة ، سيصبح من كبار رجال الأعمال .

يعاوده الضحك ثانية : لو عرفت ليلى ذلك منذ البداية لتغير الوضع .

– لا أعتقد أن ذلك كان السبب .

– «واى نوت؟» يقول مقلداً طريقتها فى الكلام.

– بالمناسبة، التقيت بها منذ فترة .

– وحدثتك عن مشروعها لتعمير الصحراء ؟

– لديك فكرة إذن .

– نعم ، فهى تجيد الدعاية ، زارتنا مرتين وتكلمت كثيراً ، سوف تحول صحراءنا إلى قطعة من بيفرلى هيلز .. أو تصبح بيفرلى هيلز امتداداً لها .

– لكن الأمر جد ، وهى متحمسة جداً .

– وماله ؟ ماذا يضير فى ذلك ؟

يستطرد معابثاً : لكنها رغم كل شىء تزداد جمالاً .

– كما أنت ، لم تتغير .

fb/mashro3pdf

يتوقف مبتسماً : أتغير والله ، رغم أنفى .

– وأصبحت أباً ؟

– ابنتى الآن عمرها ثلاث سنوات .

– الأمور استقرت بالنسبة لك.

– أرجو ذلك .

يقول بصوت منخفض : ميرفت انسانة طيبة، وتختلف تماماً عن مديحة، لكن .. لها أيضامشاكل من نوع آخر ، لاتستطيع استيعاب أشياء كثيرة .

يتوقف ، أقول له : لكنه اختيارك الذى تحمست له .

– هذا صحيح .

يسأل : ما هى أخبارك بشكل عام ؟

يمر خالد أثناء خروجه لمصافحتنا ، يقدم لى كارتاً ويدعونى لزيارته فى مكتبه، مؤكدا أنه يود الحديث معى .

نغادر المكتب أنا ومصطفى وعصام ، يدعو مصطفى عصام أن يأتى معنا، يقول إن لديه موعداً وسيلحق بنا فيما بعد .

يقول مصطفى : خالد أصبح مزعجاً فعلا.

– خلاف بينكما فى العمل ؟

– لايوجد عمل مشترك بيننا ، وهو يحاول ذلك بإلحاح ، فى البداية طلب منا دراسة جدوى وقمنا بها ، وضعنا نقاطاً لم ينفذها ، ورغم ذلك يحاول إقناعنا بالمشاركة معه، رغم الخلاف الشديد بين ما يعمله وما نقوم به ، لجأ إلى رأفت محاولاً استمالته ومستغلاً للخلافات فى وجهات النظر بيننا، خاصة مع ضغط السوق وظروف العمل .

fb/mashro3pdf

– لماذا لايعمل ذلك من خلال شركته أو بمشاركة آخرين يتفقون معه فى وجهة نظره ؟ لماذا يصرعليكما ؟

– تلك هى المشكلة بالضبط .

تطول وقفتنا فى إشارة المرور ، يعلو صوت الكلاكسات ، أفتح الزجاج، ألمحه على الرصيف يحاول العبور ثم يتراجع ، أغلق الزجاج بسرعة ، وتتحرك العربة قبل أن يرانا ، يسأل مصطفى : ماذا ؟

– لاشىء .

تستقبلنى تهانى متهللة وهى تقول : كيف قبضت عليها؟

– جاءت برجليها .

يقول وهو يخلع جاكتته : أنا جائع جداً ، والمناقشة مع خالد مجهدة.

– ألا يزال مصراً ؟

– شرحت لرأفت وجهة نظرى ، لكنه بدأ يستميله إلى جانبه .

شقة كبيرة واسعة وأثاث بسيط بألوان فاتحة تم اختياره بعناية ، أزيلت أجزاء من الحوائط وطليت الجدران كلها باللون الأبيض فبدا المكان متسعاً ، تحتل حجرة المكتب جانباً منه وتفتح بباب جرار محفورة عليه زخارف هندسية تضفى اتساعاً كبيرا ، لمسات جمالية فى اللوحات والأركان التى يحتل أحدها مكانا للجلوس ، وتركت معظم المساحات خالية .

تقول تهانى : لم تريها بعد أن أعددناها وأزلنا الحوائط .

نتناول الغداء ، وأشعر بعده برغبة فى النوم ، تصحبنى تهانى إلى حجرتها وتقدم لى ثوبها ، وتسدل ستاراً سميكاً على النافذة، استغرق فى النوم بمجرد أن أضع رأسى على الوسادة ، استيقظ فى سكون وإظلام تامين، أنهض من الفراش

fb/mashro3pdf

وأفتح باب الحجرة، أجد تهانى تجلس مع الأولاد فى حجرتهما تراجع معهما دروسهما ، كانا قد كبرا قليلاً .

أغسل وجهى وأرتدى ثيابى ، تقول تهانى : مصطفى نائم فى حجرة المكتب وسوف يستيقظ بعد قليل ، لنعد الشاى أولا .

تقول : مصطفى أصبح مشغولاً بالعمل فى المكتب الذى يستغرق معظم وقته، وتقوم هى بأعباء المنزل والأولاد بعد أن كانا يفعلان كل شىء معاً ويقتسمان الوقت بينهما، فى البداية اعتبرت ذلك فترة مؤقتة خاصة أنهما استطاعا أن يغيرا شقتهما القديمة الضيقة بعد أن كبر الطفلان ، والتحقا بمدارس جيدة، لكن ذلك جاء على حساب اهتمامات وأنشطة فى حياتهما تستلزم وقتاً ، مثل حضور بعض المؤتمرات والمشاركة فى ندوات، واقتصر نشاطها أساسا على عملها بمركز البحوث كباحثة اجتماعية فى فترة العمل الصباحية ، كذلك مصطفى لم يعد لديه الوقت لمواصلة أبحاثه ومتابعة أشياء يهتم بها ، حتى حفلات الموسيقى التى كان يواظب على حضورها .

تقول : أشعر بعزلة عن العالم .

أقول لها : وأنا أيضا ، أود عمل أشياء كثيرة ، لكننى لم أبدأ فى عمل شىء بعد .

تقول : كنا نلتقى دائما بانتظام نحن وباقى الأصدقاء ، أصبحنا لانلتقى إلا مصادفة .

- وأصبح لقاؤنا روتينياً عابراً .

تقول : هذا صحيح ، تسألنى : ماذا تنوين أن تفعلى ؟

- أفكر بأشياء كثيرة ، أشياء بدأنا فيها ولم أواصلها .

fb/mashro3pdf

تنتهى من إعداد بعض قطع الحلوى ، وتضع الغلاية على النار ، تلتفت إلى قائلة : اعتبرنا أن خلافكما مؤقت حتى رغم تركك البيت .

– لم نعد كما كنا .

– لكن حياتكما بدأت تستقر .

– فى أى جانب تقصدين ؟

العمل .. المعيشة !

– لكن الخلافات بيننا تزايدت .

يستيقظ مصطفى ، ونجلس لتناول الشاى ، يأتى عصام بعد قليل بصحبة شخص آخر ، تستقبله تهانى مرحبة ، يقدمه لى قائلا : سمير حنا ، محامٍ صديق.

يبدو على علاقة وثيقة بتهانى ومصطفى ، سمعت اسمه قبل ذلك فى أحاديثهما العابرة .

تسأله تهانى عما تم فى اجتماع لجنة حقوق الإنسان ، يستغرقان فى حوار جانبى، يسألنى مصطفى : ما هى أخبارك ؟

– أقوم بمراجعة الأبحاث والأوراق القديمة، أفكر فى القيام بدراسة عن الأحياء القديمة .

– من أى جانب ؟

– عن عمليات الإحلال التى تتم بها ، وطمس هويتها ، والشكل العشوائى الذى يتم به الإحلال .

يستمع بانتباه ، ويقول : فكرة جيدة فعلاً .. مشكلة كبرى .

أجد نفسى أتحدث عن التغيير وفقدان الهوية وطمسها ، ويتطرق الحديث بيننا

fb/mashro3pdf

إلى المقاولين الذين أصبحوا يتحكمون فى هذا التغيير ، وغياب التخطيط الذى يستوعب الرؤية الجمالية والهوية .

يطلق نفساً طويلاً : تلك هى المشكلة التى تحاصرنا من كل جانب .

يقول عصام : ومشكلتنا فى المكتب على وجه الخصوص ، أبحث عن المقاول.

يقول مصطفى : تخيلى أى مقاول بإمكانه أن يحدد الهوية أو يغيرها كما يحلو له .. فوضى فى كل مكان .

أقول : ويظل لنا نحن الحديث ذو الشجون عن الهوية والتراث والفن والعمارة والجمال والتجديد .

يقول عصام : أتخيل أن نظل نردد ذلك ونحن فى أماكننا حتى يتم إحلالنا نحن أنفسنا .

نضحك ، ويقول له مصطفى : مؤكد أنت تم إحلالك .

أقول له : بالعكس ، الدنيا تتغير ، وهو كما هو .

يقول عصام : أنا أحللت زوجتى الأولى بزوجة أخرى .. ولامانع أن تقوم هى بإحلالى بآخر .

يقول مصطفى : بعينك، سنقوم بترميمك.

- تلك هى الكارثة .

يبدو مصطفى قلقاً وهو يتحدث مع عصام عن العمل بالمكتب ، يقول إن الخلاف مع رأفت تزايد ، وليس الأمر خاصاً بشأن خالد فقط .

ينظر إليه عصام طويلاً ويهز رأسه : لن أتكلم .

يصمت مصطفى ويزداد توتراً .

تقطع تهانى حديثها مع سمير وتقول موجهة الحديث لعصام : الكلام سهل جداً .

fb/mashro3pdf

يقول عصام : لن أقول شيئا .

يلتمع الزجاج فى ومضات سريعة ، تنعكس المرايا على الوجوه ، يبرز وجهه وهو يقف متطلعاً إلى أعلى ويداه خلف ظهره تمسك بذلك الشىء الذى لا أستطيع تبينه، يستدير ويحاول أن يخفيه فى ملابسه .. أجتاز شوارع كثيرة وأعبر مفارق، أميل جانباً لأجده فجأة أمامى ، يفاجأ هو أيضا ، يتراجع خطوات للخلف ويقف كل منا أمام الآخر .

- كيف حالك ؟

- بخير ، وأنت ؟

- على ما يرام .

نتوقف قبل أن تنطلق الأسئلة ونمضى فى خطوات قصيرة وبطيئة .

- مشاكل كثيرة تتزاحم ، الوقت يمضى دونما أشعر .

- فعلا الوقت أصبح ضيقاً .

- و الزمن كله ؟

نحاول أن نتجاوز الزحام ، نسرع الخطى ، نعلو ونهبط على الرصيف متفادين حركة المارة ، نتبادل الكلمات فوق رءوسهم.

- عدت للخرائط القديمة ؟

- وأستعيد الآن كل شىء .

- أعلم أنك ستفعلين ذلك.

يمد يده داخل ثيابه ، يرمقنى سريعاً ثم يسحب يده ويمسح بها على جاكتته .

- بنيت القصر ؟

- أى قصر ؟

fb/mashro3pdf

- هناك فى الصحراء .

- آه ، وأشياء كثيرة .

- لكنك لاتذكر .

- ذلك أنها كثيرة.

-حدثنى عنها .

أيها بالضبط .

تتدافع موجات تحملنى إلى أعلى وتهبط بى ، وأراه بعيداً واقفاً مكانه ورأسه يتمدد ويستطيل ليعلو معه ثم يعود كما كان وهى تنحسر ، أغوص طويلاً تحت الماء، تندفع موجة لتلقى بى على الشاطىء .

ألمح مها مقبلة باتجاهى ، أتجه إليها، نتوقف طويلاً كل منا أمام الأخرى ، أقول لها : فكرى بهدوء ، تقول : عايدة قالت لك ذلك ؟ تتركنى وتمضى مبتعدة، أهم للحظة أن ألحق بها.

يبدأ العد التنازلى ، نسرع متفرقين ، يختار كل منا مكاناً للاختباء ، أجلس فى مكمنى وأتأكد أن أحداً لن يرانى ، يمضى الوقت .. أتذكر أننا نسينا من الذى عليه الدور كى يفتش عنا ؟

fb/mashro3pdf

(١٠)

نسير فى خطوط متعرجة على حافة الخارطة ، يتوالى الأصفر والأخضر ، تتبعج الحواف فى مواضع ثم تعود لتتلوى إلى الداخل ، ونحن نمد بصرنا على استقامته لنتبين مواضعها .. أدخنة مصانع وفضاءات حقول ، نسير حتى نتبين المعالم ونتوقف عند تلك البقعة التى تتوه فيها خيوط الخارطة ونحن نحاول أن نواصلها حتى تسفر عن مثلث فى تعاريجها ينحصر بين المصانع والحقول فى تلك الزاوية .. نرتب ما تجمع لدينا من معلومات لنبدأ فى عملية رفع معمارى لتلك المنطقة بين ما هى عليه وما ينبغى أن تكون .

أقترح أن نبدأ بالأسئلة ونلتقى بالناس ، وفى ضوء ما يتجمع لدينا من معلومات ، نبدأ بوضع فروض البحث .

يقول يوسف : يجب أن نحدد ذلك فى البداية ، ثم نبدأ بوضع فروض البحث .

- تنقصنا معلومات كثيرة ، يجب أن يأخذ الاستطلاع مداه، قد تكون هناك أمور ليست فى الحسبان .

- يكفى الاستبيان ، ويمكن أن تكون هناك بنود للأمور العارضة.

- قد نكتشف من خلال الاستطلاع أشياء تغير منطلقات البحث نفسها.

نجلس فى الحجرة التى ازدحمت بالأوراق والكتب والخرائط ، بعضها معلق على الجدران ، نتحرك فيها بحساب ، فى جانب من الحجرة مكتب صغير فوقه

fb/mashro3pdf

مصباح به عاكس للضوء ، مشدود بخيط إلى الجدار بحيث يتدلى فوق المكتب وكرسيان وأرفف للكتب ، وفى الجانب الآخر أريكة تستخدم للجلوس والنوم عندما يأتى زائر ، ويفضى الباب إلى ممر فى جانب منه باب حجرة أخرى ، بها سرير صغير ودولاب من الصاج، وبالممر باب يؤدى إلى دورة المياه ، والمطبخ ، وفى نهايته باب الشقة .. كانت الحجرة تمتلى بالأصدقاء ، يفترشون الأرض ، تمتلىء بأدخنة السجائر ، نفتح شباكاً يطل على منور خلفى يقابله شباك يطل على الشارع، والمصباح مضاء ليل نهار ، نستغرق فى نقاشات وأحاديث أو سماع موسيقى لا نشعر بمرور الوقت .

يتمطى وهو يقف عند الباب بينما أجلس لأطالع الأوراق والنقاط التى حددها وتتضمن توصيفا للحى ، أحد مناطق الأطراف تليه المنطقة الصناعية ويعتبر رصيداً لها يمكن أن يتواصل معها، أو يصبح منطقة سكنية للعاملين فيها ويضم الخدمات والمرافق اللازمة للسكان ، وهى مازالت أرضا زراعية تزرع بطريقة بدائية ، تمت إقامة مشروع إسكان شعبى بها، أنتهى من قراءة النقاط وأضيف إليها بعض الملاحظات أقرؤها عليه، يهز رأسه ، يقول إنه لم ينته منها سوى فى ساعة متأخرة استطاع بعدها أن يغفو ساعات قليلة ، يقوم بإعداد القهوة .

– هناك مفاجأة .

– ما هى ؟

– لو قلت لن تكون مفاجأة .

أنظر إليه فيقول : لا ، لا تحاولى .

أقترب منه ، أحدق فى عينيه ، يقول : صحيح عيناك جميلتان ، لكن لن أضعف أمسك طرف اللوحة الملفوفة اسطوانة وأدفعه بها.

– لاتتهورى .. السلاح يطول .

fb/mashro3pdf

أضحك فيحيطنى بذراعيه ويجذبنى إلى صدره : لكن رغم ذلك أحبك .

أميل برأسى إلى صدره وأصابعه تتخلل شعرى ، تلتقى الشفاه وتمزج أنفاسنا، تتوحد الرؤى بالمرئيات تحلق فراشات مرفرفة ملونة تمتلىء بها الحجرة.. يصطخب الموج هادراً ، تتلى موسيقى الكون وينتظم الإيقاع أزاهير مغردة .

- مصطفى .

- أهو المفاجأة ؟

سنوات الدراسة الأولى ومعسكر منظمة الشباب وحلقات النقاش ، يسبقنا فى سنوات الدراسة بالكلية ، ويبدو كتلميذ خجول بعوده النحيل ونظارته الطبية ،يلفت أنظارنا أثناء النقاش بأفكاره التى جعلت النقاش يدور فى اتجاهين بدلا من اتجاه واحد ، وبعيداً عن حلقات النقاش نتحدث فى أمور عادية بلغة جديدة ، تربط العالم الواسع المحيط بنا بكل خلية فى أجسادنا ، ينفذ للأشياء ببساطة وعمق ، تتوثق علاقتنا به هو ومجموعة من الزملاء .

- التحقت بالعمل فى مكتب استشارى بعد رفض تعيينى بالجامعة وبدأت الإعداد للرسالة .

يقول يوسف : مصطفى يعد دراسة عن النمو العمرانى للمنطقة الصناعية الجديدة .

- غير معقول .

- تلك هى المفاجأة ، لم أشأ أن أخبرك .

يقول مصطفى : طبيعى أن يتجه تفكيرنا نفس الاتجاه من جوانب مختلفة .

أقول له : نقوم برفع معمارى لأحد أحياء الأطراف ، اخترنا تلك المنطقة لأنها قريبة من المنطقة الصناعية وستعتبر امتداداً لها مستقبلا .

fb/mashro3pdf

تجمعنا تلك الحجرة فى مكتب التنظيم السياسى بالحى ، نفكر فيما ينبغى أن نقوم به ، أحاديث كثيرة تمتد خيوطها تتناسج وتتصاعد شراعا .

نعرض على مسئول التنظيم فكرة افتتاح فصول محو الأمية ، لايبدى رأيا لكنه يشيد بحماسنا ورغبتنا فى العمل ، نضع الخطة ونعد البرنامج ، ثم نبدأ الاتصال بالدارسين ، يقتنع البعض ويتحمس البعض الآخر ، وفى الموعد المحدد لم يأت أحد ، نعلم انهم منعوا من الدخول لانه لاتوجد تعليمات ، يقول لنا المسؤل فى التنظيم : انتم تسرعتم لانكم لم تعرضوا الفكرة ، ولم تناقشوها فى خطوات سليمة مع المسئولين المختصين لان لديهم خطة بالفعل ، ويجب أن نستمع إليهم ونستعين بهم فلديهم الخبرة والمعلومات ، نقول إننا اطلعنا على تلك البرامج واتصلنا ببعض المسئولين فعلا وأمدنا بعضهم بها، يقول إن ذلك لم يتم بخطوات سليمة وأنه سيتولى ذلك بنفسه ويخبرنا بالنتائج ، وعندما يطول انتظارنا يقترح علينا القيام بأعمال أخرى حتى يتم الاعداد لها ، مثل الإشراف على نظافة الحى ، وتنظيم الصفوف أمام المجمعات الاستهلاكية كى يفهم الناس معنى التنظيم فيما يهمهم ، وعندما حاولنا الاتصال بالدارسين كان البعض يتهرب منا ، وقال بعضهم: اتركونا فى حالنا ..

فوجئنا باستدعائنا إلى قسم الشرطة ، سألنا المحقق عما نقوم به وحاولنا أن نعرف سبب الاستدعاء فقال إن ذلك إجراء عادى ، لأن بعض العناصر تتسلل بين صفوفنا وتستغل حماسنا للعمل لصالح جهات أجنبية ، لذا يجب توخى الحرص حتى لا يستغلونا ، وبعدها انصرفنا ، قال مسئول التنظيم بعد ذلك إن قراراً صدر بتجميد نشاطنا مؤقتا حتى يتبين ذلك ، وبعدها بأيام قليلة تم القبض على مصطفى وبعض الزملاء وأشخاص آخرين لانعرفهم .

fb/mashro3pdf

يشير يوسف إلى مثلث صغير يكمن عند حافة الخارطة تائها فى تعاريجها : رفع معمارى لمنطقة فى طور التحول .

يتأمل مصطفى قائلا : فكرة جيدة ، سأحاول الاستفادة مما تتوصلون إليه .

أقول : نحن نحاول الاستفادة من الدراسة التى قمنا بها لأحياء المدينة ، ومراعاة التجانس بين القديم والجديد بما يبرز الهوية .

يقول : والمستقبل وتطوراته ؟

يحدثنا عن النمو العمرانى للمنطقة الصناعية وأثر التحولات والهجرة من الريف للمدينة على نمط العمارة وارتباط ذلك بالأنماط المعيشية للسكان ، كما تبدو آثارها على المسكن ، وكيف نخلص من ذلك إلى تطوير المنطقة الصناعية ، وإيجاد نمط للمسكن يرتقى بالمستوى المعيشى للناس ويطور من أسلوب حياتهم ، لأن المسكن عامل هام فى دفع حركة الانتاج والتنمية .

يقدم لنا استمارة البيانات ، يشرح لنا بعض النقاط التى يجمع معلومات حولها ، يقول إننا سنستعين بمجموعة من الزملاء والأصدقاء لملء البيانات ، وأجد فى ذلك فرصة للتعرف على المنطقة الصناعية بما يفيدنا فى الرفع المعمارى .

كنت أنا ويوسف قد قررنا أن نقوم بدراسة منطقة الزاوية كى نحاول من خلالها صياغة بعض الأفكار والآراء التى بدأت تتبلور لدينا بشكل عملى ضمن دراستنا لأنماط العمارة فى الأحياء المختلفة واعتبرنا ذلك تمريناً لما توصلنا إليه بشكل واقعى .

يدور حديث طويل مع مصطفى بعد تناول الشاى ونشعر بالجوع ، يقترح يوسف أن يدعونا إلى وجبة سمك مشوى .

fb/mashro3pdf

نفس المكان الذى اعتدنا أن نتجمع فيه خلال الصيف ، فى تلك البقعة على النيل ، يعرفنا بعض الرواد الذين اعتادوا التردد عليه والعاملون فيه ، بمجرد وصولنا يقوم الجرسون بضم بعض المناضد كى تتسع لجلوسنا معا ، كان بعضهم قد وصل قبلنا ، تقع عينى على فتاة بصحبة عزة ، تضحك عزة قائلة : ظننتها نفسك ، أليس كذلك ؟

تقدمها لى قائلة : نادية ، زميلتى بالكلية ، جاءت من قريتها لتمضى يومين معى ، ورطتها معنا فى البحث .

تصافحنى نادية وهى تبتسم ، كانت ترتدى فستانى الذى أعطيته لعزة بعد أن أبدت إعجابها به طويلا لأستريح من إطرائها له .

تقول نادية : فستان عملى ومريح .

تقول عزة : وجدته مناسبا عليها أكثر منى .

تأتى نهلة وعمرو ، يلتف الجميع حولهما مهنئين بإعلان خطبتهما ، يقول عادل: فاتحة خير .. بداية النهايات السعيدة .

تبدو نهلة سعيدة بابتسامتها الهادئة ووجهها الطفولى وهى تتلقى التهنئة ، وشعرها بصفرته اللامعة ينسدل حول وجهها وقد ورثته عن أمها السويسرية ، وكان إعلان الخطوبة تتويجاً لعلاقة بدأت منذ التحاقهما بالجامعة كانا خلالها لا يفترقان، وقد نال عمرو رضاء والدها أستاذ الفلسفة بالجامعة، يعلن عمرو أنهما التحقا أيضا بالعمل معاً بمكتب إحدى الوكالات الصحفية، يقول : بمجرد الانتهاء من إعداد الشقة سنتزوج فوراً.

تقول عزة جانبا: كل شىء معد فى انتظارهما، الشقة والوظيفة ..

يبدأ مصطفى فى توزيع استمارات البحث، يستأذن عمرو ونهلة فى الانصراف، يقرأ مصطفى الاستمارة ويشرح طريقة ملء البيانات، يتحدث عن الحى الذى سنقوم بالعمل فيه وأقسامه المختلفة ويرسم خريطة كروكية ويقسمه

fb/mashro3pdf

الى مناطق ويشرح لنا الأماكن التى سنتوجه إليها، يقول إنه سيصحبنا أولاً فى حولة لنتعرف عليها بأنفسنا .

تلكزنى عزة فى ذراعى قائلة : ألم تلاحظى شيئا ؟

أنظر اليها فتقول : خالد وليلى ، وعندما لا أجيب تقول : يبدو أن المسألة جد.

– وماذا فى ذلك ، منذ فترة طويلة ونحن نراهما معاً .

تغمز قائلة : مناسبين لبعض تماماً .

ليلى تلينا فى السنة الدراسية. وهى محط إعجاب الكثير من الزملاء، وبعض المعيدين، تلفت الأنظـــار اليها دائماً بمعارضتها لآراء الآخرين، تحكى لنا حكايات عن أسرتها التى تنحدر من ســلالة عريقة تمتـــد إلى اســـتنبول، حكايات أشبه بأفلام الســـينما القديمة تستلزم قـدراً من الخيال لاستيعابها ، بينما خالد من أســـرة ريفية بسيطة ، يلتحق بالعمل خلال شهور الصيف كى يستطيع تدبير نفقاته ، تبدى إعجابها الشديد به وهو يتحدث بصوت جهورى فى نـــدوات الكلية، وباتـــت تردد الكثير من أفكاره وكلماته وأحياناً طريقته فى الكلام نفسها .

يدس عصام رأسه بيننا قائلا : أشتم رائحة نميمة بدونى ، ثم يقول لعزة : ارحمى نفسك ..

تلمح الى ليلى وخالد قائلة : مناسبين تماما لتكوين فرقة استعراضية ، أما الارتباط فلا أتخيل تجمع أسرتيهما .

يقول : سبحان منظم الوحدة والصراع .

أقول لهما : تحشران نفسيكما فى أمزجة الغير .

يقول بخفته المعهودة : هى الغيرة .. لكن ماذا أقول ، هو سباق دائما .

fb/mashro3pdf

تقبل مديحة وطفلتها ، تسبقها الطفلة جرياً الى عصام الذى يحملها بين ذراعيه ، تقول : ما زلتم تلتقون هنا ؟ أمل ألا تتباعدوا بعد التخرج .

تعمل ممثلة بالمسرح، كانت حريصة على حضور ندوات الجامعة وبدأنا نتعرف بها ، ابنتها دائماً بصحبتها حتى أصبحت تألفنا وأحيانا تتركها معنا ، كانت الطفلة تستمع الى أحاديثنا ونفاجأ دائما بتعليقاتها التى تحاول بها تقليد بعض الكلمات التى نرددها ، وقد انفصلت مديحة عن زوجها الذى ارتبطت به فى بداية حياتها، وشاركت معنا فى المظاهرات ، متحمسة وعلى قدر من الاطلاع والثقافة .

يقول يوسف : الخدمة العسكرية هى التى ستجبرنا على التفرق.

يقول مصطفى : يبدو أننا سنشارك فى الحرب .

يقول يوسف : ألسنا نحن من طالبنا بها فى المظاهرات ؟

ليلى : هذا لو قامت بالفعل .

يقول عصام موجها حديثه للفتيات : ستجلسن وحيدات تمصمصن شفاهكن ، جلساتكن لن يكون لها طعم بدوننا .

خالد : أتمنى لو تقوم ونخوضها ، فهى مطلبنا الأول .

عصام : فاكر نفسك ستذهب إلى مظاهرة فى الجبهة ، أو تجلس على شاطىء القناة لتهتف ؟

نادية : مستقبلنا أصبح متوقفاً عليها .

مديحة : نادية معها حق ، لكن الأمر ليس بتلك البساطة .

عادل : أما وإذا لم تقم ..

مصطفى : لا بد أن تقوم ، لكن متى ؟

fb/mashro3pdf

تقول ليلى وهى تنهض عن مكانها : لماذا لا يتم تجنيد الفتيات فى الجيش أو على الأقل يفتح باب التطوع أمامهن .

يرد عصام عليها قائلاً : فكرة .. ولم لا ؟ وأكون معك فى خندق واحد .

يضحك الجميع ، ويمسك خالد بتلابيبه فيصيح : خلاص .. حرمت .

يقول عادل : ما رأيكم أن نركب فالوكة ؟

يتهلل الجميع للفكرة ، وننتجه الى المرسى ..

تسير بنا على صفحة من الأضواء المتداخلة ، ونحن نجلس على حوافها نخلع أحذيتنا وندلى أرجلنا فى الماء .. يسرى هواء رطب تنتفخ به ثيابنا مرفرفة ويتطاير شعرنا ، يبدأ عادل الغناء بصوت جميل ، ونردد معه والنهر ينساب فى نعومة وهدوء .

fb/mashro3pdf

(١١)

تعتادنا الوجوه المحيطة بنا أو ونألفهـــا، نطرق البيوت، يتجمع الجيران وبعض المارة، يعرفون بعضهم البعض عبـــر زمن طويل ، أسماء الأشخاص والبيوت ، ورغم محاولة شرح ما نقوم به بطريقة مبسطة ، إلا أن البعض منهم كان ينتحى بنا جانبا طالباً منا التوسط لعرض شكواه على المسئولين ، ويسألنا فيما يفعل ، ومطالبتنا أحيانا بذلك.. صرف إعانات من الضمان الاجتماعى ، الالتحـــاق بعمل ، بناء البيـــوت التى تتآكل بفعل الرشـــح ، وعندما نحاول إفهام البعض بأننا لا نقوم بذلك يبذلون جهداً أكبر فى إقناعنا، كأن يطلبوا اصطحابنا لنرى بأنفسنا ، يشاركون فى الشكوى من عدم وجود وحدة صحية أو مستوصف .. التلاميذ الصغار الذين يقطعون مسافات طويلة للذهاب الى المدارس فى الأحياء المجاورة .. عدم وجود مواصلات .. بعُد المناطق الداخلية عن الطريق العام .

تلاحقنا فتاة صغيرة يوماً بكامله، وهى تردد بإصرار : خذانى معكما، أتأملها بسنوات عمرها القليلة وعودها النحيل الذى يختفى داخل جلباب طويل فضفاض ، فتؤكد : أستطيع أن أفعل أشياء كثيرة، علمينى مايجب أن أفعله وسأفعل، ولا تفلح محاولات البعض فى نهرها كى تبتعد .

بيوت طينية من اللبن أعيد بناء بعضها بأحجار غير منتظمة وحشوات من الطين ، والبعض الآخر بالطوب الأحمر والمسلح ، حرصوا أن يحيطوا الجدران

fb/mashro3pdf

الخارجية بمصاطب مبنية بالطوب وأعشاش دواجن فوق الاسطح وفى المناور وأفران طينية فوق الأسطح أو أسفل السلم أو فى فرجات بين البيوت ، حوارى ضيقة احتلتها المصاطب ولا توجد مرافق من كهرباء أو مياه ، حنفية مياه عمومية أمام كشك يجلس فيه موظف البلدية ويتزاحم الناس حولها منذ الصباح حتى منتصف النهار، وفى المرات التى نأتى فيها مبكرين نجد طابوراً من حاملات الجرار والصفائح فى انتظار وصول موظف البلدية فى مدخل الحى عند بداية الغيطان حيث توجد ترعة جف ماؤها وامتلأت بالمخلفات .

فى الطرف الآخر من الحى الذى يلى المساحات المزروعة باتجاه المنطقة الصناعية مجموعات حديثة البناء من المساكن الشعبية الحكومية خصص جزء منها لعمال بعض المصانع ، وتضم الى جانب ذلك بعض الحرفيين والعمال استقروا فيها منذ سنوات قليلة ورغم تماثل الأبنية فى صورتها العامة إلا أنه بالنظر إليها يصدم عين المشاهد ذلك الخليط المتنافر من المرئيات سواء فى ألوان الطلاء التى طليت بها واجهات بعض الشقق والنوافذ والشرفات، أو مخلفات المنازل التى تجمعت فى الشرفات أو بعض الحلول التى يلجأ إليها السكان للوفاء ببعض احتياجاتهم وسد القصور فى بعض المرافق والخدمات بما يشيعه من فوضى، بناء أفران فى الشوارع وإقامة عشش للدواجن ملاصقة للبلوكات السكنية والطرقات التى ازدحمت بالأطفال وأناس يجلسون فى الشارع وعلى الأبواب والسلم حيث أبواب الشقق مفتوحة ، وتقع هذه المساكن بالقرب من الشارع الرئيسى الذى يؤدى الى الحى ويمتد من وسط المدينة الى قلب المنطقة الصناعية ويمتلىء على الجانبين بالورش والمصانع الصغيرة ومخازن المنيفاتورة ، ويعمل بها بعض سكان الحى .

يدعونا الحاج صاحب المقهى للجلوس ويلتف حولنا بعض الجالسين ، يصر ألا

fb/mashro3pdf

ندفع ثمن المشروبات ، يحكون لنا عن المنطقة أيام كانت أرضا زراعية حتى سنوات قليلة مضت وكانت المبانى كلها من الطوب النيىء وكيف بدأ البعض بيع الحيازات التى يملكونها كأرض مبان بعد أن زحف إليها العمران، يقول الحاج: كنا نقطع مسافات طويلة راكبين الحمير وسط المزارع حتى نصل إلى أقرب مكان، الناس تترك الأرض الآن ويسعون للالتحاق بالعمل فى المصانع والورش وتعلم صنعة خاصة الشباب وصغار السن، ويشير الى جدران المنازل قائلا: كانت أرضا زراعية جيدة ، لم يعد ما يذكرنا بها سوى النشع فى الجدران .

يستطرد قائلاً : أحاطت المبانى بالقراريط التى أملكها، وكنت أزرعها بنفسى ولم يكن معقولا أن أزرع وسط المبانى ، والعمر لا يساعد على الالتحاق بعمل آخر بعت الأرض وبنيت هذا البيت وفتحت فيه هذا المقهى .

معلومات تتراكم أمامنا نحاول أن نرتبها ، نتوقف عند أقوال السكان حول بناء البيوت ، كلهم يعتبرون البيوت المبنية بالطوب الأحمر والخرسانة التى بناها البعض منهم هى النموذج الذى يسعون الى تحقيقه، معظمها مبنى بطريقة واحدة نمطية يكررون فيها ما بناه الآخرون ، وكانت إجاباتهم حول ما يجب أن يكون عليه الحى تسفر فى النهاية عن تساؤلاتهم عما إذا كان بإمكاننا مساعدتهم فى السعى لدى المسئولين لإدخال المرافق ومدها داخل الحى مثل الصرف الصحى والكهرباء والمياه والمواصلات والمدارس .

الحديث عن المستقبل هو الالتحاق بالعمل فى الورش والمصانع وتشغيل الأبناء الذين لم يلتحقوا بالتعليم أو تسربوا منه.. حلم يتسرب فى مداه إلى أطراف المكان المحيط بهم .

يقول : ألم أقل لك ؟ لا يمكن الاعتماد على تصوراتهم وأفكارهم .

– المسألة أبعد من ذلك بكثير .

fb/mashro3pdf

- الضرورات الأساسية والأولويات ، نصيغ لهم صورة أو مثالاً .

- أن يعرفوا أولاً ويستوعبوا .

- أن يكون هناك نموذج ملموس أمامهم .

- ذلك لا يكفى .. ألم تر كيف أصبحت المساكن الشعبية ؟ ليس الأمر صياغة قوالب يعبأون فيها ، وتجاهل علاقات الجيرة ، والتفاعل بين السكان ، والاحتياجات اليومية والترويح وأماكن لعب الاطفال ، لابد ان يكون ذلك منطلقاً لتصميم المسكن وتخطيط الحى .

نجلس فى المفترق ، تتضح ملامح يزداد الأمر بها التباسا وتداخلا، نعيد قراءة ما كتبناه : «مجتمع جديد يمكن أن يتناوله التخطيط العمرانى كنموذج لمجتمع شعبى متطور يتماشى مع التنمية والارتقاء بالمستوى المعيشى لأن إهمال مثل هذه المجتمعات وتركها للنمو العشوائى ، والحلول العشوائية للمشاكل الناتجة عن قصور الخدمات يمكن أن يعوق التنمية » .

لا يتوقف النقاش بيننا ونحن نحاول أن نلتقط الخيوط وألا تفلت نقطة ما، كيف تتاح حرية الاختيار للمسكن وهم لا يعرفون ، وكيف يتحول مجتمع ريفى الى مجتمع صناعى والنقاط الخلافية بين هذا وذاك ، تحضير مجتمع ريفى حتى لايتريف مجتمع حضرى ويستشرى فى المدينة خاصة المناطق الجديدة وحتى لا يصبح الترييف معوقاً للتنمية فى المجتمع الصناعى ، نحاول أن نخلص الى نقاط جديدة ، «خلق آليات التنمية واستيعاب تطورات المستقبل» .

نعيد رسم الخارطة مرات، ونضيف جديداً مع كل مناقشة تمتلىء الارض الفضاء بالمعالم تنحصر فى مثلث «الزاوية» نحدد الشوارع الرئيسية والساحات والميادين والشوارع الفرعية والطرق، المنتديات ومراكز الخدمة الرئيسية والفرعية،

fb/mashro3pdf

مراكز تنمية الحى والملاهى والمنشآت الثقافية والمدارس والأسواق ودور العلاج والحدائق العامة .

أما تصميمات البيوت نفسها فكانت عبارة عن مجموعات يتضمن كل منها عدة نماذج للمسكن داخل المبنى، طوابق قليلة ومبانى متلاصقة فى خطوط متعرجة تأخذ شكل زوايا منفرجة أمام مساحات من الفضاء الخارجى وفراغات فيما بينها تجعل الوحدة السكنية تحتفظ بخصوصية مع مراعاة علاقات الجيرة تحوى انفراجات زوايا الأبنية حدائق صغيرة تحيط بالمسكن وتنفسح أمام المداخل والمخارج الى الشوارع الرئيسية .

ويعتمد البناء على خامات محلية متوافرة ، يمكن الاستعانة بعمالة من الأهالى تتلقى تدريبا مما يخفض التكلفة ويمكن الاستفادة بها فيما بعد .

– أتعتقد أن ذلك يمكن أن يتحقق يوماً ما ؟

– بنا وحدنا ؟

– بيوت نحلم بها .

– هذا يعنى أن تتغير أشياء كثيرة .

يدب الأرض بقدمه ويمسك بيدى وينظر كل منا للآخر .

– ندرب قدرتنا على الحلم .

– وعلى التحقق .

– نتوقف أمام بائع المياه الغازية بجوار سور النهر ، نتناول زجاجتين ونواصل السير وسط العتمة والأضواء .

– فيم تفكرين ؟

– وأنت ما الذى يدور فى ذهنك .

– قولى أنت أولا .

fb/mashro3pdf

- لا ، ابدأ أنت .

- قولى بسرعة قبل أن تفكرى .

يصر كل منا أن يبدأ الآخر ، يخرج قطعة عملة معدنية من جيبه ويقذف بها فى الهواء، تتعلق بها أعيننا وهى تدور وترتفع الى أعلى ثم تهبط وتستقر على الأرض ننحنى عليها فى وقت واحد .

- أنت الذى ستبدأ .

يمسك قطعة العملة ويضغطها بين كفيه ، يغمض عينيه وأرقب اختلاجات وجهه وهو صامت .

- قل ما يدور بذهنك بسرعة قبل أن تفكر ، وإلا خالفت قواعد اللعبة .

يفتح عينيه وينظر الى طويلاً ؟ أحبك .

- قديمة .

- اتكلم جاداً .

- وكيف رأيت ذلك ؟

- أفكر بمكان لمنزل يجمعنا فى الخارطة .

- هنا .. على النهر .

يشخص إلى تلك الأبنية العالية التى تحيط بالنهر ، والأضواء المسلطة من ثقوبها على صفحه المياه المنسابة الى الشمال وتمضى نظراته معها .

- حيث يمضى النهر طليقا .

- عند التقاء البحر بالنهر .

- نعبر الكوبرى الى الجانب الآخر من النهر ونسير بجوار سور حجرى قصير.

- بيت جميل كما نحلم به ، نستريح فيه بعد تعب .

- آه .. ها قد بدأ حديث عن متاعب الشيخوخة .

fb/mashro3pdf

يسير بخطوات قصيرة . يتعثر قليلا فى مشيته وتنتابه نوبة من السعال، يقول فى كلمات متقطعة : اغلقى النافذة: هواء البحر الرطب يزيد من آلام ركبتى .

تنفلت الغرز من ابرة التريكو، فأهتف به وأنا أحاول أن أجمعها : لا تشتت انتباهى ، أريد أن أنتهى من إكمال الجورب حتى يدفىء قدميك .

يشد المعطف الصوفى حول جسده ويحكم الكوفية حول رقبته ، يتلفت حوله فى كل الاتجاهات : والأولاد ؟ .. أين الاولاد ؟

لم يحن ميعاد عودتهم بعد !

يجلس أمامى قائلاً ؟ أرانى بالأمس تصميمات المشروع الجديد ، قال سيبدأ تنفيذها بعد أسابيع قليلة ويجرى الإعداد لها .

– بيوت جميلة .

– جميلة .. لكن ..

يتوقف ماطاً شفتيه ، يقول : لا أدرى تلك المواد التى بنيت بها، حاول أن يقنعنى بصلابتها .

– هشة فعلا ، لكنها قوية .

– نعم ، ولا أدرى لم تم استبعاد الفراغات الداخلية .

– فراغات واسعة تحيط بها فضلاً عن الواجهات الدائرية تكشف مساحة واسعة .

يهز رأسه : الدنيا تغيرت .

– نعم ، كان سعيدا وهو يحكى لى كيف اشاد بها الناس وهم يبادرون بحجز النماذج التى يريدونها ، معظمهم طالب بحوائط متحركة للتحكم فى المساحات الداخلية للشقق

fb/mashro3pdf

يدور فى المنزل وهو ينادى الصغار ، يخرج قطع الحلوى من جيبه ويهتف: من يأخذ الحلوى من جدو ؟

لا يتلقى إجابة يقف متسائلا : وأين ذهب العفاريت الصغار ؟

- يلعبون على الشاطىء .

اسمع الخشخشة الاليفة التى تبدأ مع استيقاظه ، أعرف من مصدرها أين يتحرك فى المنزل الآن وماذا يفعل ، هو الآن فى المطبخ يعد فنجانا من القهوة الذى يحب أن يعده بنفسه ، ويتناوله فى فترة الضحى، احيانا يعد لى فنجانا معه عندما أود ذلك ، يوشك الآن على الانتهاء ، يأتى بالقهوة ويضع فنجانا بجوارى ، أسمع صوته بعد قليل وهو يدور فى المنزل ، أراه محشورا بين المنضدة والأريكة .

- عم تبحث ؟

- الجريدة ، لاأدرى أين وضعتها .

- ها هى فى جيبك .

يخرجها من جيبه مطوية ويفردها ، يتمدد على الأريكة يتصفحها، أنتهى من إكمال فردة الجورب، أدخل يدى فيها لأتأكد من ضيق النسيج وانتظام الغرز، حتى لا تسرب البرودة، ينهض فجأة قائلاً: نسيت الطعام على النار!

أسرع إلى المطبخ الذى امتلأ بالبخار الساخن، أطفىء النار وأرفع الإناء ، أفتح شباك المطبخ حتى يتسرب البخار متجمعا فى شريط يتسرب من خلال القضبان الحديدية ، أرفع الغطاء عن الإناء فيندفع البخار ويتكاثف على زجاج النظارة امسحه بطرف الايشارب ، أتناول قليلا من الطعام فى ملعقة وأتذوقه ، وأجد أنه نضج اكثر من اللازم واعلم أنهم حين يأتون ونجلس جميعا الى منضدة

fb/mashro3pdf

الطعام سيؤكدون أنه أشهى طعام تذوقوه فى حياتهم، وأنهم لا يتناولون طعاما بمثل هذه الشهية فى بيوتهم .

أجلس فى مقعدى ثانية وأبدأ فى نسج الفردة الثانية من الجورب، أخطىء فى عدد الغرز فأعيد عدها من جديد، تنفلت من الإبرة فأعيدها ثانية وأنسى ، أشعر بإجهاد فى عينى، أخلع النظارة وأمسح عينى بالمنديل ، تعتم الرؤى حولى ولا أتبين شيئا ، تتكشف الأشياء من خلال غلالة مضببة ، أتلفت حولى واسأل :كم الساعة الآن ؟

تنقشع الغمامة قليلا وأرى نظراته معلقة ببندول الساعة الذى توقف عن الحركة.

أقترب من مشربية صغيرة فى الركن وأنظر من ثقوبها ولا أستطيع تحديد الوقت، أزيح الستارة جانبا وأفتح الشرفة، أرى الشمس تغمر المكان والظل يأتى بزاوية صغيرة حادة .

– أخطو داخل الشرفة فتتطاير النوارس التى حطت على أرضها وفوق السياج، تحوم قليلا مرفرفة ثم تعود الى أماكنها ، أرى مياه النهر تلتقى بالبحر فى صخب وتنشر فوقها مساحات من الزبد الأبيض توغل داخل النهر والبحر معا وتتمدد على الشاطىء ، المح الصغار على الجانب الآخر يلهون مع أترابهم ، يقيمون قبابا من الرمال ويزينونها بالقواقع والاصداف فتبدو كقلاع وهم يحفرون تحتها ويتصايحون ضاحكين فى صخب .

أتخفف من ثيابى وأجلس على مقعد بجوار السياج أرقب النوارس وهى تأتى وتحوم قرب سطح المياه، أرمى اليها بفتات الخبز فتنتفخ متشبعة بالمياه وأراها تنقض عليها .

يسحب مقعدا ويضعه أمامى ليجلس عليه ويمدد ساقيه على مقعد آخر، وهو

fb/mashro3pdf

يمسك بالجريدة وقلم ليحل الكلمات المتقاطعة ، وبعدما ينتهى يتصفح الجريدة ثانية ويمر بعينيه على العناوين ثم يلقى بها جانبا .

تملأ النوارس الشرفة وتصطف على السياج ، أسند رأسى الى مسند المقعد فاردة ظهرى ، وأجلس باسترخاء ووهج الشمس يلتمع على صفحة المياه، يخفت صوت الموج وأصوات النوارس وضحكات الصغار شيئا فشيئا وتزداد الشمس توهجا ، تحيط النوارس بالشرفة مرفرفة بأجنحتها ، تهتز الشرفة مائلة ثم أراها ترتفع بخفة وهوادة دون اهتزاز، تصطفق اجنحة النوارس وهى تلتصق بها انظر حولى خلال الوهج وأرى خيالات لبيوت متفرقة بانتظام ، وصفحة البحر ساكنة ، يتوقف الصغار عن اللعب وهم يتطلعون نحونا أمام قلاعهم مظللين أعينهم بأكفهم وملوحين بأيديهم الأخرى ، أراهم بوضوح وألوح لهم لكنهم لا يروننى جيدا، يواصلون لهوهم ، ينهض عن مقعده وينظر الى اسفل وهو ينحنى فوق السياج مساحات منبسطة من الزبد احاول أن أحدد فيها النقطة التى يلتقى عندها النهر بالبحر فى تلك المساحة المنبسطة من الزبد بلا تعارج .. أرى القلاع التى أقامها الصغار وهم يقتربون من البحر يلقون بأنفسهم للموج ، لم أكن أعلم أنهم يقطعون كل تلك المسافة فى عرض البحر ..

يعدل قامته وهو واقف أمام السياج ، يعود الى مقعده ويحشو غليونه بالطباق ويشعله ، يخفت الوهج وينقشع الدخان عن وجهه وهو يرنو ببصره مستغرقا أكاد اسأله هَل رأى ما رأيت ؟

تقترب نظراته شيئا فشيئا ويأتى معها صوته مقتربا : يا !!! ه !

fb/mashro3pdf

(١٢)

أرقب عزة وهى لا تستقر مكانها، تنهض فجأة وتلقى نظرة من النافذة ، مقاطعة حديثا بدأته ، ثم تتوقف أمام المرآة تتأمل وجهها ، تفكك خصلات شعرها المثبت حول «الرولو» ثم تعيد لفها ثانية، تترنم بصوت خافت وتنظر الى الساعة، كانت ترتدى ثوباً منزليا من قماش قطنى خفيف بلا أكمام .

تستدير نحوى وتسأل: تفتكرى هل ستقوم الحرب ؟

أسألها بدورى : لماذا تسألين ؟

– أخشى أن تقوم .

– هذا أمر متوقع فى أية لحظة .

– أعرف، أود أن تقوم .. وأخشى ذلك ..

تسأل ثانية : تفتكرى لو قامت ، هل تستغرق زمنا طويلا ؟

– هذا ما لا يعلمه أحد ، ثم لماذا تسألينى هكذا كما لو كنت خبيرة؟ ماذا يجرى بالضبط ؟

تهز رأسها وتتمتم وهى تعد على أصابعها : سنوات الخدمة العسكرية وفترة الحرب ثم التسريح ، ثم الحصول على عمل والحصول على شقة وإعدادها ، كم سنة ؟ ، تنظر إلى أصابعها وتواصل : أما إذا لم تقم الحرب ..

تعيد الحساب من أولها إلى آخرها وهى تقلب الأمور على أوجهها .

– تفكرين بالاستراتيجية والتكتيك .

fb/mashro3pdf

– تبتسم قائلة : كثير .. اليس كذلك ؟

تنظر الى الساعة وتبدأ فى فك خصلات شعرها .

– سنذهب لزيارة مديحة، ابنتها متعبة ولم نذهب اليها منذ فترة .

– لكننى قابلتها منذ يومين فقط، ولم يبدو عليها شىء .

– وكنت معك ، أنسيت ؟ لكننى أقول إن ابنتها متعبة .

– آه

– تشير الى الساعة .. الساعة تقترب من الخامسة .

– موعد عادل .

تقول ضاحكة : هذا هو التكتيك .

ترتدى ملابس الخروج وتقف طويلا أمام المرآة وتصفف شعرها وتضع لمسات من الماكياج وهى لا تكف عن الثرثرة والتطلع من حين لآخر من النافذة .

تقول إن والدتها بدأت ترقب تصرفاتها وهى غير راضية عنها لأنها باتت تعتقد أنها تلتقى بعادل كما يبدو من تلميحاتها ، وتقول إن المشوار مازال أمامه طويلا حتى يستطيع أن يعد نفسه للزواج بعد انتهاء الخدمة العسكرية وذلك يستغرق سنوات من عمرها، وبدأت تفطن الى مواعيد اجازاته عندما تكثر من الخروج ، وهى تريد أن تزوجها من ابن قريبتها التى يمتلك زوجها مصنعا للحلوى وقد بدأت قريبتها هذه وبتشجيع من أمها تكثر من زيارتها لهم وبدأت تصطحب ابنها معها، وأمها تعتبره لُقطة ، وتظل أمه تعدد فى مناقبه وتتحدث عن مواقفه المجيدة وأخلاقه الحميدة وشهامته وهو يتلفت حوله كالكتكوت المبتل يبحث عن ذلك الشخص الذى تتحدث أمه عنه وهى تستحثه على الحديث فيهز رأسه مؤمنا على كلامها .

تضحك قائلة : قطعة بسبوسة ، فى آخر زيارة لهم كنت مستيقظة لتوى من

fb/mashro3pdf

النوم . سويت شعرى بيدى دون أن أمشطه أو حتى أغسل وجهى فبادرتنى المرأة قائلة :

ما شاء الله ! ما كل هذا الجمال !

وأمن على كلام أمه قائلا : رقيقة جدا الآنسة عزة .

وتقول لها أمها : سيوفر لك حياة رغدة مثل مها ، وهو سيعمل مع والده مثل سعيد زوج مها وإن أهل مها فكروا بعقل .

تقف أمام النافذة ثم تستدير وتخطف الحقيبة مسرعة نحو الباب : هيا بنا .

تقول أمها ونحن نصافحها : متى نطمئن عليكما فى بيتيكما ، كل البنات يتلهفن على الزواج بعد الدراسة إلا أنتما .

تحيط أمها بذراعيها قائلة : غداً سأملأ لك البيت اطفالا ولن تعرفى طعم الراحة .. تدفعها أمها وهى تغالب ابتسامة : محتالة فعلاً .

تقول ونحن نهبط السلم : أفهمتها أننى أفكر اولا فى الالتحاق بالدراسات العليا، ويمكن أفعلها رغم أننى ما صدقت أنهيت الدراسة .

أصل قبل الموعد ، وأجده سبقنى وأجلس إلى نفس المنضدة فى نفس المكان الذى اعتدنا الجلوس فيه مع اصدقائنا .

أجلس وأنظر الى ساعتى ، يقول : خرجت مبكراً وظللت أتجول فى الشوارع واتسكع فى عدة أماكن ، استعيد رؤية الأشياء كما لو تكن قد تغيرت ، أو يخيل إلى هكذا .. لا أعرف ..

شىء ما طرأ على ملامحه ، أحاول أن أتبينه وجهه الذى لوحته السمرة، شاربه الذى اطلقه كثيفا، نظرات عينيه غير المستقرة التى يحاول أن يركزها وهو يضيق حدقتيه ليحد من دورانهما يحاول أن يخترق بها الاشياء .

– أفتقدك كثيرا .

– وأنا أيضا .. ما هى أخبارك ؟

fb/mashro3pdf

– تلقيت خطاب التعيين منذ أيام ، سأعمل فى الوزارة وبدأت إعداد مسوغات التعيين .

– مبروك ، يعنى فى الاجازة القادمة ستكونين موظفة .

يأتى الجرسون وأطلب أيس كريم، يستحسن ذلك ويطلب هو أيضا، يدور بعينيه فى المكان : كأننا نجلس فى صوبة .

يشير إلى ألواح الزجاج التى أحاطت الكازينو ، والفواصل الزجاجية بداخله .

– أجمل ما فى المكان أنه على النيل والهواء مسترسل فيه .

– تغير كثيراً ، حتى الجرسونات .

– ألم تأتوا هنا منذ فترة ؟

– لم نعد نلتقى بانتظام .

– ماهى اخبارهن .

– ليلى حصلت على منحة دراسية بأمريكا، وهى سعيدة بذلك .

– علمت ، أخبرنى خالد بذلك عندما التقينا ، وهو غير سعيد، يقول إن والدها كان يسعى لذلك حتى يباعد بينهما ، لأنه مازال يعتقد أن ارتباطها به نزوة ، وهى تحاول أن تحمسه ليلحق بها بعد انتهاء الخدمة ، لكن إحساسا بالقلق يساوره .

يسألنى : وأنت ماذا تفعلين ؟

– أقوم بجولات فى الأماكن التى كنا نتردد عليها وأماكن أخرى جديدة ، أشياء كثيرة تسترعى انتباهى وأسجل بعض الملاحظات .

يقول على الفور: هناك شئ ما تغير لا أدرى كنهه على وجه التحديد، شعرت بذلك وأنا اتجول فى الشوارع قبل أن آتى الآن، المحلات، الشوارع الناس لا أدرى ربما لأننا فى الجبهة منقطعين عن الحياة هنا .

fb/mashro3pdf

– فعلا ، أنا نفسى أشعر احيانا بذلك ، بالطبع انت تدرك ذلك أكثر لابتعادك فترات طويلة .

يكوم قبضته كما لو يسددها نحو الزجاج .

– أتذكرك كثيرا اثناء جولاتى فى الأماكن ، أقول لو كان موجودا لقال كذا واقترح كذا ، هل تعتقد أن كل مادرسناه وكل ما نفكر به سيجد مجالا فى العمل بالوزارة ؟

– آمل أن تتغير الظروف بعد الحرب، وأن نجد مجالاً وفرصة لتحقيق أفكارنا .

– سيتزايد إيقاع التعمير بعد الحرب ويعاد بناء مدن المواجهة ، أعتقد أن أمورا كثيرة ستتغير .

– بالتأكيد .. لكن ..

اسأله : أتعتقد أن الحرب ستقوم قريبا ؟

– لماذا ؟

– كثيرون يتوقعون ذلك .

– بالطبع هذا امر متوقع فى أية لحظة ، تصورى ونحن فى الجبهة نشعر بذلك لكن فى المرات التى أقوم فيها باجازات وآتى هنا، أشعر كما لو لم يكن الأمر مستبعدا .

يدير وجهه الى صفحة المياه القريبة عبر اللوح الزجاجى ، مشاعر ما تعتمل فى صفحة وجهه .

يعلو صوت احد الرواد فجأة بصورة تشد انتباه كل الجالسين ، يتحدث الى فتاة صغيرة تجلس بجواره ، لفتت نظرى منذ قليل عند دخولها هى وفتاتين اخريين ورجل ثان، لا تتجاوز العشرين، وجهها يحمل ملامح طفولية ، وشعرها الناعم المربوط على شكل ذيل حصان ، ترتدى بنطلون جينز وبلوزة قطنية واسعة

fb/mashro3pdf

وتبـدو أقرب الى تلميـذة تختلف عن الفتـاتين الأخريين اللتين غطى وجـهيـهمـا الماكياج ، إحداهما ترتدى بدلة وجاكيت به سلاسل ذهبية وأزرار لامعة ، والاخرى ترتدى فستانا ضيقا وقصيرا أما الرجل فيبدو فى منتصف العمر، ويميل إلى البدانة .

جاء الجرسون واضاف مائدة اخرى الى مائدتهم وبدأ يعدها للطعام ويوزع الاطباق والسرفيس ، تحدثت الفتاة بصوت خافت فارتفع صوته يتهمها بالكذب وسألها لماذا لم تخبره بذلك وقتها، تحدث اليه الرجل الآخر فازداد صوته ارتفاعا وهو يؤكد انها كاذبة ، وبدت الفتاتان الأخريان غير مباليتين، بينما الرجل يؤكد أنها ليست أول مرة تكذب فيها ، بدت الفتاة كمن تدافع عن نفسها وهو يصر على اتهامها بالكذب ، وأخذت الدموع تنحدر من عينيها .

جاء الجرسون بصينية كبيرة عليها اطباق الطعام وبدأ يصفها أمامهم ، وانصرف الرجل الأخر والفتاتان الى الطعام بينما اخذت تمسح عينيها بمنديل وهو لا يكف عن الصياح بصوت مرتفع ، تحدثت اليه لبعض الوقت فازدادت حدته، وهو يقول إنها تلعب بذيلها ، وتظن أنه لا يدرى شيئا لكنه منتبه تماما ويعرف كل ما يحدث وإنها إذا استمرت هكذا فسوف يجعلها تندم أشد الندم ، ثم يؤكد عليها ألا تنسى كيف كانت ، وهذا آخر ماسيقوله .

كان الجميع مازالوا مشدودى الانتباه ، بينما صاحب الكازينو يجلس فى مكتبه المحاط بالزجاج يرقب الموقف بلا مبالاة ، مشيرا الى الجرسونات كأن شيئا لم يكن .

نتبادل نظرة سريعة وننهض واقفين فى وقت واحد وهو يشير للجرسون .

نسير بجوار سور النهر بخطوات بطيئة ، وذلك التعبير الذى يموج فى وجهه يزداد احتداما تتقلص معه صفحة وجهه ، وكلمات مقتضبة مبتورة .

fb/mashro3pdf

يتوقف ويشعل سيجارة ثم يتكىء بذراعيه على السور وهو مستغرق ، أقف بجواره وأنظر باتجاه نظرته ويمضى بنا الوقت .

ينظر إلى قائلا : مالك هكذا، قولى أى شىء .

- ما رأيك أن نتزوج ؟

يعتدل فى وقفته وهو يحملق فى .

- أعرف ، لكن ما رأيك ؟

fb/mashro3pdf

(١٣)

أنتهى من مراجعة تقرير ورد الى الادارة كلفنى به المدير العام، اكتب بعض الملاحظات وأعدها ثم أقدمها له ، ينتهى من قراءتها ويطلب منى إعادة صياغتها مع حذف الملاحظات التى أوردتها عن الشركة المنفذة ، أخبره أننى كتبت ذلك بعد مراجعة موقف الشركة وماتوافر عنها من معلومات فى ضوء تعاملات سابقة معها، يقول إن هناك تكليفا بذلك من الوزارة ويجب أن ننتهى من التقرير حتى يتم عرضه على وكيل الوزارة ، أقول له : مع كل هذه التحفظات !

يضع الورقة أمامه وهو ينظر الى قائلا : أوكى ، اتركيها الآن .

أجلس الى مكتبى ، وأرى عبد السلام بعد قليل وهو يهرول الى مكتبه ، تسألنى إلهام عما فعلت فأخبرها ، تنظر الى وتقول استدعى عبد السلام بعد خروجك ، سيطلب منه أن يعد هو التقرير .

- غير مهم .

- كيف ؟ أنت أقدم منه بالمكتب ، كيف تعطيه الفرصة .

- هذا رأيى ، ولم يكن من المفروض أن أقول غير ذلك .

- كل مرة يقفز فيها يزداد لؤما ، ماذا أصبح هو المسئول .

أنظر الى الساعة وأجد أن موعد الانصراف قد حان فأغادر المكتب .

- أكدت خالتى وهى تتصل أن أذهب لزيارتها ، ذكرتنى أنها طلبت

fb/mashro3pdf

منى ذلك قبلا ، ووعدتها ولم أذهب ، أتمشى قليلاً فى الشوارع ثم أتجه الى المحطة .

نتهلل حين تخبرنا أمى أننا سنذهب لزيارة خالتى، اجمع لعبى الصغيرة فى الحقيبة، نستحم فى المساء وتعد امى الملابس التى سنرتديها وتقوم بكيها، وتعد أنواعا من الحلوى، نستيقظ فى الصباح الباكر، نرتدى ملابسنا بسرعة، أحب الجلوس بجوار نافذة المترو وهو يقطع بنا مسافة طويلة، نرى معالم انطبعت فى ذاكراتنا ننتظر مرورنا بها حتى تكتمل ، يغالبنا النعاس مع طول المسافة والاهتزاز الرتيب، وتنبهنا أمى مع اقتراب محطة المترو فنغادر ونستقل مترو آخر يطلق عليه «القبة» يصلنا الى المكان الذى تسكن فيه خالتى، وعندما نعبر مساحات من الارض الفضاء فى جانب منه ندرك اننا اقتربنا.

يمتلىء البيت بالضجيج بمجرد وصولنا، تطلب منا أمى ان نلعب بهدوء، تضحك خالتى قائلة: اتركيهم بحريتهم ، هنا ليس مثل عندكم ، الاولاد هم الذين يعملون حسا للمكان.

احب بيت خالتى الذى يتسع لحركتنا ونمارس فيه ألعابا شتى، اشعر بذلك ونحن نطوف فى حجراته الواسعة وأجزائه التى يؤدى كل منها الى الآخر، وحجرة المعيشة ذات السقف الجمالون والشرفة التى ترتفع عن الارض ببضع درجات الى شريط ضيق من الخضرة محاط بسياج قصير وتتسع المساحة من الخلف لحديقة صغيرة يحلو لزوج خالتى ان يعمل فيها بعد عودته من العمل، يحدثنا عن النباتات التى يزرعها، شجرة المانجو وشجرة الجوافة والتوتة الكبيرة التى كنا نهز افرعها عندما نأتى فى شم النسيم، فيتساقط توتها المعسل او نصعد الدرج الى السطح لنهز افرعها القريبة، وزوج خالتى يربط حبالا فى أفرعها القوية ليصنع لنا أرجوحة.

fb/mashro3pdf

أخلع فستانى وارتدى ثوب نجوى، ويرتدى أخى ملابس عماد، وترتدى أمى ثوب خالتى، وتتمدد على الاريكة فى حجرة المعيشة قائلة: الهواء عندكم يرد الروح.

تأتى نينة الحاجة جدة نجوى وعماد ، ترحب بأمى وبنا، تطلب منا أن نلعب بهدوء ، وألا نكسر الزجاج بالكرة أو نقترب من حجرتها، تأتى جارات خالتى ليرحبن بأمى.

وفى العصر بعد قيلولة الظهيرة يقوم السكان برش الشارع بخراطيم المياه ويخرجون الكراسى امام المنازل، بينما نتسابق نحن فى ركوب الدراجات ونطوف بها الضاحية، نصفق لعماد وهو يقود الدراجة ويغير اتجاهاتها رافعا ذراعيه ، وفى نهاية الزيارة كنت أتشبث بنجوى لتأتى معنا، واحيانا كانت امى تتركنى معها، ونمضى عطلة الصيف بين منزلنا ومنزل خالتى.

ضاحية منعزلة وسط مساحات من الرمال واراض فضاء منبسطة بامتداد البصر وفى جانب منها يبدو المطار، كانت الضاحية مخصصة لاسكان الاجانب الذين أسسوا احدى الشركات فيها، وبعد رحيلهم حل محلهم فى السكن العاملون بالشركة ومنهم زوج خالتى . يعرف السكان بعضهم البعض ، البيوت وأسماء الكبار والصغار، يتبادلون الزيارات ، يتجمع الرجال فى مقهى مقابل للجامع يلعبون النرد والشطرنج والكوتشينة ويدخنون النرجيلة بعد العشاء ، نقف على مشارف الحى ونرى بعض البدو يسيرون خلف قطعان من الاغنام، نقلد اصواتها واصوات الكلاب والحمير، ونرقب الطائرات وهى تحلق عن قرب وتهبط فى المطار. نرى معسكرات الجنود التى تمتد حتى سور المطار ، ويدفعنا الفضول الى رؤية تلك الحجرات التى

fb/mashro3pdf

تحويها عربات كبيرة ، بيوت متنقلة ، تحدثنا مع أحد الجنود وجعلنا نراه من الداخل تمنيت يوما أن أمتلك بيتا متنقلا منه أطوف به مدنا وبلادا ، وأتوقف به فى أى مكان أحب .

نستمع الى النساء وهن يحكين عن أيام الحرب عندما طلب منهم الجنود إخلاء المنازل وترك الحى ثم بدأ القصف ، تجمع الرجال فى الجامع والنساء فى الكنيسة وهم يهرولون تاركين بيوتهم وأمتعتهم ، تحكى إحدى الجارات كيف نسيت طفلها حديث الولادة وسط الاثاث المكوم وهى تبحث عن أبنائها الاخرين، ولم تتذكره إلا عندما اطمأنت على اولادها وأحضرتهم الى الكنيسة فسألتها إحدى الجارات عن طفلها الرضيع ، فاسرعت جريا أثناء الغارة لتجده نائما فى هدوء.

تعقب نينة الحاجة قائلة: بركة مارى جرجس، وهى تؤكد انه ولى من أولياء الله، وتذكر ذلك دائما.

أتذكر أنا ونجوى ونحن نستعد لحضور مولد مارى جرجس فى الكنيسة الصغيرة التى تحمل اسمه فى الحى ، والتى يؤمها كل سكان الضاحية وينتظرون مولده ، دخلنا الكنيسة ورأينا فى احدى الحجرات امرأة ممسوسة تتحدث بلسان الجنى الذى تلبسها بلغة غير مفهومة والكاهن يرد عليه بصوت جهورى: مارى جرجس بطل.. بطل، وعندما عدنا الى البيت فى المساء رحنا نروى ماشاهدنا ساخرين ونحن نردد: مارى جرجس بطل.. بطل، نهرتنا نينة وقالت إنه ولى من أولياء الله واننا سننسخط اذا سخرنا منه هكذا، نمنا يومها فى حجرتها أنا ونجوى ونحن خائفتان أن تغفو عيوننا وننسخط وكل منا تمسك بالاخرى، نتخيل عندما يطلع النهار ونحن مساخيط حتى غلبنا النعاس، وتنبهنا فى منتصف الليل الى ملابسنا المبتلة

fb/mashro3pdf

والفراش مبتل تحتنا، أخذنا نفكر كيف نتدبر الامر ونحن نتحدث همسا حتى انبعث الأذان من ميكروفون الجامع واستيقظت الجدة واستيقظ البيت كله على صوتها وهى تتأفف من الرائحة.. سنوات طويلة ظلوا يذكروننا بذلك وهم يرددون: مارى جرجس بطل.

أجلس بجوار خالتى فى تلك الحجرة ذات النافذة الوحيدة المرتفعة التى تطل على الشارع.

- بعنا المساحة الباقية من البيت على آخر قطعة مصاغ عندى، وبنينا هذا البيت كى يكون لكل منهما شقة، ولم يبق لى سوى المعاش وليت ما فعلناه كان مجديا، خطيبة عماد لم تعجبها الشقة، أظهرت هى وأمها عيوب الدنيا فيها حتى لا تسكن معنا فى نفس البيت.

ترشف القهوة، وترج بقاياها فى الفنجان، ثم تقلبه على الطبق الصغير.

- والله لا أدرى ماذا يعجبه فيها، أمها تسيطر عليها، وهى تردد كل ما تقوله لها، حتى ولو كان ضد مصلحتها الوقت يمر ولا يستطيع الاستقرار حتى الان.

تبتسم وهى تربت على كتفى : ليتك كنت من نصيبه، على الأقل ربيتما معا وتعرفان بعضكما جيدا.

أقول لها: كل شىء قسمة ونصيب.

أسألها عن نجوى، تقول: خرجت هى وزوجها والاولاد، لو كانت تعرف إنك ستأتين لانتظرتك.

اتأمل ملامحها التى ازدادت شحوبا وجسدها النحيل، وهى تجلس غير مستقرة، أتذكر ضحكاتها العالية المتواصلة، والتفافنا حولها عندما تأتى لزيارتنا وحكاياتها التى لا تنتهى عن الجيران والاقارب والمعارف وهى تقلد الاصوات وتتخذ سيمات مختلفة، وهى تقلدهم وضحكاتنا

fb/mashro3pdf

تتعالى معها، وشعرها الناعم القصير وهو يتطاير مع حركة رأسها السريعة.

تتناول الفنجان وتنظر فيه ثم تهتف وهى تقربه منى: أنظرى.. ألم أقل لك؟ أمها واقفة وراءها ، وهى لا تنوى خيرا لابنى.

يأتى عماد من الخارج، يرحب بى، يسأل عن أبى واخوتى ، تقدم خالتى له الطعام فيتناوله وهو بملابسه.

تقول خالتى: كل يوم يخرج ويأتى متأخرا، ولا أدرى أين يذهب بدلاً من أن يفكر فى حاله وماهو فاعل.

يضحك قائلا: أتعرفين لى طريق شقة؟

تشيح خالتى بوجهها، أقول له: أنا نفسى بلا شقة.

- مهندسة معمارية مثلك وتعمل فى الوزارة ، ولا تجد شقة!

تتدخل قائلة: بالذمة يترك بيته ملكه ويسكن عند أغراب ؟!

أتناول حقيبتى ، أتهيأ للانصراف و تقول خالتى انتظرى حتى تأتى نجوى، فهى تود أن تراك.

أقول إنها ربما تتأخر أشير الى الساعة، تقول: انتظرى وسيقوم عماد بتوصيلك أمد يدى مصافحة، فيقول عماد: دقائق وسأغير ملابسى.

الحى تغيرت معالمه تماما، إلا من بضعة منازل قديمة ظلت كما هى، معظمها تم هدمه وإعادة بنائه على شاكلة بيت خالتى أو بأشكال مشابهة مع بعض الاختلافات ، وعلى مساحات وارتفاعات متفاوتة، وانحصر الحى بين عمارات عالية التهمت الاراضى الواسعة وحجبت الفضاء ضاقت الشوارع مع ارتفاع البيوت وازدحمت بالمحلات والضجيج الذى يثيره المارة .

fb/mashro3pdf

يحكى عماد عن خطيبته التى أوفى بكل الشروط التى اتفق عليها مع أهلها، لكنهم يماطلون فى إتمام الزواج لانهم لايريدون أن تسكن فى البيت اقترحوا عليه أن يبيع الشقة ويدبر بثمنها شقة أخرى بالقرب من بيتهم لأنها كما تقول أمها مازالت صغيرة وهى متلهفة على ابنتها وتود أن تسكن بالقرب منها.

أسأله: وماذا أنت فاعل؟

- لاشىء، تركت الأمر على ما هو عليه حتى يملوا هم ويبحثوا عن حل.

- ماهى مشاعرك تجاهها؟

يميل برأسه قائلا: عادية.

- ألا تحبها؟

يقول مبتسما : تسألينني كما لو كنا سنمثل فيلما، أنا أراها طيبة ومعقولة، لكنها صغيرة وليست لديها خبرات، يعنى أستطيع تشكيلها لكن عيبها أنها تستمع الى كلام امها كأمر مسلم به وهذا يستلزم وقتا بعد الزواج حتى تعتمد على نفسها ويصبح لها بيت مستقل ، ثم إننى انفقت الكثير حتى الآن، وليست لدى الإمكانيات التى أقدمها لأخرى.. يعنى، المهم دعك من هذا، ماهى اخبارك؟

يقول قبل أن أجيب : خسارة فعلا.

أنظر إليه فيقول: أعتقد كان يجب أن تكونى فى وضع أفضل مما أنت فيه بكثير، كنت متفوقة وطموحة وأمامك مستقبل واسع، لكن أين ذلك مما أنت فيه الآن؟

- فيم بالضبط؟

- الزواج.. العمل مثلا!

fb/mashro3pdf

- تقصد حياتى كلها.

- لا تأخذى الأمر بحساسية هكذا، أنا أتكلم بدافع التقدير، عملت كثيرا وضحيت ، وعندما آن الاوان لتجنى ثمار ذلك، استأثر هو بكل شىء، وتركت أنت كل شىء ببساطة.

- لم يكن ما تركته هو ما أردته بالضبط ، كانت هناك اشياء كثيرة نسعى لتحقيقها.

يتساءل: ألم يعن ذلك العيش بشكل افضل؟

- بالطبع .

- ماذا إذن؟

- ليس على هذا النحو!

- عيبك أنك غير واقعية.

تمر لحظة واترقب وصول المترو حيث يلوح عن بعد.

يسألنى وأنا أستعد للركوب ، لكن .. لماذا انفصلتما؟

fb/mashro3pdf

(١٤)

علامات ملونة تزدحم بها الخارطة وفضاءات تهم بها، تتراءى فيها تهويمات ملامح لتلك العلامات، تزداد العلامات كثافة فى مركز الخارطة والمناطق المحيطة به، وتقل تدريجيا باتجاه الاطراف إلا من علامات قليلة.. اتراجع خطوات وانا انظر اليها، فتبدو كمجرة كونية التقطتها جاذبية تلك البقعة فاستقرت على أديمها كما هى.

أحدد المركز بدائرة ملونة فيبدو كنواة للمجرة، ثم أحدد بلون آخر الاحياء المحيطة به فى خط متصل يسفر عن دائرة تنحصر فيها تلك العلامات موزعة بين أحياء شتى تتداخل تخومها فى ومضات خاطفة تتجلى فيها الوحدة والصراع.

دائرة كثيفة مثقلة بالعلامات تقع مابين الضغط المتنامى للأطراف ودفقات القلب عبر سنوات تمازجت فيها الملامح وتواصلت جذورها فى الأرض، تند بتلك الصناديق العملاقة التى تتخللها وتخفى معالمها وتتكاثر فى أطراف منها، أورام على ملامحها.

ممالك يرتفع نجم كل منها ويسطع، وينتشر اشعاعه على الخارطة ، ثم ينحسر الضوء فيهبط ليحتل مساحة منها فى أحياء متجاورة ومتداخلة.. ألون الممالك القديمة بلون آخر، فينفصل عن الخارطة هلال، هلال يتمدد فى المشرق، يرتقى قوسه القلعة، ويتسلل طرفاه إلى الذيل، يبدأ من الفسطاط

fb/mashro3pdf

والعسكر والقطائع ويتمدد فى القاهرة المعزية والقلعة والرميلة والسيدة والخليفة والغورية والجمالية والموسكى والحسينية ثم الأزبكية وبولاق هلال قوسه مرصع بالنجوم التى استقرت عليه تباعا.

أصل أجزاء الخارطة الأخرى فيبقى محاقا ، أنشئت أحياؤه فى فترات تالية على إنشاء المركز، وبدا تأثيره فيها جليا.

ندور فى أفلاك المجرة، ونحن ننتقل من فلك الى آخر بفعل الجذب والطرد، تختلط الرؤى بالمرئيات فى شريط واحد متصل بألوان قزحية، نقع تحت تأثير الجاذبية ونسير مدفوعين بالقصور الذاتى وعيناى مغمضتان ، يتسلل الضوء من خلال أجفانى المسبلة ، وأستطيع أن أرى الشريط القزحى وهو ينفرط نتفاً متطايرة ، فراشات ملونة تزدحم حول أعمدة الاضاءة ، أرفع يدى لأمسك حزمة الضوء الساقطة على وجهى، ويوسف يمسك بيدى الأخرى يستحثنى على السير، وأفتح عينى.

شوارع واسعة محاطة ببساتين تحدها أسوار ، طرق ممهدة دكت بالدقشوم تتهادى فيها المركبات ، أعمدة الإضاءة الغازية تتخلل الاشجار على جانبى الطريق، نساء سافرات الوجوه عاريات الرءوس يلمع شعرهن الذهبى. وأخريات يضعن طرحا بسيطة على رءوسهن وثياب لا تصل إلى أقدامهن، يختلسن نظرات حولهن وهن يتسللن من البوابات الحديدية ليركبن الفيتون، رجال فى حلات وسترات ذات ياقات عريضة وسراويل قصيرة فضفاضة.

نسير فى استطراقات المشاة على جانبى الطريق، نسترق النظر الى البساتين ذات الاشجار الوارفة، تحوى بداخلها قصورا فخمة ذات أبهاء وأعمدة وشرفات واسعة تشرف على الحدائق، محاطة بالخدم وديدبانات على

fb/mashro3pdf

الابواب والأسوار ، تتخلل البساتين أبنية تتألف من بضعة طوابق أسماء فنادق بنسيونات منتديات بنوك قنصليات، سفارات.

تحمل إلينا النسمات أريج الزهور ورائحة المانجو والتفاح والليمون، وأنغام موسيقى تتردد فى أسماعنا فى إيقاعات متباينة، نقف امام الاسوار نمسك بالقضبان الحديدية يسند كل منا رأسه على قبضتيه، ننتبه على وقع أقدام الديدبانات ، ونراهم مقبلين نحونا ، نسرع مبتعدين قبل أن يستوقفنا أحدهم، ننطلق من شارع إلى آخر حتى نصل الى نهايتها.

– أنظرى.

يشير يوسف ونحن نقترب من الميدان الواسع إلى ذلك المبنى الأفقى بامتداده المترامى كقلعة من طراز فريد، محاطا باسوار حديدية عالية وأبراج الحرس موزعة فيها بانتظام ، وتماثيل الجند الواقفين فيها مصوبين بنادقهم للأمام، وصفوف منهم على جانبى البوابة وفى منتصف الميدان، لا يسترعى وجودنا انتباه أحد.

نقترب من الأسوار، الإضاءة الساطعة تتخلل الاشجار فى خضرة متدرجة بين الحواشى والمتون وتلقى بظلال مبرقشة على الحوائط الناصعة، نوافذ ذات شرفات حديدية كسلات الزهور موزعة بانتظام على الواجهة تتوسطها مقصورة تعلو البوابة الرئيسية.

تسترعى انتباهنا صفوف الحرس فى منتصف الميدان وهم يتحركون ببطء فى توقيت واحد وخطوات محسوبة ليتبادلوا أماكنهم، يمكثون فترة ثم يكررون نفس الحركة ، نستغرق فى متابعتهم ولا نشعر بالوقت حتى ننتبه الى الحرس فوق الأبراج وفوهات بنادقهم تتجه نحونا، فنعدو باقصى ما نستطيع ونسمع صوت طلقات الرصاص فى إثرنا، ونلمح اثناء عدونا آثار اقدام

fb/mashro3pdf

الجنود الذين طاردهم الحرس مازالت محفورة فى الأرض، نبحث عن مكان نلجأ اليه دون جدوى، ونخشى أن يلحقوا بنا وطلقات الرصاص تصك أسماعنا.

نخلف الشوارع ونتوقف عند الساحة أمام التياترو لنلتقط أنفاسنا ، تتوقف المركبات وتهبط منها نساء فى ثياب هفهافة تفوح رائحة عطورهن يتأبطن أذرع رجال متأنقين يشقون طريقهم للداخل، بينما اصطف أفراد جوقة موسيقية على الجانبين، ينتهر الحرس المارة الذين يقتربون من حرم التياترو ويدفعونهم بعيدا.

نسير باتجاه الحديقة ، زحام على بوابات الحديقة والناس يحاولون الدخول بينما الحرس يحتجزونهم ويفسحون الطريق لآخرين يتجهون للداخل مباشرة، أصوات وضجيج ، نشب على أطراف أصابعنا وتشرئب أعناقنا لنستطيع الرؤية ، الجنود يعزفون الموسيقى والرواد يتجمعون حولهم، ومجاميع أخرى منهم يمرحون ويلهون، ينتهى العزف . ويبدأ مارش ثم يبدأون كلهم الترديد فى صوت واحد، رجال ونساء وأطفال من مختلف الأعمار، أطفال يحملون باقات الزهور، ومصابيح وبيارق ولافتات تعلوها لافتة كبيرة كتب عليها بخط عريض «حرية.. إخاء... مساواة» تنطلق الألعاب النارية، تصدح الموسيقى ويبدأ الرقص، نحاول مع المتزاحمين أن ندفع الحرس لندخل فيزيحوننا بعيدا، يزداد الضغط ويزداد الدفع، ويزيحوننا بقوة ندور معها ، يزداد الدفع فى ضربات متتالية ونحن ندور بشكل لا نستطيع معه ان نلتقط انفاسنا ، تشتد الضربات على أجسادنا قوة، ننتبه معها الى كعوب البنادق وهى تقذف بنا خارج الخارطة.

نحاول ان نتعرف على الأماكن، ونسترشد ببعض العلامات، نسير على

fb/mashro3pdf

حدود الخارطة، تتشقق الأرض تحت أقدامنا أخاديد، تحدها أبنية ضخمة، تولى ظهورها للأحياء القديمة.

الشوارع الدائرية والحارات الضيقة، والبيوت القديمة المتداخلة، تبدو ساكنة والمارة يمضون فى هدوء وصمت يجيش بالصخب ، أحاول أن أستشف منابع نهر الحياة .. مواكب الاعراس والموالد وحفلات الزار والسبوع والطهور والخاتمة والحضرة وليلة الرؤية والليالى الملاح، جلستنا تحت تعريشة الياسمين على الخليج نستمع الى حكايات الرجل العجوز.

– فتحت الأميرة الحجرة المسحورة بالقصر التى حذرها منها أبوها الملك قبل رحيله.

– وجدت فيها الخرائط.

– وجدت حجرة خالية إلا من نافذة صغيرة تطل على بحر كبير.

– ينشق البحر وتظهر منه بلاد مسحورة.

– بلاد بعيدة تفصلها عنها فراسخ.

– لكنها تراها أمامها.

– بلاد المردة والسحرة.

– بل أناس حقيقيون قال البعض إنه رأهم عن قرب وحادثهم.

كان قد ترك مجلسه على الخليج وعاد لبيته منذ زمن أن تناثرت حكاياته على شاطىء الخليج وسبحت فى مياهه، وتسربلت بها الدروب ، نسير فى الطرقات والازقة العتيقة حيث البيوت القديمة، والمتاجر ذات الواجهات الضيقة الممتدة فى عمق الابنية، صفت فى جانب منها أرانك ومقاعد، أقمشة اثاثات مجوهرات أدوات منزلية، عطارة، وغير ذلك من السلع، دروب للصناعات والحرف والمهن، العطارين، الفحامين الطحانين، النحاسين ، الحدادين،

fb/mashro3pdf

الصباغين، الزياتة والنساجين وورش الصباغة ومخازن الحبوب والغلال ، جموع من الناس ترتاد الاسواق والمتاجر والوكالات قادمين من أنحاء المدينة، والقرى والعزب والنجوع البعيدة يبيعون ويشترون، يتوقفون أمام الأضرحة يبثون الهموم ويتلون الادعية، وموالد مزدحمة بالناس، يلهون ويتناقلون الحكايات.

قال الراوى ياسادة ياكرام:

قال الملك لابنته الاميرة: هاهى مفاتيح القصر المائة، افتحى كل الحجرات ماعدا الحجرة المائة، حذارى أن تفتحيها، وكانت الأميرة تفتح الحجرات واحدة واحدة، تجد فى كل منها ما تشاء من أطايب الطعام والملبس والمجوهرات وضروب الفن والتسلية حتى أعادت فتحها مرارا وملتها، فقالت لم لا أفتح الحجرة المائة، وكانت قد نسيت أن تسأل أباها الملك لماذا لا تفتحها ، أو ربما لم تجرؤ وقتها على السؤال

– ما رأيك ان نبحث عنه بانفسنا؟

– الملك؟

– لا، الرجل العجوز.

نتتبع اثر الحكايات، نسلك طرقا عديدة حتى سور القصر القديم المؤدى إلى الساحة، حيث يقع الضريح ، والراوى يعتلى مقعدا ممسكا بربابته وسط الخلق يحكى عن صاحب الكرامات ، وكيف أنقذ الأميرة من الأسر فجمعت جيوشها لتحارب أعداء البلاد، ينشد فتتصاعد الأهازيج مرفرفة فى فضاء الساحة، تصطلى الوجوه نشوة، وتتمايل الاجساد فى إيقاع واحد، نشعر بأجسادنا خفيفة لا تكاد تستقر على الارض، يومض هلال القبة، تتجلى فيه ملامحه والهلال يحتضن وجهه، نركز أعيننا عليه، والضوء

fb/mashro3pdf

يرسل ومضات تتخفى عن أعيننا ، وعيناه تتحول بشكل ما ، نمعن النظر نحوه حتى نعرف الاتجاه ونسرع جريا مرسلين غير الإنشاد وغمزات الضوء تخترق الظلمة خلف المقام، نحاول ألا تختفى عن أعيننا ، ونكاد نصطدم بالبوابة.

بيت قديم، وبوابة خشبة ذات مصراعين عليها مطرقة حديدية على شكل يد ممسكة بكرة، وشراعة تعلو البوابة على شكل نصف دائرة يمتد من مركزها شعاع، تصلب الشعاع وتخثر إلى حديد، مع الوقت تسلل إليه الصدأ ندفع المصراع، فيحدث أزيزا نهبط بضع درجات ونقف فى باحة المنزل التى خيمت عليها العتمة، نفاجأ بذلك الحائط الذى يتصدر منتصف المنزل ويحجب نصفه الأخر باتجاه الواجهة الواقعة على الجانب الاخر.

نصعد سلما فى جانب من المدخل، ونرى ذلك الحائط وقد شق المنزل طوليا وامتد الى منازل أخرى مجاورة ويعلوها مرتفعا ، وكانت هناك حجرتان جانبيتان متقابلتان ينبعث صوت من إحداهما.

- تعالوا.

- هو.. صوته!

يجلس على أريكة فى الحجرة المعتمة دون أن يحرك ساكنا وصوته يأتى من أعماق بعيدة.

- أعرف أنكم ستأتون .

- كيف عرفت؟

- كى تسألوا.

يعلو صوت الأذان من منذنة قريبة، يشق السكون وينساب مجلجلا فى الفضاء تجاوبه أصوات من مآذن اخرى، تتردد الأصوات

fb/mashro3pdf

متـداخله، تتحـول عيناه نحو القبلة، ويـؤدى صلاته وهو جالس فى مكانه.

نخرج إلى البهو المكشوف، نرقب ذلك الحائط الذى يمتد طوليا وقد شق المنازل بخط منحرف ليقتطع أجزاء متفاوتة منها وارتفع شاهقا ، تعلو جوانبه أبراج ، نحاول أن نتخيل الجانب الآخر الذى يشرف على الميدان والبيوت القديمة التى كانت تطل على البركة، نعود إلى الحجرة ونجلس على الارض على جانبيه، ينهى صلاته والتسابيح، ويمسح وجهه بكفيه.

– لماذا لم يشأ الملك أن يخبر ابنته الأميرة بأمر الحجرة المسحورة؟

– ولماذا لم تسأله ؟ هل خافت؟

– أم خاف هو أن يخبرها؟

– وماذا عن تلك البلاد البعيدة التى انشق عنها البحر.

ينظر الى كل منا على الجانبين : ماذا يجدى السؤال إذا كانت النافذة قد فتحت فعلا.

نهبط السلم وننظر إلى أكوام الأتربة والغبار غطى المكان، أوراق وكتب متناثرة، نزيل عنها الغبار ، نجد كمية كبيرة منها ذات أوراق مصفرة وحواف متآكلة، خرائط قديمة وأوراق وكتب سير وفتوحات وأسفار وغزوات وحروب وعجائب وطرائف وحكايات ومعارف وعلوم، أوراق متناثرة من حكايات الأميرة وكيف وقعت فى المحظور، ننفض الغبار ونصفها منظمة، نعبئها فى خزائن وجرار، ندفنها ونضع فوقها علامة على الخارطة نسترشد بها عندما نعود.

تتكاثر المعالم فى الخارطة وتتلاشى حدودها إلى مدى لا نستطيع تحديده، تتداخل فيها حدود لخرائط اخرى، اختفت القصور القديمة وحلت محلها تلك

fb/mashro3pdf

الابنية الضخمة التى ظهرت تباعا واتسعت رقعتها متجاوزة حدود الخارطة وفى بعض أماكن أخرى متباعدة ظهرت أبنية مشابهة على مساحات متفاوتة.

نعود إلى التواريخ تحدد علامات نهتدى بها، نتتبع أثر الابنية القديمة ، البنوك والبيوت المالية والقنصليات والسفارات والمنتديات ، بعضها اختفى وظهر فى أماكن أخرى متباعدة نتتبع أماكن تواجد الحرس واندلاع الحرائق والاشتباكات والمظاهرات وأخبار المواكب والاحتفالات ، المحال التجارية ودور السينما والمسارح والملاهى ومعارض الفنون والمدارس والكنائس، أحداث جسام غيرت المعالم وأعيد معها رسم الخرائط، الإحلال الذى تم فى الأبنية رغم بقائها كما هى ، بأصدائها التى تتردد عبر حقب وسنوات تطل بها على الشوارع.

مجموعات من الابنية حلت محل القصور القديمة، تختلف فى الطرز وتتشابه فى الضخامة والارتفاع، بعضها يبدو فى خطوط مستقيمة وأفاريز بارزة أعلى المبنى بلون آخر يختلف فى الدرجة ويتوافق مع لون المبنى، واجهات مسطحة خالية من الزخارف، ونوافذ تصل للارض يحدها سياج يبرز قليلا عن الواجهة، ومدخل ذو درج عريض يمتد خارج المبنى ومحاط من الداخل بالاعمدة على الجانبين.. وفوانيس إضاءة على جانبى المدخل، تبدو الأبنية فى اتساق صارم ومهابة فى استقامة خطوطها.

وأبنية مثقلة بالزخارف على الواجهات ، فى المدخل واعلى النوافذ فى تشكيلات من خطوط هندسية ونباتية، وشرفات تستند الى دعامات بنفس الوحدات التى تأخذ شكل مقرنصات أو تماثيل مائلة لآلهة إغريقية ورومانية ، واجهات متماوجة يتقدم الجزء البارز منها صف من النوافذ الواسعة، وعلى

fb/mashro3pdf

جانبي كل نافذة منها نافذتان ضيقتان بنفس الارتفاع، شرفات ذات أسيجة حديدية وحجرية.

تسترعي الانتباه أيضا أبنية على درجة من الضخامة تمتد إلى شوارع جانبية ذات واجهات متماثلة على الجانبين ومدخل يبدو كممر به عدة أبواب يؤدي كل منها إلى جانب من المبنى تحتل الواجهة شرفات واسعة ممتدة في عمق المبنى، تستند حافتها إلى أعمدة تتصل من أعلى على شكل عقود مدببة ومستديرة ومقرنصة، وهي من الحجر المفرغ في وحدات زخرفية، عندما تتخللها أشعة الشمس تبدو كنقوش الدانتيلا.. طرز معمارية مختلفة تحتويها الشوارع، مزيج من فنون عمارة عصر النهضة والركوكو والقوطي.

ممرات بين الأبنية ازدانت بأحواض الزهور وأعمدة الإضاءة التي على شكل فوانيس، تطل عليها مطاعم أو مقاه صغيرة وأنيقة، والشركات التجارية الكبرى التي تتفنن في عرض سلعها في الفترينات، وتلك المحلات القديمة التي تخصص كل منها في نوع واحد من السلع، أقمشة، أنتيكات أحذية، فساتين سواريه ، قمصان وكرافتات، طيور وحيوانات زينة، لوحات فنية أو صنف واحد من الطعام.

لا أحد يذكر القصور القديمة المحاطة بالبساتين والتي احتل مكان كل منها عدة أبنية تحمل اسم القصر القديم، ولا أحد يعرف أصحاب تلك الالقاب ، كما يجهل الكثيرون أعمال الإحلال التي تمت بالشارع والابنية عدة مرات عبر حقب متتالية، تحولت معه مقر قيادات قوات الاحتلال إلى فندق، ومقر صندوق الدين إلى ملهى، وأتيليه مصممة الازياء الملكية إلى مخزن اقمشة، والأوبرا التي تحولت الى جراج، وآخر القصور الذي تم هدمه وتحول مكانه إلى

fb/mashro3pdf

مخزن، والشقق التى سكنتها شخصيات مرموقة من كبار المسئولين والفنانين والشخصيات المهمة بعد رحيل الاجانب، تحولت الى ورش ومخازن ومكاتب ومقار شركات والطوابع المميزة للشوارع تلاشت وغلب عليها جميعا الطابع التجارى شارع المال والبنوك ، شارع السفارات والقنصليات ، شارع الملاهى ودور السينما والمسارح ، وشارع الدواوين والوزارات.

أطرق الشوارع وسط زحام وضجيج ومحلات متراصة يعلوها خليط من الاسماء والمسميات، تعرض فتريناتها سلعا مختلفة، مستحضرات تجميل وإكسسوارات وملابس وأدوات منزلية وأجهزة كهربائية، ممرات تفصل الشارع عن الابنية والعمائر باعة جائلون على الأرصفة وخليط متنافر من الأزياء والمعروضات فى كل مكان ، تتوالى اللافتات أمام عينى .. مرسيدس بنز. البنك المصرى الامريكى المقاولون العرب . شوارسكوف. سوبر ماركت السلام. الشمعدان مايكل جاكسون.. ناشيونال. تقاسيم أراضى وسمسرة عقارات.. البنك العربى الخليجى.. تشيس الاهلى. الهدى ماركت توكيلات تجارية.. تصدير واستيراد. تأكد من العلامة الاصلية.. آريل.. هوو.. هووه

ينتابنى دوار، أتوجه إلى كافيتريا قديمة داخل أحد الممرات بين العمارات ، بوتيكات منخفضة عن مستوى الطريق وأشخاص على الأبواب يتفرسون فى السائرين وبائعات طليت وجوههن بالمساحيق، عربات طعام، ومقاه شعبية وباعة جائلون وحرفيون ، أخرج مرة ثانية بصعوبة وسط الزحام.

أتذكر تلك العمارة التى كانت تطل على الميدان بالقباب التى تعتلى حوافها، وبيت الرجل العجوز الواقع خلفها والصناديق والجرار التى دفناها وسط الأتربة منذ زمن، لا أستطيع تحديد مكان البيت خلف ذلك المبنى الضخم الذى ازداد حجما وتوغلا داخل الحى القديم والشوارع الضيقة، والبيوت التى تغير معالم الكثير منها حوله، ألف حول ذلك المبنى الضخم وأسير فى ممر يفصله عن أبنية

fb/mashro3pdf

مجاورة مزدحمة بالباعة الذين يفترشون الأرض ويمدون طاولات يعرضون عليها صنوفا من السلع ،ونداءاتهم الملحة وهم يجذبون المارة الذين يمرون أمامهم.

أقف أمام الواجهة التى تشرف على الميدان ، مبنى ضخم تآكلت زواياه وطمست زخارفه وأفاريزه الممتدة وقد نال منه الهرم ، أعبر بوابته العتيقة والمدخل المحاط بالمرايا التى تعكس صورا مغبشة، وقد سرت الشروخ فى أجزاء منها، وبجوار المدخل لافتة من الرخام كتب عليها اسم المعمارى الإيطالى الذى شيدها، وتاريخ تشييدها يعود إلى قرن مضى، فى الواجهة أسانسير حديدى كبير، ويفضى المدخل إلى ممرين جانبيين طويلين، ازدحما بالأبواب وفى نهاية كل منهما أسانسير.

أصعد السلم المرتفع ، كل طابق بارتفاع طابقين ، أطل على الشارع خلال ثلاث نوافذ متتالية ومتدرجة الارتفاع، ضجيج ينبعث من الطوابق، أبواب مفتوحة لمخازن وعيادات وورش أحذية وملابس وتصنيع بلاستيك وإكسسوارات

أواصل الصعود حتى الطابق الأخير حيث ينتهى السلم والأسانسير، ألمح عاملا فى أحد المكاتب ، أسأله عن كيفية الصعود إلى سطح العمارة حيث طوابق أخرى، يصطحبنى داخل الشقة إلى المطبخ الذى تحول إلى مكان لإعداد المشروبات، يفتح بابا صغيرا يؤدى إلى سلم حديدى حلزونى ويشير إلى أعلى، أقترب ثم أتراجع عندما تداهمنى رائحة عفونة أكوام من القمامة مكدسة على السلم، أتوقف لحظات فيسألنى:

ألن تصعدى؟ أسد انفى وأخطو على السلم الذى يمتد بطول العمارة وينتهى فى زاوية على الممر الجانبى.

يستقبلنى مجموعة من الأطفال عند نهاية السلم، يلتفون حولى متطلعين يسرع بعضهم جريا فى ممرات ضيقة ويختفون، أسير فى الممرات المزدحمة

fb/mashro3pdf

بالأبواب ، نساء ورجال، بعضهم يفترشون الأعتاب ونساء يؤدين أعمالا منزلية فى الممرات، غسيل ملابس وتنظيف خضر، يسألوننى عمن أريد ، أخبرهم إننى جئت لرؤية المكان، ودون معرفة لم بالضبط يسألونى أن أبلغ شكواهم للمسئولين، أخطو معهم فى أزقة ضيقة مزدحمة بالمساكن ، وأثاث مكدس داخلها ، ويتجمع آخرون، تقدم لى سيدة كرسيا لأجلس عليه، ويجلس بعضهم حولى على الارض.

يقولون إن معظم الرجال يعملون فى الورش وسعاة بالمكاتب. وبعض النساء يعملن فى الخدمة فى بعض البيوت والورش، ويجدون صعوبة فى هبوط وصعود عشرة طوابق مرتفعة ، ويضطرون أحياناً للعبور من بعض الشقق ليستقلوا الأسانسير، لكن العاملين وأصحاب الشقق كثيرا ما يرفضون السماح لهم بالعبور منها، تقول النساء إنهن يحصلن على احتياجاتهن من أحياء أخرى بعيدة، ويتناوبن الشراء لبعضهن البعض، الاطفال يذهبون إلى مدارس فى أحياء بعيدة، وتقول امرأة شابة إن آلام الوضع فاجأتها ليلا والشقق مغلقة، وإنهم اضطروا أن يهبطوا بها على السلم الحديدى ووضعت طفلها فى مدخل العمارة ، تكمل جارتها ضاحكة: أسمينا المولود «أسانسير» كى ينجدنا عندما يكبر.

كان السطح يتكون من ثلاثة طوابق من مساكن صغيرة ضيقة وقد أقاموا بينها سلما للصعود الى الطابقين الآخرين.

فى الطابق الأخير كانت مساحة مكشوفة يجلس فيها مجموعة من المسنين، يقولون انهم لا يستطيعون النزول او الصعود ، ولا رؤية الشارع.

وجوه تراكمت عليها التجاعيد، وأحداق ضيقة تلمع، وأجساد نحيلة يأتى صوت قادم من أعماق بعيدة: لم نر العالم منذ زمن بعيد.

أقف أمامه مشدوهة، وأنا أتذكر تلك الملامح.

fb/mashro3pdf

(١٥)

أدور فى الدائرة المحيطة بالمركز ، أقطع المسافة من العباسية وإليها حيث تمتزج الملامح وتتلاشى الحدود ، تتوقف قدماى فى تلك المنطقة المتاخمة لوسط المدينة ، حيث البيوت بالغة القدم ، طرز معمارية مختلفة، ازمنة تتعايش معا، بيوت تتحدد فيها أشكال معمارية لعصور متفاوتة، ثم تأخذ فى التحور وتختصر التفصيلات أو تتزايد الإضافات فى منازل اخرى، منازل صغيرة تبدو كتردد الصدى لتلك الطرز، أبنية من الحجر وأخرى من الطوب والخرسانة ، تبدأ بتلك العمارات الكبيرة التى تطل على الشارع التجارى الرئيسى، ذات طرز أوربية قديمة، وتوجد أشكال أخرى منها بحجم أصغر داخل الحى، بيوت تتألف من بضعة طوابق ذات واجهات مملوكية وتركية، توجد مشربيات بأجزاء منها وشبابيك من الخشب الخرط ، يرفع الجزء الاسفل منها إلى أعلى عند فتح النافذة وشرفات محاطة بعقود على الواجهة وبيوت ذات أفنية كانت حدائق تحيط بفيلات قديمة تحول بعضها الى مدارس، وبعضها يقيم به سكان وقد تحولت مساحة الفناء الى محلات منفصلة عنها، ربوع تحتوى على عدة مساكن ذات ارتفاعات متفاوتة تطل على الباحة، أحواش قديمة ثم مجموعات من البيوت متفاوتة المساحات يحوى كل طابق شقة أو اثنتين لكل منهما نافذة وشرفة تطل على الشارع، وهذه يتكاثر عددها داخل الحى، معظم الأدوار الأولى تشغلها محلات ومخازن وورش تكاثر عددها لتحتل أيضا بعض الشقق.

fb/mashro3pdf

سقط منزل بالحى أعقبه سقوط منزل آخر، أخليت عدة بيوت من السكان، ترددت أحاديث عن انتهاء العمر الافتراضى لبيوت كثيرة داخل الحى، وتبادل الجميع الاتهامات على صفحات الجرائد، قال المسئولون إن الحى ذو كثافة سكانية عالية مما يعرض المنازل للاستهلاك السريع، وقال الملاك إن السكان يسيئون استخدام المنازل، ويرفضون القيام بعمليات الترميم، وليس من العدل أن يقوموا هم - الملاك - بذلك مع انخفاض الايجارات القديمة.. أما السكان فقالوا إن الملاك يتعمدون تخريب المساكن لكى يجبروهم على تركها لإعادة بنائها وبيعها بأسعار باهظة، والمسئولون لايتدخلون لايقافهم عن ذلك، أمسك خيوطا وأتابعها عن ارتفاع أسعار الأراضى فى طفرات متتالية فى تلك المناطق التى تعتبر حيوية لوقوعها بالقرب من قلب المدينة، أخبار عن مستثمرين وشركات ومشروعات لإقامة أبراج سكنية وإدارية وفنادق ومشروعات، وعمليات إحلال وتقديرات عن العمر الافتراضى للأبنية والكثافة السكانية.

بمجرد السؤال عن المنازل المنهارة يتجمع السكان، تنطلق أحاديث عن أن البيوت المنهارة ليست سوى إنذار للكثير من منازل الحى، يدلون بشهادات عن المالك الذى اشتبك مع السكان عدة مرات لإجبارهم على الاخلاء وعرض مبالغ زهيدة مقابل ذلك، بعد أن تلقى عرضا بمبلغ طائل ثمنا للارض المقام عليها المنزل، وأن ذلك يتم بأكثر من صورة، يستشهدون بما يجرى مع البعض منهم، يصر البعض أن يصطحبنى لأرى بنفسى.

أتجه معهم إلى احدى العمارات المبنية حديثا ، نعبر المدخل ثم ننفذ من باب حديدى صغير أسفل السلم يؤدى لممر يفضى إلى فناء واسع، ربع كبير يحتوى على مجموعة من المساكن متفاوتة الارتفاع تطل على الفناء ، بعضها بمستوى الارض والبعض الآخر يرتفع بضع درجات، وأخرى فى طابق أعلى يؤدى إليها صف طويل من السلالم، أنظر إلى تلك المجموعة من البيوت

fb/mashro3pdf

داخل الربع ، لكل منها موقعه المتفرد داخل مكان يجمعهم جميعاً ، حوائط مطلية بالجير يتوسطها شريط مزخرف بالأحجبة بألوان أخرى ، رسوم لباخرة وجمل وطائرة ، وأهرامات ونخيل والكعبة ، وكف مطبوع على الحائط ، خطوط متماوجة لبحر أم سحب .

يتطلع البعض نحونا يقول الشخص الذى اصطحبنى وهو من سكان المنزل: باشمهندسة، جاءت لترى بنفسها، تتقدم سيدة قائلة : أخيرا افتكرونا، أرجو أن تبلغيهم بما نحن فيه، يقترح أحدهم أن نجلس بالداخل حتى لا يرانا أصحاب المنزل.

نتجمع فى حجرة يقيم بها رجل مسن ، ولها باب آخر يؤدى إلى داخل المسكن، يبدأون الحديث معا فى اصوات متداخلة، أفهم من كلامهم المتناثر أنهم يقيمون فى الربع منذ سنوات طويلة تمتد الى آباء وأجداد البعض منهم، وأن أصحاب المنزل يريدون منهم أن يتركوه.

يقول الرجل المسن: أبوهم الله يرحمه كان رجلا طيبا وتقيا، عشنا معا بالمعروف كإخوة، أبناؤه تربوا مع أولادى..

يشير إلى ابنه الذى دب الشيب فى رأسه ، ثم يواصل : بعد وفاة أبيهم ظلت علاقتنا كما هى حتى سنوات مضت عندما بدأوا تقسيم الميراث ، فبدأوا يضيقون بنا ثم ارتفع ثمن الأرض وأقيمت عمارات وأبراج حديثة ، وعرضوا علينا مبالغ زهيدة لا تكفى للحصول على مسكن آخر .

يكمل أحدهم : قاموا بهدم البيت الذى كان يقيم فيه والدهم وكان يحتل الواجهة المطلة على الشارع ثم بنوا تلك العمارة وباعوا شققها بأثمان مرتفعة ، والسكان الجدد يضيقون بنا بحجة أن بيوتنا تشوه موقع العمارة ، فى البداية تركوا لنا ممرا صغيرا بجوار العمارة نعبر منه إلى الشارع ، وعندما بدأت

fb/mashro3pdf

المضايقات سدوه بحائط ولم يبق سوى الباب الصغير أسفل السلم ننفذ منه ، الآن يتعمدون إغلاقه فى ساعة مبكرة من المساء ليمنعونا من الدخول والخروج ونظل محبوسين .

تتعالى أصواتهم ثانية :

– ماذا نفعل إذا حدث مكروه لا قدرة الله ؟

– وأين نذهب إذا تركنا بيوتنا ؟

– يقولون : إن شاء الله يقع على رءوسكم .

– حولوا حياتنا جحيما .

تشق سيدة فى أواسط العمر الأصوات بصوتها المرتفع قائلة : لم يتركوا وسيلة لمضايقتنا ، يلقون بالقمامة فى الفناء ، وتعمدوا كسر ماسورة المياه حتى غمرت الأرض وتحول الفناء إلى بركة ودخلت المياه بعض البيوت .

– أولادنا لا يستطيعون الاستذكار فى هذا الجو .

– ألقوا مرة بقطعة قماش مشتعلة بالبنزين ولولا رؤيتنا لها وقت إلقائها لحدثت كارثة لا يعلم مداها إلا الله ، استعانوا ببلطجية للتحرش بالسكان وحدثت مشادات عديدة تدخل فيها البوليس .

– ألم تفكروا فى حل للمشكلة قبل أن تتفاقم ؟

يصمتون فجأة ، وتبدأ الأصوات فى الارتفاع ثانية :

– أين نذهب ؟ المساكن أصبح سعرها مرتفعاً.

– معظمنا يعمل فى أماكن قريبة من هنا .

– بعض الأبناء تزوجوا ورحلوا من هنا .

– المكان يضيق ، لكن ماذا نملك أن نفعل ؟

fb/mashro3pdf

تقول سيدة مسنة : عشنا مع بعض زمنا طويلا كأهل ، وبعض أبنائنا تزوجوا من بعض ، أين أذهب فى هذا العمر ؟

يستوقفنى بعض الأهالى أثناء السير ، ويعرضون صورا مختلفة ، يقول أحد الرجال : أنا مالك لأحد البيوت ، والمشكلة ليست مشكلة ملاك أو ترميمات ، المشكلة أن البيوت قديمة وتتآكل بفعل الزمن ، ولابد أن يجد المسئولون حلا . يرد عليه البعض ويبدأ تبادل الاتهامات .

أقف أمام البيوت المنهارة ، منزلان متجاوران ، أحدهما أزيلت أنقاضه ، والباقى مازالت الأنقاض كما هى ، أجزاء محطمة من حوائط وألواح خشبية وأسياخ حديدية وأتربة اندفعت المياه فى تجاويفها ، بين الأنقاض مزق من ملابس وبقايا قطع أثاث مهشمة وعلبة سجائر فارغة ورأس دمية وإطار خشبى وأجزاء من أسلاك كهربائية وبعض أدوات منزلية مفتتة .

أنظر إلى البيوت المحيطة بهما والتى تصدعت إثر الانهيار وأخليت من السكان، شقوق واسعة تسرى فى الحوائط ، شرفة سقطت أرضيتها ومال السياج جانباً ، أثار دهشتى وجود سكان فى الطابق الأرضى لأحدها ، قال أحدهم موضحا : غادروا المنزل ثم عاد بعضهم ثانية ، وعندما حذرناهم قالوا : هل لديكم مكان نبيت فيه ؟

أسأل عن السكان الذين كانوا يقيمون بتلك المنازل ، يقولون إنهم يقيمون بالجامع ويشيرون باتجاه فرجة متسعة فى نهاية الشارع فأمضى معهم .. جامع حديث البناء يحتل مساحة واسعة بين بيوت صغيرة قديمة تفصله عنها فراغات واسعة من الجهات الأربع ، واجهة مثقلة بالزخارف الباهظة ودرج رخامى عريض محاط بالأعمدة الرخامية ، يشير أحد الرجال إلى مقهى مقابل مزدحم بالرواد قائلا: السكان يتجمعون فيه .

fb/mashro3pdf

يعرفنى بعضهم بالآخرين ، يقولون إنهم منذ ثلاثة أشهر يترددون على المسئولين لإيجاد حل لهم دون جدوى ، ثم عرضوا علينا مساكن فى أماكن خارج المدينة مقابل مقدم ثمن لا نستطيع توفيره .

– وأين تقيمون خلال تلك الفترة ؟

يقولون إنهم أقاموا فى البداية فى إحدى المدارس خلال فترة العطلة ، وعندما بدأت الدراسة طلبوا منهم إخلاءها ، البعض استطاع أن يقيم لدى أقارب أو معارف ، وقليل من الأسر استطاعت أن تدبر مبلغا للحصول على مسكن فى الشقق التى عرضت عليهم ، أما الباقون فقد توجهوا بأمتعتهم إلى الجامع الذى كان قيد التشطيب .

أخلع حذائى عند الباب وأتوجه إلى جانب من الجامع تكومت فيه أثاثات المنازل وتحجبه ستائر من ملاءات وبطاطين تنبعث من خلفها أصوات مكتومة .. مجموعة من الأسر يجلس كل منها فى تجاويف يتكوم حولها الأثاث والمتاع تفصل بينهم دواليب وأجزاء من قطع الأثاث وملاءات سراير كسواتر بينهم ، سيدات وفتيات يرتدين الخمار والنقاب حتى الصغيرات منهن ، أمهات يكبحن جماح أطفال صغار .

تسابقهن دموعهن وهن يحكين كيف أصبحن مشردات هن وأسرهن فى لحظات بعد أن كانوا يعيشون مستورين فى شقق واسعة ذات إيجارات زهيدة ، تنتحب إحداهن قائلة : كانت الشقق كساعنا وجلدنا .

تكمل أخرى : كانت تسعنا حتى يكبر الأولاد .

يقلن إن الجيران فى الحى كانوا يترددون عليهم فى المدرسة ويقدمون لهم المساعدات ، لكن فى الجامع الأمر مختلف ، قلت الزيارات ، وبعض النساء يترددن عليهن ويمضين مسرعات ، أما الرجال فيمضون النهار فى المقهى مع أهل

fb/mashro3pdf

الحى بعد عـــودتهم من العمل ، وإن الوضع لن يستمر طويلا لأن الجـــامع سـيتم افتتاحه قريبا ولابـد من إخلائه ، وقد أمهلوهم لفترة أجلوا فيهـا الافتتاح .

يستأذن بعضهن وينهضن ، وهن يسدلن النقاب على وجوههن ، يلحقن بأخريات وقفن فى انتظارهن وهن يتجهن إلى سلم جانبى ، تقول إحداهن : حان الآن موعد الدرس الذى تنظمه الأخوات .

الجامع مزدحم فى جوانب منه بصناديق ولفافات تحوى بعض المفروشات ، اسطوانات من السجاجيد وصناديق النجف ، وبعض اللوازم الأخرى ، جانب منه مفروش بالحصير وقد جلس بعض التلاميذ يستذكرون .

يرتفع صـــوت الأذان ويتوافد الرجال إلى الجـــامع ، تأتى مجموعات من نوى الجـلابيب واللحى ، أغادر المســجد وأرى مجموعات من النـــاس تتوجه نحوه .

أطالع أوراقا كتبتها منذ زمن عن الهوية المعمارية للأحياء القديمة ، وكيفية الحفاظ على الطابع المعمارى وفقا للطابع السائد فيها والعناصر المعمارية المختلفة والمواد المستخدمة فى البناء ، أزيحها جانبا .

يدخل أبى الحجرة قائلا : ألا تسمعيننى ؟

أسأله عما إذا كان يريد أمراً ما ، يقول : لا ، سأخرج .

موعد خروجه اليومى ، حيث يجتمع بشلة الأصدقاء والمعارف عند دكان الحاج عامر العطار ، يمضون الساعات الأولى من المساء ، لم يتغير اللقاء منذ سنوات، حتى الذين غادروا الحى حريصون على ارتياد تلك الجلسات على فترات ، يتبادلون الأخبار والحكايات عن أحوالهم وأحوال الدنيا ، يخبرنى أحيانا عن موضوعات تناقشوا حولها ، ويسألون عنه إذا تغيب ، وأحيانا يمر عليه أحدهم

fb/mashro3pdf

ليصطحبه ، أصبحت تلك الجلسة طقسه اليومى فى السنوات التى أمضاها وحده بعد وفاة أمى، وبعد أن غادرت بقيتنا البيت .

لم أعد أشغل فى المنزل سوى حجرتى ، بالتحديد جانبا منها يحوى المكتب والفراش ، أثناء المذاكرة كنت أنتقل من مكان لآخر فوق السطح والشرفة الخلفية وحتى أحيانا السلالم المؤدية إلى السطح ، جلساتنا فى الصالة وأمى تستقبل الجيران ، فى صباح الشتاء كن يجلسن على السطح ، وكذلك آخر النهار فى الصيف ، وكنا نتجمع نحن فى الشارع أحيانا ، نلعب الاستغماية والحجلة وننط الحبل ونلعب العاباً شتى ، وعندما كبرنا كنا نبدل ملابسنا فى العصارى ، ونلبس ملابس الخروج ونصفف شعورنا ، وآخر النهار نتبادل الزيارات ونخرج معا للتنزه ونتبادل الأخبار ، نقرأ الكتب ونستمع إلى أغانى عبد الحليم وحفلات أم كلثوم ، ونكات عزة وتقليدها للآخرين بخفة دمها وشقاوتها .

تقول : لابد أن تعيدى النظر فى كل شىء .

أجيبها : هذا ما فعلته فعلا .

– لا تكابرى ..

– ليس الموضوع كما تتصورين ، حياتنا معا أصبحت بلا معنى .

تقول : كلام لا أفهمه ، الخلاف أمر متوقع وعادى ، لكن ليس مبررا للانفصال، وأنتما بالذات ، بعد كل هذا الحب !

– لاتشغلى بالك ، فالأمور تمضى .

– والله لا أعرف ماذا يجرى ؟ هل الدنيا تغيرت فى غيابى ؟

ساعات قليلة تقتطعها وسط اهتمامها بإعداد الشقة ، ولا يلبث أن يتحول الحديث حول الأشياء التى اشترتها : الأثاث والستائر والمفروشات والمطبخ .

fb/mashro3pdf

أتذكر الحديث الذى سمعتها تردده على مها، تغيرت مها كثيرا . رغم اهتمامها بشكلها وأناقتها ، التقى بها ، وجه مجهد وشاحب .

– أعرف ما ستقولينه ، هو ما تردده عايدة .

– لم أقل شيئا بعد .

– عايدة تعتقد أننا نلتقى كثيرا ونتحدث معا ، وهى تعتقد أن أحداً ما يحرضنى .

– أنا مثلا .

– أنت أو غيرك ، تعتبرنى طفلة ، لا أفعل شيئا إلا ما يمليه علىَ آخرون ، ولولا ذلك فالأمر بسيط وعارض .

تحمر عيناها ، وتقول : مهما أقول لها ، لا تدرك ما أنا فيه .

آخذ حماما ، وأعد كوبا من الشاى ، وأمسك ورقة وقلما ، أشحذ ذهنى وأكتب كلمات عن أهمية اختيار الناس للمسكن وفقا لاحتياجاتهم وما يناسبهم ، ودور المعمارى فى صياغة تلك الاختيارات فى أطر جمالية وكيف تتحقق لهم حرية الاختيار بما يعبر عن طموحهم فى العيش .

تنحى بى الكلمات منحى آخر عما أود كتابته فى تلك اللحظة ، أتوقف وأترك المكتب .

fb/mashro3pdf

(١٦)

حسين فخرى .

أقفز من مكانى حين أسمع الاسم ، يقول يوسف إنه استطاع أن يحدد موعداً لزيارته .

نلملم الأوراق، نعيد النظر إلى كل منها على حدة، تصميمات مختلفة لبيوت حاولنا أن نبرز طابعا مميزا لها ، وهى تصميمات تم استنباطها من أبنية شعبية قديمة ، ركزنا على العناصر المتكررة فى المسكن وفى التعديلات التى أضافها السكان فى حالات كثيرة متكررة أيضا ، واستبعدنا العناصر المتفردة ، واستندنا إلى ذلك فى وضع تصميمات تبرز الطابع العام لها والمكونات الأساسية للمسكن .

نتوقف عند مشارف الحى حيث تترامى الهضبة الواسعة التى استقرت فوقها القلعة ، تنحدر الأرض حولها ثم تتابع البروزات والمنخفضات حتى ذلك الأخدود الطويل الذى توجد به منطقة المقابر الممتدة من شرقى إلى جنوبى المدينة ، ترتفع بعض الشواهد تتخللها قباب منقوشة وأضرحة مهيبة وأبنية مستوية تقطعها طرق مستقيمة وممهدة ، تبدو كحى راق هادىء ، سرعان ما يبدد ذلك حياة تدب بين طرقاتها لأطفال يلهون فى الشوارع ونساء يمارسن أعمالا منزلية ورجال يتجولون، يقطع ذلك قوافل الدفن وأصوات النحيب وزيارات أهل الموتى، وعلى الجانب الآخر للتلال يرتفع الجبل وقد استقرت على ضلعه الموازى

fb/mashro3pdf

لأخدود المقـــابر بيوت متزاحمة أخذت لون وتكوينات الصخور ، ذات فوهات معتمة .

نستدير باتجاه الحى إلى حوار منحدرة وبيوت متزاحمة ، تتخللها بيوت قديمة، مضى عليها قرنان أو أكثر ، يقيم هو فى أحدها .

نعبر مجازاً فى مدخل البيت ينتهى عند فتحة تؤدى إلى باحة المنزل تتوسطها نافورة من فسيفساء أزيلت أجزاء منها، ثم باب جانبى يؤدى إلى مجاز آخر مستطيل يصل أجزاء البيت ثم بضع درجات فى جانب منه تؤدى إلى السلاملك ، نصعد الدرج ونطرق الباب الموارب ، نسمع صوته مجيبا ، ندفع الباب ، كان يجلس على إيوان فى صدر القاعة، ينهض لاستقبالنا ويتقدم بضع خطوات ثم يعود إلى مكانه .

يبدأ هو الحديث ، يتعرف بنا ، يسألنا عن الدراسة وعن سنة التخرج وماذا نود أن نفعل ، نجيب على أسئلته ، ونحكى له عن جولاتنا فى الأحياء القديمة ودراسة أنماط العمارة المختلفة بها ، ومحاولة استخلاص ملامح عامة محددة للمسكن تبرز فيها الهوية .

يستمع إلينا بانتباه ، ويهز رأسه أحيانا ، يسألنا عن أهم هذه الملامح التى تحدد الهوية كما يتراءى لنا ، يستحثنا على المزيد من التفاصيل ، نحكى له عن بعض الحلول المعمارية التى يلجأ إليها السكان ، والتى تبدو ضربا من الفوضى لأنها تتم بعشوائية ، وكيف يمكن أن تكون تلك الحلول منطلقا لفهم متطلبات المعيشة لديهم والوفاء باحتياجاتهم ، خاصة مع قصور الإمكانيات وفقر الخدمات فى المناطق الشعبية ، وهم يلجأون لذلك لعدم وجود حلول معمارية متاحة أمامهم. وأن هذه التحويرات والإضافات التى يقوم بها السكان تفتح المجال للتأمل والإبداع عن تصميم المسكن .

fb/mashro3pdf

يبتسم مشجعا ، يقول إنه سعيد بأفكارنا ، نقدم له بعض التصميمات التى قمنا بها ، يتأملها طويلا ثم يلتفت إلينا قائلا : خطوة طيبة ، وفيها اجتهادات ، لكن ذلك يفترض وجود مساحات كبيرة ، لأن هناك بعض الأماكن داخل المنزل يمكن أن يتعدد استخدامها لأكثر من غرض ، وتصميم المساكن حاليا يقع كثيرا فى هذا الخطأ ويزيد تكلفة الوحدة السكنية ، يبدى أيضا ملاحظات على تفاوت المساحات داخل الوحدة السكنية وعدم الاهتمام بوجود فراغات كافية بداخلها .

يسألنا : هل فكرتما أين يمكن تنفيذ مثل هذه النماذج ؟

– نتصور أنها يمكن أن تنفذ فى بعض المناطق الشعبية الجديدة فهى أنسب ، وعموما لم ننته إلى شكل محدد بعد ، فنحن لا نزال نواصل دراسة الأبنية والبيوت وننمى خبرتنا .

– لابد أن يرتبط ذلك بالكيفية التى يتم بها التنفيذ والموقع ، بالطبع السعى إلى هدف أمر مهم، خاصة إذا كان من أجل الناس ، لذا فإن العمل وسطهم يساعد على بلورة الأفكار بصورة أوضح .

يحدثنا عن تجاربه الأولى ، يقول إن التصميمات التى قام بها فى البداية كانت مجرد شكل قياسى ، وأنه أضفى تعديلات كثيرة عليها أثناء الإعداد لها وتنفيذها بالاستماع إلى الأهالى ، فالخبرة المتوارثة لديهم أمر لا يستهان به ، ولا يمكن تجاهلها، وهى الخبرة الموجودة لدى البناء الشعبى التى يكتسبها بالاحتكاك المباشر معهم ويتوارثها ، وقد استعان بهم وبخبراتهم ومهارتهم فى التغلب على بعض المشاكل التى واجهته ، فهم يستوعبون العلاقات الاجتماعية واحتياجات الأسرة ، كذلك الاستعانة بالخامات البيئية المتوافرة مما يقلل تكلفة البناء ويوائم البيئة من حيث المناخ والمكان والعوامل الطبيعية .

fb/mashro3pdf

أقول . إن هذه الخبرة تتناقص مع اتساع نشاط المقاولات والشركات الكبرى، وأثناء احتكاكنا بالناس وتبادل الحديث معهم كانت مطالبهم مرتبطة بما تطرحه هذه الشركات ، أما حلمهم الخاص فهو نماذج البيوت الأكثر ثراء من بيوتهم بصرف النظر عن احتياجاتهم وما يريدونه لأنفسهم .

يضيف يوسف : لم يمارسوا حق الاختيار الحقيقى أو يدربوا على التعبير عما يريدون بالتحديد ، ويتكلون على ما تقدمه شركات المقاولات والملاك وينظرون إليهم على أنهم أدرى بما يقدمونه عنهم أنفسهم .

يقول : آه ، تلك هى المشكلة ، ومشكلة مافيا المقاولات أنها لا تتيح الفرصة أمام من يتبنى وجهة نظر الناس ، لأنها لو تحققت فستهدم أسسا كثيرة وتطرح البديل الأنسب والأجمل .

يجيب على تساؤلاتنا بإسهاب ، تتداخل موضوعات يطرحها متناثرة ثم لا يلبث أن يربطها فى رؤية محددة ، يصطحبنا لرؤية أجزاء من المنزل الذى يقيم فيه ويشرح مستشهداً ، يخط رسوما كروكية يوضح عليها ما يقول ، يرينا بعض التصميمات التى قام بتنفيذ بعضها بشكل محدود ، يقول إنها تصلح فى المدن والأحياء الجديدة ، وهى تختلف عن تلك التى قام بتصميمها فى القرى.

القاعة محاطة ببلاكارات ، بعضها أرفف رصت بها الكتب وملفات تحوى أوراقا وبعض الأدوات ، وتحوى فى أجزاء منها أبواباً تتكامل زخارفها من الخشب المحفور مع الأجزاء الأخرى من الحائط بحيث لا يتبين مكانها للوهلة الأولى ، وخلف الإيوان مشربية تطل على صحن الدار ، فوقها مربعات من الزجاج المعشق فى وحدات زخرفية مختلفة فى كل مربع منها .

يتطرق الحديث إلى الأحياء والمدن الجديدة والأبنية المقامة فيها ، يقول :

fb/mashro3pdf

صناديق نمطية يتم تعبئة السكان فيها بصرف النظر عن متطلباتهم واحتياجاتهم.

أقول : المفروض أن تتم عمليات استطلاع عن رغبة الناس فى المسكن واحتياجاتهم تكون أساساً فى تطوير العمارة ، والأمر يتجاوز دور المعماريين .

يربت على كتفى قائلا الأمر ليس بتلك البساطة ، هناك شبكة من المصالح المترابطة فى نظام البناء والتشييد وتمتد إلى جهات أخرى وتحول دون ذلك بقوة .. مافيا المقاولات .

الوقت يقترب من منتصف النهار وقد بدا عليه بعض الإجهاد ، نصافحه مودعين ومبدين الرغبة فى زيارة ثانية فيرحب بذلك .

نقف تحت شجرة سنط عتيقة على طرف الرابية المقام فيها هذا الجزء من الحى ، ننظر باتجاه التلال الجبلية .

– لن يتيحوا أية فرصة لتحقيق مثل تلك الأفكار .

– لكن أشياء منها تحققت بالفعل .

– لن يدعوها تتكرر حتى لا يعتادها الناس، سيدفعون بها فى اتجاهات أخرى لتصبح مجرد زخارف وديكورات لا تمس جوهر البناء ، حتى تفقد معناها ، ولا مانع أن تقوم مافيا المقاولات التى أسماها بذلك بتنفيذها فى تلك الحالة .

– الواقع والمستقبل سيحتمان تحقيق مثل هذه الأفكار .

– الواقع .. المستقبل .

أنظر عبر المدى ، أتسمع وشوشة خافتة تتضح شيئا فشيئا فى تناغم رتيب، يتراءى البحر شاسعا ، يتعالى الموج صاخبا ، ثم سرعان ما يهدأ مسترسلا فى رتابة .

أسير حافية على رمال ناعمة دقيقة مغسولة بماء البحر، تختفى تعاريج الموج

fb/mashro3pdf

وينبسط البحر ويغمر الشاطئ زبد أبيض ، ونور الشمس يسترسل مقطرا من خلال غلالات من السحب البيضاء التى تتجمع وتتكاثف لتملأ السماء .. سكون تام وصاف ونوافذ الشاليهات والكبائن مغلقة والشاطئ خال .

أرى النوارس وهى تقطع مسافات عبر البحر فرادى من اتجاهات شتى وهى تحوم حتى تملأ الشاطئ ، تطير فى كل الاتجاهات، ثم تتجمع وتتقارب وهى تطلق صيحاتها، تتحلق فى دائرة وتلحق بها أخرى ويتزايد عددها ويعلو صياحها ، تتكاثف الدائرة وهى تحلق فيها بانتظام حتى تتحرك الدائرة وتدور ، تضيق الدائرة كلما أسرعت فى الطيران فتسرع فى الدوران .. تضيق أكثر وتستمر لبعض الوقت ثم تهبط فى عمود اسطوانى وهى تسرع أكثر فأكثر حتى تصل إلى الأرض فتثير الرمال وتنطلق عاصفة من الغبار تغطى المكان، تتطاير الرمال كالشواظ وترتطم حبيباتها بوجهى وذراعى وجسدى فتوخزنى بشدة ، يستمر الدوران لفترة ثم أرى العمود ينكمش من أسفل بينما يظل ثابتا من أعلى ويضيق شيئاً فشيئا حتى يعود دائرة مرة أخرى، ثم تدور باتزان محلقة عبر البحر .

تنقشع عاصفة الغبار والرمال تدريجيا وتسفر عن يوسف واقفا وقدماه منغرستان فى الرمال وهو يترنح فى وقفته مرتعش الأطراف زائغ العينين ، أقترب منه، ينظر إلىّ بعينين كليلتين وهو يحاول جاهداً أن يرفع قدميه فتنغرسان أكثر فى الرمال، أمد يدى لأجذبه فأغوص معه، يتشبث كل منا بالآخر ، يختل توازنى وأقع على الأرض فتنفلت يدى من يده وأراه ينطلق هاشا لا تكاد أقدامه تلامس الأرض، أسرع نحوه وهو يسير فى خط دائرى ، ألتقاه بين ذراعى وأضمه إلى ، أشعر بدقات قلبه المتسارعة فى نبضى، ولا أعرف أينا من الآخر .

ألتقط أنفاسى بمشقه ، وأمسح العرق الذى يتفصد غزيرا على وجهينا ، وحين

fb/mashro3pdf

أرفع رأسى أرى أوراقا متطايرة فى كل الاتجاهات ، أمسك واحدة منها وأصرخ ملتاعة ، أوراق الأبحاث والخرائط والتصميمات والصور .

أنطلق فى كل الاتجاهات وأنا أحاول الإمساك بها ، أصرخ أن يحاول معى وهو ساكن مكانه وهى تتطاير حوله ويرتطم بعضها به، وقد استقر بعضها على صفحة المياه .. أجلس خائرة القوى وتنطلق دموعى .

– هاهو كل شىء يضيع .

– هذا ما كنت أخشاه .

أمسح الدموع فى عينى ، وأحاول أن أراه بوضوح .

– أكنت تتوقع ذلك ؟

– وكم تمنيت ألا يحدث .

تغالبنى دموعى وأشعر بملوحتها مختلطة بمرارة حلقى .

– لم يكن حلما تتخاطفه الريح ، بل جهدا سعينا أن يتحقق ، أن نراه حقيقة أمامنا .

– ماض تولى .

– تقول ذلك وأنت الذى تتحدث دوما عن الآتى .

– لن يبقى سوى مرارته .

– لم يكن ما نستشعره المرارة ، بل مغالبة اليأس .

أشعر بطرقات فى رأسى وأنا أحاول أن أوقف دموعى : مازلنا كما نحن .

– لكن الأيام لن تكون هى الأيام .

– مستحيل أن يمضى كل شىء هباء .

– ليس الوقت الآن للأحلام والتمنى .

– وأنا .. وأنت !

fb/mashro3pdf

(١٧)

– لم يعد الاستمرار ممكنا بتلك الطريقة .

يطفىء السيجارة فى المنفضة ويتوقف عند نهاية البهو، يلقى نظرة من النافذة.

تقول تهانى بصوت منخفض : هكذا فجأة .. ولأول مرة ؟

يقول عصام : دعيه كما هو ، يحتاج فترة من التفكير .

– ما صدقنا .. ، أم يبدأ من جديد ؟

– لا تقلقى ..

– هو الآن أفضل بكثير عن الأيام الماضية ، تلقى عرضا من ألمانيا من الجامعة ، قلت له أن يذهب لبضعة شهور ، ربما يكون أفضل بالنسبة له فى تلك الظروف .

يقترب مصطفى ويجلس بجوارنا .

– كل ما درسته وعرفته وكل ما أود أن أفعله ، أصبح لا علاقة لى به .

يرسم دوائر بإصبعه فى الهواء.

– وما الجديد فى ذلك ؟

– أصبح ما نريد هو الاستثناء ، ويبدو أنه مع الوقت أصبح مستحيلا .

يقول عصام : فلنفكر بهدوء ، أنت وافقت من البداية على القيام بأعمال لم تكن مقتنعا بها ، وبررت ذلك حتى تعمل ما تريد ، رأفت يرى أن ما تريده أنت هو الاستثناء وتلك وجهات نظر .

fb/mashro3pdf

يضيف قائلاً : لكن من يملك أن يحقق ما يراه من وجهه نظره .

تتدخل تهاني قائلة : لا يوجد اتفاق تام بين شريكين مهما كان الأمر، المهم أن تتوصلا إلى صيغة للتقارب في وجهات النظر بينكما .

يقول مصطفى محتدا : غير ممكن ، إما هذا أو ذاك ، سنوات ونحن نحاول ، عندما بدأت أنا وهو معا في مكتب خاله جمعتنا الرغبة في تحقيق أفكار جديدة لم نجد مجالا لتحقيقها ، قررنا أن نستقل معا وأسسنا المكتب ، وساهم هو بالقدر الأكبر في رأس المال، اعتقدت أننا سنحقق الكثير مما فكرنا فيه ، قبلت في البداية بعض أعمال حتى تسير دفة العمل ، لكنه كان متعجلا ومستسهلا، وانتهى الأمر بالخضوع لشروط السوق والتهاون في التنفيذ بناء على رغبة المالك أو الممول .

أسأل : أهو خاص بقبول المشاركة في المشروع الذي عرضه خالد ؟

يقول مصطفى : هذه مجرد نقطة من خلافات عديدة ، أي أحد يمكن أن يتقدم بمشروع مادام معه المال ، وما علينا إلا أن نركن كل أفكارنا جانبا لننفذ له ما يريد ، كل شيء قابل للتعديل بما يرضيه ، وكل مرة ندخل في نزاعات لهذا السبب.

نصمت جميعا فيقول : تلقيت دعوة لألمانيا وعندما آتي سأفكر في الأمر بهدوء، أنا بحاجة للابتعاد لفترة .

يقول عصام : ولم لا تقرر ذلك الآن ؟

– الأمر يحتاج وقتا .. ولابد أن يكون هناك بديل .

– سأقطع الإجازة وأعود للعمل بالشركة .

– لم لا تنتظر حتى أعود ؟ وجودك مهم في غيابي .

– لا أعتقد ذلك .

fb/mashro3pdf

يلتفت عصام إلى قائلا : ألا تجدين لى عملا آخر ؟

يستطرد : وماذا تفعلين ؟ آه ، صحيح ، أمازلت تواصلين التنقيب فى حفريات العباسية ، والأحياء العتيقة ؟

تقول تهانى بحدة : ألا تكف عن الهزل ؟

نصمت جميعاً ونتبادل النظرات يقطع الصمت بهدوء قائلا : وهل سؤال شخص ما عما يفعل يعتبر هزلا ؟

– طريقة السؤال ، وأنت ماذا تفعل ؟

– ببساطة .. لا شىء ، وتلك هى مشكلتى أيضا .

يسود الوجوم للحظات ، يقطعة مصطفى قائلا وهو يبتسم : لماذا انقلب الأمر هكذا؟ بصرف النظر عن طريقة عصام فى السؤال ، لماذا أصبح سؤال ماذا نفعل مثيرا هكذا للحساسية ؟ حتى ونحن نسأله بيننا وبين أنفسنا .

يقول عصام : أنا آسف على طريقة السؤال ، لكن معك حق ، لأننا لم نعد نسأل أنفسنا ماذا فعلنا ، وماذا نفعل ؟

أقول : أو لأننا لا نستطيع الإجابة .

تقول تهانى: الإجابة مرتبطة بما نود أن نفعله .

يقول عصام : ما نوده ولا نفعله ، هذا الكلام لا ينطبق على الجميع ، فالحاج خالد مثلا ..

– تعود للهزل ثانية ، لا فائدة .

يتوجه بالكلام إلى : ألا تعلمين ؟ فهو معروف فى السوق بالحاج خالد ، فهو يواظب على الحج بانتظام ، وأحيانا عدة مرات فى السنة ، يحج فى الرياض ، وليس بمكة .

تضحك تهانى قائلة : رغم غيظى منك ، فأنا أغبطك .

يواصل قائلا : أعمال على كل نوع ، مقاولات ، تصدير ، استيراد ، عمالة ..

fb/mashro3pdf

يوسف حج معه مرات قليلة ثم قرر بعدها أن يغير القبلة من الشرق للغرب ، وسرعان ما أصبح عابراً للقارات .

يقول مصطفى : الغريب أن خالد وهو يحاول اقناعى بمشروعه ، يفكرنى بأحلامنا القديمة وأفكارنا بحجة ألا نترك المجال لغيرنا كى يشوهها ، ويتهمنى أنا بالتخلى عنها ، وأننا أولى من غيرنا باغتنام الفرصة أيا كانت لتنفيذ ما نريده .

- خفة ظل !

- وخفة يد .

يواصل مصطفى : كلنا نقول نفس الكلام .. أليس ذلك غريبا ؟

أقول : الأغرب أن كلا منا يحاول أن يبرر ما يفعله بأنه يسعى لتحقيق ذلك .

- عندما أصر أن أشرح له وجهة نظرى وكلمته عن أسلوب البناء والشكل العام للأبنية ومواصفاتها قياسا إلى الموقع، قال : يمكن أن نضفى الشكل الذى تريد على المبنى ، أما التنفيذ فتلك مسألة فيها أخذ ورد .

يقول عصام : نفس وجهة نظر رأفت أن ذلك يعطى الأبنية شكلا مميزا ، ديكورات للواجهة .

يشيح مصطفى قائلا : كنت أحلم أن استفيد مما درسته ورأيته من إنجازات العمارة الحديثة ، وما وصلت إليه تكنولوجيا البناء فى تقديم أفكار جديدة ، لكن آليات السوق لا تسمح سوى بتقديم أشكال نمطية متكررة ، وأى افكار سواء عن الحداثة والإبداع أو التراث أو البيئة هى فى أحيان قليلة مجرد ديكورات تغطى بها الواجهة ، يزاحمون بها الأحياء القديمة دون مراعاة الطابع السائد فيها ومتطلبات السكان ، فوضى معمارية فى كل مكان .

أقول : تصوروا ، لم يبن أى منا بيتا بالشكل الذى يريده .

fb/mashro3pdf

يقول عصام : أخشى أن أقول إننا فقدنا حتى القدرة على الحلم ببناء هذا البيت .

أعيد قراءة ما كتبته وقد نال منى التعب ثم أواصل الكتابة ، أتناول النقاط الباقية وأشرحها تفصيلا ، أقرأ عليه ما كتبت ، فيقترح صياغة بعضها بشكل آخر . الوقت يقترب من منتصف الليل، ونحن نضع اللمسات الأخيرة فى التصميمات بعد أيام من العمل المتواصل ، نشعر بإرهاق ونحن نقف أمامها ، تلتمع عيناه فى ومضة سريعة وهو يغالب النعاس .

أربعة نماذج لوحدات سكنية مختلفة ، تحتوى على العناصر الأساسية ، مساقط أفقية وقطاعات رأسية للواجهات والجوانب ، ثم صور للأبنية فى شكلها النهائى ، لم ننس شيئا ، تضغط أصابعه على كتفى تتسرب إلى ارتعاشة أصابعه، وهو يرتكز بنظراته إلى الرسوم . نرتب الأوراق ونطويها بعناية ، ألتفت نحوه فيحيطنى بذراعيه .

كانت نهلة تعد ريبورتاجا عن الهوية المعمارية وكانت متحمسة جدا لما قلناه ، قالت إنها تتناول أفكارا وآراء لأجيال مختلفة ، سألتنا بداهة : لم لا ينفذ ذلك ؟ حدثتنا عنه ، قالت إنه يمت بصلة قرابة لوالدها ، وعرفتنا به ، طلب منا بعض التصميمات ، قالت إنه يشغل منصبا رئيسيا مهما فى الشركة ورفض الترشيح لمنصب مهم فى الدولة وهو على حد قولها متحمس للأفكار الجديدة .

كان الموعد فى أحد مقار الشركة الذى يشغل طابقين من بناية ضخمة حديثة على النيل ، استقبلتنا السكرتيرة ودونت أسماءنا ، ثم دعتنا للجلوس ، يستدعيها فتدخل له ومعها الورقة ثم تعود مكانها ، تمر فترة ويرن الجرس فتدعونا للدخول.

يستقبلنا مرحبا وهو ينهى حديثه إلى بعض مهندسى الشركة ، يلمون أوراقا

fb/mashro3pdf

على المكتب أمامه ، وبعد انصرافهم يشير إلى التصميمات ، نفردها أمامه على المكتب ، يتأملها صامتا ثم يستوضح بعض الأشياء ، يمسك بالأوراق التى تتضمن الرسوم الخارجية ، يرفعها بين يديه وهو يتأملها ، ثم يطالع سريعا الورقة التى دونا فيها البيانات : مجهود طيب ، لا بأس به .

ننظر إليه وهو يزم شفتيه ، يقول : لكن هناك مشكلة .

- أية مشكلة ؟

يرد سريعا : ليس فى التصميمات نفسها ، فهى عموما جيدة باستثناء بعض الملاحظات والتعديلات ، فيها أفكار جديدة لكن من الصعب تنفيذها ، تنفيذ مثل هذه النماذج يحتاج إلى ظروف مختلفة ومدى زمنى طويل ، ألا تدركون الواقع ؟ خطة الإسكان وبناء مساكن حديثة تحتاج إلى إيقاع سريع .

- يمكن اكتساب الخبرة بها وتعميمها بسهولة ، وهى موجودة على أية حال لأنها تعتمد على خامات رخيصة ومتوافرة بدلا من الخامات المنتشرة التى يتم استيرادها بأسعار مرتفعة تزيد تكلفة البناء ، كما يترتب عليها استيراد أشياء أخرى مكملة لها .

يقترب وهو يميل على المكتب : هذا كلام جميل من الناحية النظرية ، لكن عمليا هناك تطور كل يوم فى تكنولوجيا البناء الحديث ، وهو يسرع بعمليات البناء ويتوافق مع إيقاع العصر وتلبية الاحتياجات المتزايدة للسكان ، ويجب أن نتابع تلك التطورات وإلا سنتخلف كثيرا .

- بالعكس ، التكنولوجيا أمر ضرورى ، لكن يجب تطويعها لمثل تلك الأنواع من المبانى مما يساعد على انتشارها بصورة أكبر .

رحنا نشرح له على الرسوم أهمية استخدام الخامات المحلية المتوافرة ، ونستشهد ببعض المناطق والأماكن التى تسود فيها تلك الأنماط من الأبنية

fb/mashro3pdf

الشـــعبية ، وتوافر وسائل التهوية الطبيعية فيها ، ومراعاة درجات الحرارة والرطوبة والشمس وشدة الرياح بدلا من الاعتماد على وســـائل التهوية الصناعية ، وأن تنفيذها بالحجر يجعلها أكثر صلابة ، ويجعل العمر الافتراضى لهذه الأبنية أطول بكثير من مبان مبنية بخامات أخرى ، معظم آثارنا مبنية من الحجر .

يقول : أتعرفون ماذا يعنى ذلك ؟ أن تتوقف خطة البناء والتعمير حتى يتم تدريب العمالة ، ماذا يكون مصير عشرات الشركات ومكاتب المقاولات المثقلة بالالتزامات ؟ ناهيك عن مجال الاستيراد والتصدير ، هذا يتجاوز إمكانيات أى شركة بل الدولة نفسها .. أهذا كلام؟ الشركات الناجحة لابد أن تحقق أرباحا متزايدة عاما بعد عام أم أنكما لا تعيشان الواقع .

يشير إلى الرسم قائلا : وحتى مع إمكانية ذلك وهو مستحيل، فإن هذه المبانى تحتاج إلى مساحات كبيرة من الأراضى لأن عدد الطوابق محدود ، مما يزيد التكلفة، والمساحات داخل كوردون المدينة محدودة ، والتوسع الرأسى هو الحل الأمثل للتغلب على تلك المشكلة .

– لكن ذلك يشكل ضغطا متزايدا على المرافق والخدمات ، فضلا عن الازدحام وما يستتبعه من مشاكل أخـــرى ، كما أن الكثير منها لا يتناسب مع الموقع والبيئة .

يهز رأسه مبتسما : الناس تود اللحاق بركاب العصر ، والعمارة الحديثة موجودة فى كل مكان ، ذلك ما نراعيه فعلا فى الأبنية الحديثة، فالطوابق الأولى تخصص للخدمات اللازمة ، أما المرافق فلابد أن يتم تطويرها تحت الحاجة المتزايدة ، والاستعانة بوسائل حديثة .

– هناك فرص للتوسع فى الأحياء والمدن الجديدة ، لماذا لا تنفذ فيها تلك

fb/mashro3pdf

الأبنية ؟ ولماذا اللجوء للارتفاعات المبالغ فيها داخل المدينة ، وأيضا الأحياء الجديدة التى تحيط بها صحراء واسعة ؟

- ذلك التوسع يتم تدريجيا ، ولأن هذا يحتفظ بأسعار الأراضى مرتفعة ، ياليت يتم التوسع فيها ، فهذا سيجعل سعرها أقل بكثير ، لكن تلك سياسة الدولة ..

يضغط الزر فتأتى السكرتيرة ، يطلب منها صور بعض المنشآت فتحضرها له، يناولها لنا قائلا : الوزارة كلفت الشركة بتنفيذها فى ثلاث سنوات ، قلنا لهم سنتين ونصف فقط لو وفرتم لنا التسهيلات ، الإمكانيات متوافرة لدينا ، وتم تنفيذها فى أقل من سنتين ونصف .

نتناول الصور ، الشكل العام للأبنية يجعلها تبدو كصناديق متراصة ومتزاحمة ، الفراغات محدودة جدا بينها ، والطرق ضيقة بما لا يتناسب مع ارتفاعات الأبنية.

يقول : هذا لا يعنى أننى غير مقتنع بآرائكما ، ولكن أخذتكما حماسة الشباب ، وهذا يعجبنى ، لكن لابد أولاً من التعرف على الواقع والتكيف معه ودراسة السوق لأن هناك منافسة .

أتبادل ويوسف نظرة ، ننهض استعداداً للانصراف ، ونبدأ فى لف الأوراق، يضع يده فوقها على المكتب وهو ينظر إلينا : أمستعجلان ؟ لم ينته الكلام بعد.

يضغط الزر قائلاً : ماذا تشربان ؟

يواصل بعد أن نجلس : هذا ليس معناه أننى ضد أفكاركما، رغم اختلاف

fb/mashro3pdf

وجهات النظر ، وهذا وارد على أية حال ، أنتما فى بداية الطريق ويجب أن تتعودا على ذلك ، ولكن كما قلت ، فلنكن واقعيين ، دعنا من مشروعات الإسكان ، هناك مجالات أخرى أجد أنها أنسب بالنسبة لأفكاركما ، ويمكن أن تجدا فيها الفرصة.

- أية مجالات ؟

- الشركة تفكر فى إقامة قرى سياحية ، وهذا يتطلب أفكارا غير تقليدية.

- قرى سياحية ؟

- نعم ، وتنفيذ مثل هذه الأفكار سيكون مناسبا لها ، وشكلها يجذب السياح ، فهم يحبون الإقامة فى أماكن ذات طابع محلى مرتبط البيئة .

fb/mashro3pdf

(١٨)

تطالع عيناى الأبنية والبيوت والأحياء القديمة ، أشياء كثيرة تتغير بصورة لا أستطيع استيعابها ولا أعرف ماذا ستكون عليه بالضبط بعد سنوات . يرفض المسئول إعطائى أية بيانات عن العمر الافتراضى للأبنية والمنازل الآيلة للسقوط وتلك التى صدر بشأنها قرار إخلاء إدارى، يسألنى عما أنوى أن أفعله بتلك البيانات .. ولماذا ؟ ... أشرح له بصورة سريعة أننى أقوم بدراسة عن الحى ، يبدو غير مقتنع بكلامى ، يسألنى عن عملى بالوزارة وعلاقته بذلك ويطلب منى رسالة من الوزارة بطلب هذه البيانات .

يتدخل زائر بمكتبه كان يتابع الحوار : هذه أحياء نال منها القدم، ولابد أن يعاد تخطيطها بصورة عصرية .

يقطع كلامه مبتسما : هى تتكلم فى موضوع آخر .

أقول له : إذن تعرف ما أريد .

– لا .. نعم .. ولكن أريد أن أعرف لماذا بالضبط حتى أستطيع مساعدتك ، ربما تكون هناك جوانب أخر يمكن توضيحها .

بعد جهد فى المناقشة والأسئلة والأجوبة يقول : بصراحة تلك بيانات خاصة بالعمل ، وهناك تعليمات مشددة بعدم اطلاع أحد عليها إلا بخطاب رسمى ، لأن البعض يحاول استخدامها بشكل يسىء إلى المسئولين وإلى البلد نفسها ، رغم ذلك يمكن أن أجيبك على أية أسئلة .

fb/mashro3pdf

قال إنه لا توجد منازل متصدعة أو آيلة للسقوط، لأنهم لا ينتظرون حتى يحدث ذلك ويتم إصدار قرار بإخلائها فورا وتوفير مساكن للسكان بها فى مشروعات الإسكان الجديدة . اسـأله عن عدد المنازل التى تم إصدار قرار بإخلائها ، يقول: بضعة منازل لا غير ، أشير إلى المنازل التى انهارت ، فيقول تلك أخطاء فردية لا ينبغى تعميمها قد تكون نتيجة لخطأ المالك والسكان معا حسبما يتبين من التحقيقات ، وسوف يقدم المالك إلى المحاكمة فى حالة ثبوت أى تقصير منه .

أما ما يقال عن العمر الافتراضى للأبنية فتلك أقاويل مبالغ فيها ، تسرى بين الناس عقب حادث سقوط منزل فى أى مكان، والناس معذورون ، كل ما فى الأمر أن الانهيار أثر على منازل أخرى مجاورة، وتم تشكيل لجنة لدراسة وضعها ومعرفة مدى صلاحيتها لم ينته تقريرها بعد، وتم إخلاؤها من السكان تأكيدا للأمان حتى يتم البت فى أمرها .

أسأله عما تم بالنسبة لسكان المنازل المنهارة والمتصدعة ، فيقول إن سكان المنازل المنهارة تم تسليمهم شقق فى حى جديد أفضل بكثير من تلك التى كانوا يقيمون بها ، أما الأسر التى أخليت منازلهم فسيأتى دورهم بعد تقرير اللجنة.

يتداخل الحى فى أجزاء منه مع أحياء أخرى مجاورة كلها مكدسة ومزدحمة ذات كثافة سكانية عالية وأطرافه التى تقع ضمن مناطق تجارية وورش مزدحمة ، تنفلت أبنية حديثة مرتفعة وسط بيوت صغيرة متزاحمة وبعض البيوت والجوامع الأثرية ، تتراجع العمارات الحديثة قليلا عن الخط المحدد فى الشارع ، وتحوى محلات ذات واجهات زجاجية وألوان معدنية ، ثم تبرز فى الطوابق العليا مسيطرة

fb/mashro3pdf

على فراغ الشارع ، أبنية جديدة تتكاثر وتنتشر ، تغير ملامح الحى وتتشكل معها علاقات أخرى جديدة .

أسير فى شارع رئيسى يخترق الحى ويتعرج بين المنازل فى أجزاء منه ثم يتسع فى نهايته عن اتصاله بالشارع العمومى .. ألمح عند نهايته لافتة لسينما قديمة تحولت إلى مخزن لأحد أساطين التجار ، علقت فوقها لافتة معدنية مضاءة بالنيون تحمل اسمه واسم شركته، بجوارها من أعلى لافتة قديمة للسينما عليها أفيش آخر عرض سينمائى بها ، وقد تقشر الورق فى أجزاء منه ، وحفر فى بعض الأجزاء بدت منها أوراق مصفرة متراكمة ومضغوطة ، ومازالت بقايا الأفيش القديم يعلوها ، ثلاثة أفلام فى بروجرام واحد ، ألمح وسط صور ملونة متآكلة .. أيامنا الحلوة .. سابو .. بساط الريح ، نصفه الأعلى عار ويداه الممسكتان بشعر الجنى .. ثم فى أقصى اللوحة اسم «فريد إستير» .

بينما أعبر الشارع أكاد أصطدم بعربة تقطع الطريق مسرعة ، أندفع إلى الرصيف المقابل ، تقبض يدى على جذع شجرة نحيل فتهتز أفرعها وترتعش أوراقها ، يتجمع بعض المارة حولى ، يربت أحدهم على كتفى فأستدير.

- يوسف .

- أردت التوقف أمامك عندما رأيتك تعبرين الشارع .

ينصرف المارة ، أتناول منه علبة عصير ، أرتشف منها قليلا وأناولها له ، ولا أسمع بقية حديثه وأنا أتأمله فى ثيابه الأنيقة وعربته الحديثة .

- أه .. أصبحت شخصا مهما !

يرتبك قليلا وهو يعبث بسلسلة المفاتيح .

- مصادفة سعيدة .. منذ مدة أود رؤيتك .

- وها أنذا .

fb/mashro3pdf

– ماهى أخبارك ، ماذا تفعلين ؟

الشاطئ يموج بأضواء ترتعش على صفحة المياه والمصابيح محاطة بأغلفة شفافة متفاوتة الأحجام تبدو كفقاعات ضوئية ، يمر مركب بين حين وآخر متهاديا فوق صفحة المياه .. مطاعم عائمة ، كازينوهات ، فنادق ، أبراج فارهة .

يتراجع قليلا فى مقعده وهو ينظر إلى ساعته فى ضوء المصباح المعلق خلف رأسه ، أسأله عما إذا كان مرتبطا بموعد ، يجذب سوار قميصه ويضغط معصمه قائلا : لا ، ثم يستطرد : بحكم التعود .

– أفهم أن الوقت محسوب بدقة ؟

– يعنى .

– احك لى عن سر هذه الأبهة .

يتوقف قليلا ثم يقول : مازلت سليطة .

– هل عثرت على الخاتم ؟

يضحك قائلا : قلت إنك ستطلبين من جنى الخاتم أن يبنى لك منزلا قبته مطعمة بالقواقع والأصداف .

– أمازلت تذكر .

– بالطبع .

يمتد بصرى بطول النيل وهو يسرى لامعا ناشرا ضفتيه ، تستلقى المدينة عليهما مزدحمة بالمدائن ومثقله بالتواريخ ، يزحف فى سهولها ويرتقى مرتفعاتها وينساب حياة فى الأزقة والدروب والشوارع ، تتلون بمياهه ويتضمخ بنكهتها وتعود إليه مياهه فوارة يحملها إلى البحر فينداح أمامها كراً وفراً حتى تمتزج بمياهه ، ينسرب بحر النيل تحت أديمها .

هل كان النيل يختلس المسافة ، وهل كانت الشطآن وهماً .

fb/mashro3pdf

- سرحت قليلا .

- هاه .. نعم .

أنظر إلى تلك الأبنية العالية التى تمسك بتلابيبه وتوارى المدينة عنه .. تسطو عليه وتعتقله ، وهى تقف غامزة فى التماعها .

- أغمضى عينيك وقولى ما تفكرين فيه فورا .

- اللعبة القديمة .

أشعر ببرودة فأنكمش فى مقعدى ، يقترح أن نتبادل أماكننا .

- أتذكرين عندما كنا نقطع الشوارع كل يوم .

- ونعيد رسم الخرائط من جديد .

- والتصميمات والبيوت والأحياء .

- والاكتشافات اليومية ..

- وأحاديث الظهيرة ..

- .....

- كم أفتقد كل ذلك .. أيام جميلة ، رغم كل شىء .

يصمت قليلا وهو ينقر المنضدة بأصابعه : والأصدقاء ، ألا ترين منهم أحدا ؟

- أرى بعضهم أحيانا .

- كم أود أن نلتقى جميعاً كما كنا .

- أحقاً ؟

- فكرت فى ذلك مرات عديدة ، لكن دوامة العمل تأخذنى ، الظروف صعبة .

- لا يبدو ذلك .

- صعب أن أشرح لك ذلك ، لكنها فعلا كذلك .

fb/mashro3pdf

يرنو بعينيه بعيدا ، وتمر لحظات صمت ، يلتفت إلى قائلا : أفتقدك فعلا .

تزحف يده على المنضدة ، تلامس أصابعه يدى ، تلتف حولها ينتقل إلى مقعد بجوارى .

– ألا تدركين ذلك ؟

تلتف يده حول كتفى ، أغمض عينى ، أنسى وأتناسى كل شىء ، سوى صفحة لامعة تترقرق بالأضواء أمام عينى .

– بصرف النظر ، لنعط أنفسنا فرصة ثانية .

أتباعد قليلا وهو ينظر الى ، أرفع رأسى ، ونظراته مرسلة الىَ .

– فلنحاول.

أنظر جانبا ، فيقول : فكرى.

أهز رأسى ، يحتضن يدى بكفيه، تتسع ابتسامته .

– نستعيد كل شىء .

– لم تعد الأشياء كما هى.

ينظر الى متسائلا تتدافع الصور أمام عينى وأنا أحاول أن أنأى بها وعنها ، أتراجع، ألقى برأسى على المقعد.

– وخرائطك القديمة!

– لم تعد كما هى.

ينظر مندهشا ، أقول : ولا نحن أيضا.

– بل هى أميز ما فيك، حديثك الدائم عنها، أشواقك إليها، صدقينى لو قلت إن ذلك ما أفتقده.

– غريبة! لم تكن تقول ذلك وقتها، الحديث عنها كان يثير ضجرك وتأففك، غيرت رأيك؟

fb/mashro3pdf

- أنت لم تفهميني جيداً .

- ولا أفهمك الآن .

- الظروف كانت مختلفة، لا أدرى ما أقول، لم يكن هناك هدف محدد أو فرصة حقيقية، لم تكن الأمور واضحة ، ربما..

- وهل وضحت الآن ؟

- بشكل ما، لكن لا استطيع أن أقول تماما ، الخبرة فى الحياة والعمل والممارسة تجعل الأشياء تبدو بصورة أخرى .

- من خلال العمل فى المؤسسة ؟

- بالطبع ، أتاح لى العمل فى المؤسسة اكتساب خبرات كثيرة ، نظرتهم للأمور مختلفة عنا ، وهم يهتمون مثلا بالأحياء الشعبية القديمة والمناطق الأثرية فى أماكن كثيرة من خلال فروع المؤسسة فى العديد من الدول ، ولديهم إمكانيات غير عادية .. نظم معلومات غاية فى الدقة ، أحدث وسائل الاتصال ، خبرات كثيرة يمكن اكتسابها ، ينظرون للأمام .. إلى بعيد ، حتى عندما يتناولون الماضى .

- ينظرون إلى اهدافهم البعيدة ، لكن نحن إلى ماذا ننظر هل حددنا ما نريد نحن أم توقفنا عند ما يريدون .

- بالطبع لهم اهدافهم ، لكن الفيصل هنا ماذا نريده منهم، وما الذى نود ان نحققه من خلالهم ؟

تتجمع صور ذات أبعاد مختلفة، تتقارب ، تتداخل ، تدور، أدير وجهى بعيدا.

يسألنى: لماذا؟.. لماذا لا نواصل الخطوات التى بدأنا منها؟

- أفكر بمراجعة ما قمنا به.

fb/mashro3pdf

- أختلف معك فى هذا.

- أعرف .

- الأمور تحتمل وجهات نظر متعددة.

- عرفت.

يشـــير للجرسون وهو يقول : فكرى فى الأمر جيدا الظروف مختلفة الآن.

يدفع بكارت قائلا: ســـأنتظر تليفونا منك قريبا، فأنت ، بحـــق ، لك وحشة.

fb/mashro3pdf

(١٩)

جدران مزدحمة بالصور، تحف وتماثيل صغيرة ولعب من مختلف الأحجام والأشكال متناثرة فى كل مكان، على الأرفف والمناضد وبعض قطع الأثاث، تغلب عليها ألوان فضية مع خليط من ألوان أخرى، ستائر فى كل مكان تفصل بين أجزاء الشقة ، وأثاث ذو قطع كبيرة، يترك فراغات قليلة بين أجزائه.

ظلت عزة تسألنى عن رأيى فى الأثاث وبعض اللمسات التى يمكن أن تضيفها إلى الشقة، ثم عملت ما ارتأته هى، تذكرنى بتلك الاشياء فى شقتى التى كانت تبدى إعجابها بها، وتقول إنها جميلة فعلا ومريحة، تذكرنى بها مرارا وتقول إننى تركت كل شىء وعدت الى العباسية، مع أنها ظلت تنتظر الوقت الذى تترك فيه العباسية لتنتقل بعيداً عنها.

- مازلت تحبينه.

تقول مؤكدة ، ثم تضيف: لا أتصور أن كل شىء بينكما انتهى هكذا وبلا سبب .

- أصبحنا مختلفين.

- بدأتما فى ظروف صعبة مثلما بدأنا، وعندما أصبحتما فى وضع أفضل تركته، وتركت بيتك وكل شىء.

- ربما كان الأمر أكثر احتمالا فى البداية ، أما الآن فالمسألة تباعدت.

fb/mashro3pdf

- كل شيء يتغير ونحن أيضا تغيرنا، والخلاف وارد دائما، كنت أظنكما أكثر قدرة على التكيف مع هذا التغيير، وأن الحب سيتغلب على أية خلافات .

تضحك قائلة: كانت أياما جميلة لكنها لم تدم ، لم يكن أى منا يملك شيئا، رغم ذلك كنا نستمتع بوقتنا وعلاقتنا بالأصدقاء، لم نكن نفترق، الآن أصبحنا فى ظروف أفضل ماديا، لكن كل منا مشغول ومهموم ولا نكاد نلتقى معا.

تتحرك طوال الوقت بالمنزل وتتبادل حديثا متقطعا ما بين أداء الاعمال المنزلية، وتلبية مطالب الأطفال الذين لا يتوقف صياحهم وهى تجيب مطالبهم بآلية أثناء الحديث وتنهرهم بين حين وآخر .

يقول عادل: أول إجازة نمضيها فى بيتنا ، الأيام طارت سريعا.

تذكره عزة ببعض المشاوير التى عليهم ا أن يقوما بها قبل سفرهما، أسألها: ألن تأتى معى الى ندوة تهانى كما قلت؟

تقول: لا أعتقد ، فالوقت ضيق كما ترين، وعموما بلغيها سلامى هى ومصطفى ومديحة ، كلهم.

- مصطفى سيسافر الى ألمانيا.

يقول عادل: أعرف.. لا أدرى ماذا جرى له، أشياء لا أستطيع فهمها .

تقول عزة: للأسف!

أسألها عما جرى ، يقول عادل: تعرفين أننى أود أن أعود وأستقر، وأبدأ مشروعا ما ، فكرت أن أشارك معه فى المكتب، عندما عرضت عليه الأمر بدا غير متحمس بحجة أن هناك خلافا بينه وبين شريكه ، عندما ألححت عليه بعض الشيء قال سأعرفك به وكلمه بنفسك حاولت أن أفهم السبب قال إنه يفكر فى ترك المكتب، كما يفكر أن يقوم بعمل مستقل .

fb/mashro3pdf

وجدت الفكرة مناسبة أكثر وعرضت عليه أن أبدأ معه، قال كلاما غير محدد عن أشياء وأفكار جديدة، لكن أحسست من كلامه أنه غير مرحب ويقول ذلك بشكل مراوغ، فى الحقيقة صدمنى بكلامه وسلوكه، رغم أنه عرف خالد بشريكه طبعا لأن خالد لديه إمكانيات كبيرة.

- هو فعلا يفكر بترك المكتب لزيادة الخلاف مع شريكه .

- لكنهما يعملان بصورة جيدة فى السوق وشاركا فى بعض المشروعات التى حققت لهما دخلا كبيرا.

- دبت الخلافات بينهما وتزايدت منذ فترة، وهو يرى الاستقرار بالمكتب مستحيلا وقد أجل ذلك لحين عودته.

- لكنه هو الذى بذل جهدا كبيرا فى إنجاح العمل، وهو قادر على أن يحقق نجاحا بدرجة أكبر إذا استقل لأن العمل توسع فعلا.

تتدخل عزة قائلة: بالتأكيد لأن حياتهما وظروفهما تغيرت، أصبحا فى وضع أفضل بكثير.

- المشكلة أنه غير راض عن اسلوب العمل ويود تحقيق أشياء أخرى وأفكار جديدة ، ويعتبرها مغامرة تحتمل النجاح والفشل، ولا يود أن يعرضك لها.

تقول: يترك ما حققه من نجاح ليبحث عن مغامرة خاسرة.

يهز عادل رأسه، يبدو غير مقتنع بما أقول رغم صدق نوايای - على حد قوله - لأننى صدقت كلام مصطفى ، الذى يبدو غير منطقى بالنسبة له وعزة تؤكد ذلك، تستشهد أن تهانى لن تتركه يقدم على تجربة تحتمل الفشل، لأنهما لن يضحيا بما وصلا إليه، فهما لابد يتحسبان كل شىء.

مجموعة كبيرة من الحاضرين، ووجوه تتوافد فرادى وجماعات ، أعمار مختلفة وأزياء متنوعة، وأشكال متباينة، وبعض الرجال، أوراق يتصفحها البعض ، وتعريف بالمتحدثين .

fb/mashro3pdf

تشير تهانى باتجاه القاعة.

قالت إن الندوة شاركت فيها بعض الجمعيات النسائية والشخصيات العامة، وإن مديحة ضمن المتحدثين.

مديحة يبدو عليها الكبر رغم ملابسها المتأنقة واهتمامها بنفسها ، لم أرها منذ سنوات وقبل أن تنفصل عن عصام.

تقول لى معاتبة: لم تتصلى حتى..

- أبدا.. الظروف.. لكننى أتابع أخبارك.

تشير الى ابنتها التى لا أكاد أتعرف عليها، كبرت فعلا وأصبحت فتاة ناضجة، تقول مديحة: التحقت بالجامعة.

أسألها عن أخبارها ، تقول انها تعيش حياتها الآن افضل لأن ابنتها كبرت وهى متفرغة لنشاطها ، وتؤكد على أن أزورها قريبا.

تبدأ تهانى بتقديم المتحدثين، من بينهم سمير حنا المحامى الذى تعرفت به فى منزلهما، وتحدث عن ضرورة تغيير بعض التشريعات الخاصة بالمرأة وإضافة بنود تشريعية جديدة تكفل المزيد من الضمانات لها، ورغم تنوع المتحدثات اللاتى يشغل بعضهن مناصب مرموقة فالحديث يبدو معادا مكررا عن قهر الرجل وقهر المجتمع للمرأة والعادات والتقاليد التى تقف عائقاً دون انطلاقها ، وعما وصلت إليه الحركات النسائية فى الخارج.

عندما تحدثت مديحة اندفعت بحماس فى الحديث عن القهر النفسى والأدبى.. للمرأة باعتباره أقوى أشكال القهر، أخذت تذكر أثناء الحديث تفصيلات لوقائع تقول إنها تعرفها أو رأتها عن قرب، وطالبت بإعادة صياغة الواقع من وجهة نظر المرأة للحد من هذا القهر.

fb/mashro3pdf

أخذت تهاني تعقب على المتحدثين والمتحدثات مؤكدة على دور النساء والرجال معا فى شتى المجالات فى التوعية بحقوق المرأة، وبعد انتهاء الندوة أخذت كل مجموعة تعلق جانبا، ومديحة تؤكد أن لا أحد يدرى مدى معاناة القهر النفسى سوى من عاناه من النساء.

يقول عصام: لم يعد لدى أى منا ما يقدمه للآخر.

يستطرد موضحا: مديحة إنسانة طيبة حقيقة، لكن أصبحت لا تطاق ، كل صغيرة وكبيرة فى حياتنا كانت تستغرق نقاشا طويلا، أصبحنا نتحدث كثيرا عن حياتنا وما ينبغى أن تكون عليه، بدرجة لم يعد هناك وقت لنعيشها.

- تحديتما أشياء كثيرة، وكان كل منكما متمسكا بالآخر.

- الأمر بدا هكذا بالنسبة للآخرين، أما بالنسبة لنا فلم يكن هناك معنى لما اعتبره البعض تحديا للظروف ، الأمر كان أكثر بساطة، كل منا مشدود للآخر، ومندفع تجاهه ، ومتقبل له كما هو.

- ما الذى حل بكما؟

يضحك قائلا: الذى حل بنا جميعا.

أضحك معه، يقول: لم تكن هناك أسباب محددة، لم نعد نستطيع التفاهم، كل منا علق أسباب ما يعانى منه على الآخر، وهذا صحيح نسبيا، ربما كانت تلك مرحلة فى حياتنا، عندما تعرفت مديحة بنا ارتبطت بالشلة كلها، ربما كانت فترة أحبت أن تعيشها بعد انفصالها عن زوجها الأول، فقد كانا مختلفين وعارض عملها بالمسرح، كانت تود أن تعيش كما قالت سنوات ضاعت من عمرها، وعندما التقت بنا اندمجت معنا، لكن الأمر لم يستمر، كانت تتهمنى أننى أصبحت لا مباليا وسلبيا ، وأصبحت مناقشاتنا مجهدة.

fb/mashro3pdf

يغالبه الضحك قائلا: أتعرفين ؟ عندما فكرت فى الزواج بعد ذلك ، كنت أبحث عن زوجة لا تناقش ولا تتكلم ، قد لا تصدقين ، عندما التقيت بميرفت كانت بصحبة شقيقها وزوجها وهو صديقى ومعنا أصدقاء آخرين فى المسرح ، كانت حديثة التخرج من الجامعة وعندما أطفئت أنوار المسرح وأظلمت القاعة، سمعت دقات المسرح وصرخت قائلة ما هذا؟ أثارت ضحكنا وظللنا نعلق على الأمر، عندما رأيتها بعد ذلك وجدت أنها بسيطة وعلى سجيتها، وجدت أن الزواج منها يريح الرأس من المناقشات، كنت أبحث عن نقيض لمديحة.

- بدا عليك الاستقرار.. والإحساس بالمسئولية.

- ربما!

يبدو عليه بعض التوتر ، يقول : مديحة كانت لها حياتها المنظمة قبل ارتباطها بى ، وبدا ذلك مريحاً لى فى البداية ، إذ لم تكن الأشياء محددة بالنسبة لى ، مع الوقت شعرت أن ليس لى أى دور ، فكل شىء له مكانه المحدد فى حياتها دون قصد أحيانا ، وحتى لا أصطدم معها كنت أكف عن أى شىء فكانت تتهمنى بالسلبية واللامبالاة ، عندما تزوجت ميرفت لا أخفى عليك أننى كنت قلقاً من الإحساس بالمسئولية ، خبراتها فى الحياة محدودة ، تعتمد على حتى فى أبسط القرارات .. أضيق بها أحيانا ، وبنفسى ، لكننى أشفق عليها .. أحيانا أفتقد المشاركة ، تبدو كالمغلوبة على أمرها فأشعر بالذنب ، أحاول أن أفهمها ، تستوعب أحيانا وتضيق بدورها أحيانا .. والحياة تسير ، لكن الأمر المختلف هو إحساسى بالمسئولية ، وهذا ما لم أستطعه مع مديحة ، لكنه عبء .

اسأله : أمازلت تحمل مشاعر حب لمديحة ؟

- مشاعر عادية ، هى تغيرت وأنا أيضا ، وكل منا مضى فى طريقه ،

fb/mashro3pdf

صدقيني ما افتقدته فعلا وكان صعبا على هو ابنتها كنت أشعر أنها ابنتى فعلا ، والبنت كانت متعلقة بى ، كانت مديحة تخشى أن تتعلم منى على - حد قولها - الاستهتار واللامبالاة .

يصمت ، ثم يهز رأسه قائلا كمن يحدث نفسه : ميرفت معقولة .. ربما أفضل من غيرها .

من أين بدأت الخلافات على وجه التحديد ؟ وكيف ؟

فى شقتنا القديمة ، نعلم أن الجدران ستتسع حولنا ، سيصبح هناك بيتا كما نريد دائماً ، تتضح صورته وتتحدد ملامحه ويظل حلما قائما ، حتى انتقلنا إلى شقة واسعة ، كانت محطة انتظار فضفاضة ضاع البيت بين جدرانها ، وظلت صورته تطاردنى ، تذكرنى فى كل لحظة أننى فى مكان موقوت ، يوسف كان يتحدث عن بيت آخر لا أستطيع تخيله ، لكن جميع أصدقائنا لا يذكرون رغم ذلك إلا البيت القديم .

- أضيق وأوسع مكان .

يقول عصام وهو يحاول أن يجد مكاناً للجلوس ، أنظر إلى الحجرة التى امتلأت بهم ، وهم متزاحمون على الأرض والأريكة والكراسى ، أفتح شباكا صغيرا يطل على منور داخلى مقابل نافذة تطل على الشارع كى يتسرب الدخان الذى امتلأت به الحجرة .

يلوح عادل بورقة متهللا : أخيرا حصلت على عقد عمل بالسعودية ، وسأبدأ استعدادات السفر .

- أهكذا سريعا .

تقول عزة : سألحق به بمجرد أن يعد مسكنا ، أخيرا سيصبح لنا بيت .

- مصطفى تأخر .

- وخالد .

fb/mashro3pdf

- آه مسكين .. خرج من السجن ليجد خطاب ليلى بطلب الطلاق .

- لكنه توقع ذلك بعد زيارته لها العام الماضى .

- كان الأمل يراوده أن يتوصلا إلى حل .

- ألم يكن من الأليق حتى أن تنتظر قليلا .

- عليه أن ينساها تماما ، فهى لا تستحق .

- ما زال يحبها .

يأتى مصطفى ، يستقبله الجميع بفرحة عارمة وشوق ، يسأله يوسف عما فعل .

- استرددت بعض الأوراق لكن معظم أوراق البحث ضمن المضبوطات .

- وثائق اتصال بجهات أجنبية .

- مجهود لا يمكن تعويضه بسهولة .

يجلس وسطنا وأنظارنا عليه ، يقول : ما هى أخباركم أنتم ؟

- عادل حصل على عقد عمل بالسعودية وستلحق به عزة ..

تقول عزة : بمجرد أن نوفر ثمن الشقة سنعود فورا حتى لو نمنا فيها على البلاط .

تلحق عزة بى فى المطبخ وأنا أقوم بإعداد الشاى وبعض الحلوى تقول : ضقنا بالإقامة فى بيت أسرته ، والحال فى بيتنا ليس أفضل ، أصبحنا نمضى معظم الوقت خارج البيت .

تشير إلى بطنها قائلة : وهناك طفل قادم .

يتناولون الشاى ، تعلو قفشاتهم فى صخب عما حدث لمصطفى وخالد ، يقول مصطفى : لم نجتمع هكذا منذ فترة طويلة .

fb/mashro3pdf

يقول عادل : سيوحشنا هذا البيت وقعدتنا فيه .

يرد يوسف قائلا : لم أتخيل أيام التلمذة أننى سأتزوج فى نفس المكان .

يقترحون أن نخرج معا ونجلس على النيل ، ننتظر خالد ، يقول يوسف إنه سيذهب ليصطحبه ويلحق بنا .

نعبر الكوبرى ونهبط إلى منحدر حجرى ونجلس على قطع من الأحجار أمام النيل بسمرته اللامعة المسترسلة ، خالد يشارك قليلا فى الحديث ويبدو ساهما ، تقول تهانى فجأة : أتعرفون من قابلت من يومين : ممدوح عبدالله .

– آه .. كلية الآداب .. كنتما أصدقاء .

– تغير ، لم أتعرف عليه فى البداية ، مددت يدى لأصافحه ، رفض ثم أخرج ورقة وأعطاها لى وطلب أن أقرأها ، كان يتكلم ووجهه للأرض ، كانت الورقة دعوة للحجاب ، لكن ما صدمنى فعلا بعد كل تلك الصداقة أن تختصر كل معرفتنا فى أننى أنثى يجب أن يتحاشاها .

– لم يكن يبدو عليه ذلك خلال سنوات الجامعة .

– كان ضمن الشلة ، كان أقربهم لى ، وشاركنا معا فى أبحاث كثيرة بعد تخرجنا ، وكنا نذهب ونأتى معا .

يقول عادل لأحمد : تصور من أيضا .. إبراهيم شاكر .

يقول أحمد : قل كلاما غير ذلك .

يقول لنا : كان معنا فى الوحدة وكان مهرجا كبيرا ، وجدته يرفل فى جلباب أبيض وطاقية ، دعانى لصلاة العشاء فى مسجد جديد بجوار بيتهم ، أكد على أن أحضر لسماع الدرس الأسبوعى .

fb/mashro3pdf

كان أحمد زميلا لعادل ، توثقت الصلة بينهما فى فترة التجنيد وأصبح صديقا لنا أيضا .

يقول عادل : كان لديه مخزون دائم لكل ما نحتاجه ، شاى ، سكر ، بطاطين ، كانت المهمات تختفى وتظهر كل مرة مع شخص مختلف ، لم يكن يرد طلبا لأحد .

– وفاروق الشافعى .

– مررت عليه آخر مرة منذ شهرين ، دخنت شيشة معه ، فتح سوبر ماركت بمشاركة أحد أقاربه .

– ما علاقة ذلك بدراسة الفلسفة ؟ كان قارئا جيدا .

– قال كلها فلسفة .. وكل واحد يتفلسف كما يريد .

– ومجدى جرجس .. وحسين عبدالفتاح .

– آه .. مجدى سيعود قريبا من إيطاليا .

ينظر كل منهما للآخر .

كانا قد حكيا لنا عن لحظة استشهاد حسين ، حين فاجأهما القصف معا ، ارتميا فى حفرة متعانقين ، وبعد انتهاء الغارة كانت الدماء تغطيهما معا ، وجد مجدى نفسه عاجزا عن الحراك حتى جاء زملاؤهما ونقلوهما إلى الخندق وكان يبدو فى طور احتضار ، أفاق على من حوله يصرخون أنه حى ، ولم تكن به سوى خدوش بسيطة ، عرف ساعتها باستشهاد حسين ، وظل فى مكانه كما هو عاجزا لفترة طويلة عن الحركة والكلام .

fb/mashro3pdf

صمت يخيم على الجميع ، ينهض خالد واقفا ، يقترب من المياه ، يلحق به يوسف ، ننظر نحوه بقلق .

الأضواء تنبعث من الشاطئ الآخر ، تتناثر شظايا على صفحة المياه ، تتطاير على الوجوه فى ومضات خاطفة والتفاتات سريعة ، هياكل منحوتة على قطع حجرية تخيم عليها العتمة ، تشكيل لم يتحدد بعد .

يقول عصام فجأة قاطعا الصمت : أقول لكم خبرا جديدا ؟

نلتفت جميعا نحوه .

- سأتزوج .

- من ؟

- مديحة .

- غير معقول !

يقول بضيق وحسم : ولم لا ؟

- هل فكرت فى الأمر جيدا ؟

- أقول إننا قررنا الزواج فعلا .

fb/mashro3pdf

(٢٠)

لم أعرف بعد ماذا أكتب أو ماذا أفعل على وجه التحديد ، أوراق متناثرة تحمل كل منها بداية لفكرة ما ، البيوت القديمة ، اختيار المسكن ، الإحلال فى الأحياء القديمة ، تطويرها ، بيوت جديدة بمواصفات ما ، مصير السكان ، الحراك السكانى ، الهوية ، ومحو الهوية ، أية هوية ، البيوت ، الناس ، المدينة ، التاريخ ، أية تواريخ .

ألملم الأوراق ثم أدسها بين الملفات المتزاحمة بنظام على الأرفف ، أنظر نحوها ، كلها تبدو ذات أهمية وأنا أطالعها حتى أننى نسيت تلك التى قررت أنها الأهم كى أبدأ بها ، كلها تبدو متشابهة على الأرفف ، هل أنسى بعضها بعد فترة ، أو أتذكرها حسبما تستدعى الذاكرة ؟

فأر أبيض ، أمسك به وأمرره عليها ، يجذب إحداها بأسنانه أثناء مروره السريع ، أبدأ القراءة بالأولوية حسب القسمة والنصيب ، بعد أن أكون قد أضفت إليها ملفات أخرى ، وبعد أن تكون جدران الحجرة كلها قد ازدحمت بالأرفف .

لماذا أحتفظ بها هكذا ؟ .. أعيد رسم الخرائط حتى تصبح مرايا ، وما الذى أبحث عنه بالضبط فى الخرائط القديمة ؟

أنظر إلى الجدران المحيطة بى من كل جانب ، تحجب عنى صورة بيت أهفو إليه ، لا أستطيع أن أنفذ منها إليه .. أم لأنه لم يوجد بعد حتى الآن .

fb/mashro3pdf

فاجأنى مصطفى قبل أن يسافر بقرار فض الشركة بالمكتب ، قال إنه مستريح لذلك رغم كل شئ .

تشيح تهانى بوجهها وتلزم الصمت .

يقول : فى ذهنى أشياء كثيرة أود أن أفعلها ، فكروا معى ، وعندما أعود سنبدأ معا ، لكن لابد أولا أن نحصل على مكان يمكن أن نبدأ منه .

أفكر فيما ينبغى أن نعمله ، تتزاحم الأفكار ، أن نبدأ ببناء بيت كما نريد أن يكون ، كيف ؟

أسمع صوت عربة تتوقف ، أتجه إلى الباب وأفتحه فى اللحظة التى يرن فيها الجرس ، أقدم لها كوب شاى ، وأعد كوبا آخر .

تقول ليلى : أخيرا وجدتك !

- لم أعرف كيف أتصل بك ؟

- لم يكن ذلك ممكنا ، أتحرك طوال الوقت ، أبيت أحيانا عند عمتى أو فى فندق .

- وبيتكم ؟

- مهجور منذ فترة ، أصبح كئيبا ، لا أستطيع الإقامة فيه ، وسأفكر فى أمره فيما بعد ، أما الآن فقد حصلت على شقة أقوم بإعدادها .. قولى لى ، ما الذى يشغلك حتى عثرت عليك بصعوبة .

أحكى لها بشكل سريع عن الأحياء القديمة وما ينتابها من تغيرات ومشاهداتى الأخيرة .

تعلق قائلة : وماذا أنت فاعلة ؟

- أحاول كتابة ذلك لأخلص إلى تصور عام .

fb/mashro3pdf

– إلى من ستقدمين ذلك ؟ وأين ؟

لا أعرف بم أجيب ، تقول : المفروض أن يوجه ذلك إلى جهة مؤثرة فى القرار .

تلقى برأيها على الفور ، ينتابنى ضحك ، تواصل بجدية : ربما تكون لك وجهة نظر أخرى .

– أتعرفين أننى أغبطك ؟

– لماذا ؟

– الأمور أكثر بساطة بالنسبة لك ، سرعان ما يستغرقك الجديد .

تقول : لا أدرى ، أحيانا أفتقد التواصل .. التراكم ، أنت تستغرقك الأشياء القديمة بصورة مدهشة .

– مدهشة !

– نعم ، تخيلى ؟ أفتقد ذلك أحيانا .

تدفع برأسها على مسند المقعد وتجلس باسترخاء ، أسألها عن المشروع ، تقول : كما ترين مجهدة للغاية .. على وشك الانتهاء من بناء بيت كنموذج ، لا أعرف كيف أصف لك .

يعلو صوتها وتعتدل فى جلستها : تجربة مهمة ومثيرة ، عالم جديد .

تنطلق فى الحديث : كنت متخوفة فى البداية وقبلت الفكرة بينى وبين نفسى كتحد ، خشيت أن تكون هناك مقاومة من البدو مع صعوبة الإقامة فى مجتمع يعتبر جديدا بالنسبة لى ، والإقامة فيه مغامرة بكل المعانى ، ليست لدى أى فكرة عنهم ، وعن حياتهم ، كنت حذرة فى البداية وبذلت جهدا

fb/mashro3pdf

لأتفـــهم عاداتهم وتقاليدهم ، أدخل البيوت وأتعرف على النساء ، أقيم علاقات معهن ، خاصة كبيرات السن ، تعلمت منهن أشياء كثيرة ، والأعمال التى يمارسنها داخل البيت وتدبير أمور الأسرة .

تتمدد الخارطة تحت قدميها فتتحرك فوقها فى كل الاتجاهات تمسك بعصا تشير إلى مكان ما ، ولا أكاد ألتفت إليه حتى تسارع إلى غيره .

– أشياء كثيرة تغيرت ، لكنهم مازالوا يحافظون على تقاليدهم ، لم يعد يمارس الرعى سـوى القـليل ، كذلك الزراعات البدوية التقليدية تطـورت وبدأت زراعة جـديدة وفلاحـة الأرض إلى جانب التجارة والمشـروعات المختلفة التى يقومون بها .

تغير نمط المسكن مع تغير الحياة ، كبار القبيلة يشيدون قصورا وفيلات ، جزء منها يمثل المنزل التقليدى ، ينصبون أحيانا الخيمة البدوية فى حديقة البيت أو الفناء ، يستقبل الرجال فيها ضيوفهم ويعقدون مجالسهم .

– أتعنين أنهم بدأوا فعلا فى التسكين والاستقرار ، ما هو الدور الذى تقدمينه فى هذا الإطار ؟

– مازال الاستقرار يحتاج الكثير مع تغيير الأنشطة ، خاصة أن المنطقة – سيناء – أصبحت مركزا لجذب السكان من خارجها ، أحاول دراسة هذا الواقع لصياغته بشكل يخدم ذلك كى يستطيعوا هم أيضا استيعاب القادمين ، واجهتنى مثلا مشكلة اختيار الموقع ، وكان لابد أن يتم ذلك بالاتفاق معهم ، وتلك كانت مشكلة ، لم أجد حلا لها إلا من خلال المؤسسة التى أجرت اتصالا مع المسئولين لإيجاد حل عن طريقهم ، واستغرق ذلك وقتا ، واتفقوا فى النهاية على أن يكون بعيدا عن تجمعاتهم لعدم تقبلهم الغرباء وسطهم ، فهم

fb/mashro3pdf

يسيطرون على معظم الأراضى وكل قبيلة لها منطقة تقيم بها بيوتها ، فى البداية فكرت بإقامة البيت بنفس الطريقة التى يقيمون بها بيوتهم ، لكننى فى الوقت نفسه كنت أود أن أجرب استخدام أشياء حديثة وجديدة لها طابع مميز يمكن أن تناسب الحياة هناك ، وقلت أمزج بين الاثنين ، وبعد الانتهاء سأنتقل للإقامة فى البيت ، وسيتم تقييمه من المؤسسة ليصبح نواة لقرية أو تجمع سكانى ، أتمنى أن تأتى لتريه بنفسك .

– وأين كنت تقيمين هناك خلال الفترة الماضية ؟

– مع القبيلة ، أذهب كل يوم إلى الموقع بعربة «لاند» لدينا ، لكننى أحيانا أتركها لحاجة العمل إليها ويقوم بعض أفراد القبيلة بتوصيلى فى عودتهم من مشاويرهم ، لأنه من الصعب أن أقطع مسافة أربعين كيلومتر وحدى .

– واضح أن الحياة استغرقتك هناك .

– أوه .. فوق ما تتصورين ، حياة مثيرة ، مجتمع جديد وأناس جدد .

– ذلك يعنى أنك ستمكثين وقتا طويلا ، وماذا بشأن الزواج من ماك ؟

– لا أدرى .

تتوقف وتشعل سيجارة : ماك إنسان رائع أحمل له مشاعر طيبة ، ومتفاهمان، لكننى منذ جئت أشعر أننا نتباعد رغما عنا ، منذ بدأت العمل فى المشروع وأنا أعيش عالما جديدا ، أكتشف فيه كل يوم أشياء وأكتسب خبرات وأعيش مواقف ومشاهد جديدة لا يشاركنى هو فيها ، وهى فترة ليست قصيرة ، بل ستمتد طويلا لا أدرى إلى متى ، أنا نفسى لا أعرف ماذا سأقرر بعدها لأن ذلك يتوقف على ما سأنتهى إليه ، وهو أيضا حياته تمضى بعيدا عنى ، ولا

fb/mashro3pdf

يستطيع أن يترك عمله وارتباطاته ويأتى ليعيش معى هنا ، الناس الذين أعيش وسطهم يشاركوننى أكثر منه ويعيشون معى نفس اللحظات والمواقف بعيدا عنه ، ولا أدرى بعد الانتهاء من المشروع إن كنت سأعود أم أبقى .

أقول ضاحكة : يعنى ممكن هذه المشاركة تجعلك تقعين فى حب أحدهم بعيدا عنه .

تضحك بدورها قائلة : لا شىء بمستبعد .

– أم حدث بالفعل ؟ إياك أن تقولى إنك تعيشين قصة حب مع أحد فرسان الصحراء !

– والله لا أدرى .

– الموضوع جد إذن !

– أعرف ما يدور بذهنك ، لكن لا أعرف كيف حدث هذا بالضبط ، وجدت نفسى وسليم كل منا مشدود للآخر بقوة ، وقف بجوارى وساعدنى كثيرا منذ بدأ العمل ، وأحيانا كان يقوم بتوصيلى ، متزوج من ابنة عمه شيخ القبيلة ، أتردد على أسرته يعرفوننى ، ويعتبروننى فردا منهم ، ساعدنى فى إحضار العمال وفى أشياء كثيرة ، أحيانا عندما يكون مشغولا يوصى بعض شباب القبيلة بتوصيلى ومساعدتى إذا احتاج الأمر .

آه .. كان هناك حفل عرس ودعيت لحضوره ، جو جميل وطقوس غريبة ، رقصت مع الفتيات فى بيت أهل العروس وهى ابنة عم آخر له، وفى المساء جلست مع النساء نرقب غناء الرجال ورقصهم ، كان يغنى بصوت جميل ثم دخل سجالا فى الغناء مع البعض استعرضوا فيه غناء من التراث البدوى والشعر النبطى، لم أكن أعرف اللهجة والكلمات ، لكنه غناء جميل ، قلت له بعد ذلك إننى أود أن أسجلها فأخذ يشرح لى معانيها ويغنى مقاطع منها أثناء توصيلى ، ثم قدم لى

fb/mashro3pdf

ذات مرة ورقة بها بعض الأشعار قال إنها من تأليفه وكتبها خصيصا لى ، وكان يصرح فيها بمشاعره ، ووجدتنى أبادله نفس المشاعر .

– وماذا لو عرفوا فى القبيلة بذلك ؟

تهز رأسها : أثار ذلك مخاوفى فى البداية ، خاصة أننى كما قلت أتردد عليهم أعيش بينهم ، وجدته يتصرف بشكل عادى حتى أننى بدأت أشك أن أحدا يعرف ذلك ، أدركت فيما بعد أن الكثيرين يعرفون ، خاصة أصدقاؤه ، وهو له مكانته فى القبيلة والجميع يكن له احتراما ، أكمل تعليمه فى الجامعة ولديه ذكاء فطرى بدوى ، يعيش عاداتهم وتقاليدهم رغم أنه سافر كثيرا للخارج ويدير الكثير من الأعمال ويعقد الصفقات الخاصة بهم ويعتمدون عليه فى أمور كثيرة ، فله خبرات واسعة ، وهم قبيلة كبيرة ممتدة ، لهم بيوت فى أماكن عديدة ومناطق مختلفة .

لا تتخيلى وهو يأتى لاصطحابى فى آخر اليوم .. تمر بيننا أحيانا لحظات صمت طويلة مليئة ، ذات مرة كنت سارحة انتبهت له وهو يشهر الطبنجة ، جمد الدم فى عروقى وصرخت وهو يدفعنى للوراء بذراعه فجأة ، انطلقت رصاصات ، وانطلق معها عواء ذئب ، وظل يهدىء من روعى لكن نظراته كانت مليئة بالغضب حتى أننى خشيته ، رغم أنه لم يتكلم ، استدار إلى وتحول الغضب إلى عتاب ، كان شوق يجرفنا فى تلك اللحظة .

تسوى شعرها بيديها ، تقول : المشكلة أن ماك سيأتى بعد شهر .

– وماذا ستفعلين ؟

تنظر متسائلة بدورها ثم تقول : سأدع الأمور تمضى كما هى .. من يعلم ؟

نعم ، من يعلم ؟ تتجمع محتويات الحجرة أمام عينى ، المكتبة ، الأرفف ، الملفات ، الأباجورة .. الكتب ، قميص النوم المعلق على المشجب والمنبه المضبوط

fb/mashro3pdf

على ساعة الاستيقاظ ، المقعد ، السرير ، كتاب منكفىء ومفتوح على صفحة ما .. تتجمع الأشياء وتنتظم فى خيط ممتد إلى الشارع ، تتجمع محتويات الشارع وتمتد إلى الميدان ، ثم تتفرع فى شوارع أخرى ، أنظر إلى جدران الحجرة المحيطة بى وأنا ممددة على الفراش .. تترامى إلى أصداء العباسية ، وضجيج الشوارع المزدحمة ليل نهار .

صوت مكتوم يتسلل بين الضجيج ، أنتبه إليه وأفتح عينى ، أصوات تترامى من الشارع ، دوى الأبواب الحديدية للدكاكين وهى تغلق ، إيقاع خطوات منتظمة فى الشارع تقترب ثم تتباعد ، أسمع حشرجة مكتومة ، أنتفض واقفة ، أسرع إلى حجرة أبى .

أضىء النور وأقترب من الفراش ، الزبد يتجمع فى زوايتى الفم ، وصدره يعلو ويهبط ببطء وثقل ، عينان نصف مغمضتين وحشرجة ، أحضر كوب ماء وقرص الدواء ، ينزلق الماء على صدره ، أهزه ، لا يستطيع الحراك ، أتخبط فى الحجرة ، تتبعثر أشياء على الأرض ألملمها من طريقى ، ترتعش يداى .. صورته ، صورة أخى المحاطة بالشريط الأسود ، سلسلة المفاتيح ، الشهادة الدراسية ، البطاقة الشخصية ، صورة أبى وأمى ونحن حولهما وهو يتوسطنا ، تتردد حشرجة ، أتركها وأسرع .. أجهل أنه يحتفظ بأشيائه كلها ، أخرج من الباب ، أتلفت حولى ، سنوات الانتظار التى سقطت فيها أمى ، أسرع جريا ، لم نعرف أين هو أو متى سيعود ، استشهد أم لا ، أدخل بابا ، أصعد سلما ، العودة المستحيلة ، أطرق بابا ، صمت وإظلام ، أمى يجف عودها كالهشيم ، أطرق الباب بكلتا يدى ، هل كنت متواطئة حين ظننت أن الصمت المضمر بيننا سوف يخفف الوطأة ، أطرق ثانية وبقوة ، هل كان الصمت طويلا بحجم التواطؤ .

طرقا متواصلا ..

fb/mashro3pdf

(٢١)

ضجيج فى أرجاء المنزل يثيره الأطفال وهم يلهون فى كل مكان داخله ، تفتح النوافذ والأبواب .. لأول مرة منذ سنوات .

يحيطون بأبى ، سميحة وسناء وعبدالمنعم وزوجته شهيرة ، تحتضن سميحة رأس أبى : ألف سلامة يا بابا .

- بعد الشر عنك .

يدور بعينيه عليهم ، يحتضنهم بنظراته : شفيت عندما رأيتكم .

تقول سناء : لم لم تتصلى بى وقتها ؟

- لم يكن هناك وقت ، أبلة عايدة أيقظت ياسر ، أعطاه حقنة وقاس الضغط عدة مرات ، ذهب لإحضار الدواء بنفسه ، ولم ينصرف إلا فى الصباح عندما تجاوز الأزمة وبدأ ينتبه ، قال لياسر : أتعبناك معنا كتر خيرك ، اذهب أنت الآن لتستريح وسأذهب للطبيب .

يضحكون جميعا ويضحك أبى معهم .

- تقبلها ياسر بروح رياضية ، وقال : ماشى ، فتدارك بابا قائلا : لا أقصد لكنه يعالجنى منذ زمن ويعرف ، فقال ياسر ولا يهمك ، عموما أنا تحت أمرك فى أى وقت ، قال لى ياسر جانبا وهو يضحك : وهل أنا حلاق صحة ؟

أصر أن يذهب آخر النهار إلى الدكتور حسين عثمان .

fb/mashro3pdf

تقول سناء : ياسر ابن عايدة أصبح طبيبا ، ماشاء الله .

يقول عبدالمنعم : الدكتور حسين عثمان ! أما زال يذهب إلى العيادة ؟

– يذهب مرتين فى الاسبوع تمتلئ فيهما العيادة بالناس عن آخرها حتى أنهم يملأون الشرفة وتصبح مثل النادى يجلسون فى مجموعات يثرثرون ، فقد تركها لابنه ولدكاترة جدد فى الحى ، قيل إن ابنه يعترض على ذلك ، لكنه لا يرد طلبا لأى دكتور جديد من أبناء الحى أو أبناء معارفه أو تلاميذه ، كل فترة يطل على الناس من حجرة الكشف كلما فتح الباب ينكت معهم، لكن الشيخوخة نالت منه ، لا يستطيع الوقف إلا بصعوبة ويكشف وهو جالس على مقعد بجوار سرير الكشف ويضع أمامه منضدة عليها الأجهزة ، أخبرته عن الأعشاب التى يتناولها أبى ووصفات الحاج عامر وفصوص الثوم التى يبتلعها ، إذ ربما تؤثر بشكل سيىء ، أشاح بيده فى وجهى قائلا : اسكتى أنت لا تعرفين شيئا ، ثم أخذ يسأله عنها وأبدى له ملاحظات عن كيفية تناولها وما الذى له داعى منه وما لا يلزمه ، ثم نظر إلى قائلا : الثوم له فوائد كثيرة ، يطهر الأمعاء كأنك مسحتها بقطنة مبتلة بالكحول ، كما يخفض الضغط ، أخبرته أنه لا يأخذ العلاج بانتظام ، كتب له الروشتة وقال له : تلك أدوية تأخذها عند الحاجة ، ثم أضاف دواء آخر قائلا : أما هذا فتأخذه بانتظام لفترة ، وعندما ينتهى مر على .

تتكون العيادة من شقة من خمس حجرات ، كانت مسكنا يقيم فيه قبل ذلك ، وتمتد إلى شارعين جانبيين يلتقيان بزاوية حادة عند الميدان الذى تطل عليه ، وتحتل الزاوية شرفة مثلثة كبيرة تشرف على الميدان الواسع ، درج السلم متآكل حتى الطابق الثالث الذى تقع به العيادة ، يعرف معظم أهل الحى ويعرفونه منذ زمن، حتى الصغار الذين يقلدون الكبار عندما كانوا يسيرون فى موكبه

fb/mashro3pdf

الانتخابى، عندما رشح نفسه لمجلس الأمة ، وهم يرددون: «حسين عثمان .. الإنسان» وأصبح ذلك أحد ألعاب الصغار فى الحى .

فى المساء جاء أصحابه شلة الحاج عامر كلهم، إذ سرعان ما عرفوا أنه ذهب إلى عيادة حسين عثمان، مكثوا معه لبعض الوقت، وظلوا يترددون عليه بانتظام .

تقف سناء فى الشرفة الصغيرة فى حجرة الاستقبال ، تنظر إلى الشارع قائلة : معظم الوجوه لا أعرفها .

– لم يبق من الجيران القدامى سوى عايدة ولويزا وعم راتب وأولاده وأسرة الحاج عبدالرحمن ، معظم الشقق شغلها الأبناء بأسرهم التى لا نعرف أفرادها ، أو سكان جدد .

تظهر لويزا فى الشرفة ، تشير لها سناء وتتجاذبان كلمات ، تستدير قائلة : سأذهب لأسلم عليها .

– هل اشترت نصيب إخوتها فى البيت ؟

– لا أعلم .

تلتفت إلى الأولاد قائلة : لا تزعجوا جدكم ، العبوا بعيدا .

يربت أبى عليهم قائلا : اتركيهم ، لا يسببون لى إزعاجا .

يستغرق فى مداعبتهم والحديث معهم ، يذهب عبدالمنعم إلى صلاة الجمعة وتلحق بى سميحة وشهيرة فى المطبخ .

تقول سميحة : يا حبيبى يا بابا ، صحته راحت ، لم أره من قبل هكذا .

– حالته الآن مطمئنة ، ماذا لو رأيته ساعة أن فاجأته الأزمة .

– الحمد الله ، لا أدرى ماذا كان يمكن أن يحدث لو وقع له مكروه وهو وحده؟

– شلة أصدقائه لم يتركوه منذ عرفوا ، جاءوا بعد وصولنا من عند حسين عثمان بقليل .

fb/mashro3pdf

– قاسى كثيرا بابا خاصة بعد وفاة المرحومة ماما الله يرحمها ، فلم تستطع تحمل الصدمة طويلا ، أما هو فتحمل كثيرا .. ظل لفترة طويلة يتوقع أن يراه داخلا من الباب فى أية لحظة .

– كلنا ننسى إلا هو .

تلتفت إلى شهيرة قائلة : لم تريه زمان ، كان صوته يجلجل فى البيت ، كنا نخشاه ، وكنت أعمل له حسابا حتى بعد زواجى .

تقول شهيرة : حكى لى منعم عما كان يفعله معه ، كثيرا ما يقول للأولاد ، لو رأكم جدكم تفعلون كذا لقال وعمل كذا .

– أصل منعم كان شقيا ، كان الكبير المدلل ، وعندما كبر بدأ أبى يشتد عليه .

تأتى سناء وتقول : لويزا تسلم عليكم جميعا ، مسكينة ظلت تشكو من إخوتها الذين لا يسألون عنها بعد أن هاجرت نادية وزوجها ، وإميل يفكر أن يسافر إليهم ، ورءوف مشغول طوال الوقت أو يتعلل بذلك ، بكت فريال عندما جاءت اخر مرة ، وقالت لها : نحن مقصرون معك ، كأنها تؤدى واجبا مفروضا ، وكالعادة ذهبت ولم تأت منذ فترة .

ننتهى من إعداد الطعام ويأتى عبدالمنعم، يستغرق فى حديث جانبى مع شهيرة ويأتى شوقى زوج سميحة يتوجه إلينا عبدالمنعم قائلا: إنه يريدنا فى موضوع مهم .

يقول : إن البيت أصبح موحشا ورطبا ، وبابا فى حاجة إلى مكان أفضل .

ينظر إلينا منتظرا إجابة ، أقول : بابا لا يحب أن يغادر المنزل .

– لكن صحته لم تعد كما كانت ، والبيوت عالية حول البيت وتحجب الشمس والهواء .

fb/mashro3pdf

تقول سميحة : نقترح عليه أن يبيع قطعة الأرض التى يمتلكها فى البلد ونعمل عمرة للبيت ، أو نبنى طابقا آخر .

يقول عبدالمنعم : البيت أصبح قديما ، والترميم لا يجدى فيه .

– تقصد نعيد بناءه .

– لا ، نبيع البيت ويأخذ بجزء من ثمنه شقة ويحتفظ بمبلغ آخر ، الأرض سعرها ارتفع جدا بشكل لم أكن أتصوره .

تتجه نظرات سناء وسميحة إلى شهيرة ومنعم ، تقول شهيرة : هو قال لى ، لكن الأمر خاص بكم .

تقول سميحة : وهل سيوافق بابا ؟

أقول : لا ، طبعا .

يسألنى منعم : رأيك أنت أم رأيه هو ؟

– أعرف بابا ، لن يترك البيت ، على أية حال ، البيت بيته ، وهو فى النهاية الذى يقرر .

– فكرى فى الأمر بهدوء حتى نحاول إقناعه ، المبلغ كبير جدا يمكن أن يوزع علينا كلنا ويفيض له ما يكفيه وأكثر .

تقول سميحة متفكرة : ولم لا ؟

يقول منعم : قابلت الحاج أبو العزم بعد صلاة الجمعة، قال إنه يريدنى فى أمر مهم ، وجلسنا قليلا فى المقهى، عرض على شراء المنزل بمبلغ كبير، ليس من أجل المنزل بالطبع لكن ثمنا للأرض، ولأن المنزل ليس به سكان فهذا يرفع الثمن ، وقد اشترى منزل الحاج عبدالنعيم بجوارنا وقال إنه يريد إقامة عمارة كبيرة مكان البيتين ، وطلب منى أن أقنع أبى بذلك ، قال إنه تحت أمره إذا أراد شقة ستكون جاهزة فورا فى أى عمارة يريدها من العمارات التى يملكها .

fb/mashro3pdf

وإذا أحب أن يظل فى نفس المكان فسيقدم له شقة فى العمارة الجديدة بعد بنائها ، الفكرة معقولة ، بل جيدة ، لكنى لم أعطه وعدا وقلت له إننى سأعرض الأمر على أبى .

تقول سميحة : والله فكرة ، سيتوافر لنا مبلغ كبير نستعين به جميعا وهذا يفرجها على الكل .

تقول سناء : المشكلة أن يوافق أبى .

يقول لى منعم : فكرى فى الأمر بهدوء ، فكرى فى مصلحتك ومصلحة بابا ومصلحتنا جميعا .

– أيا كان الأمر فكل منا مسئول عن نفسه .

يتدخل شوقى قائلا : لماذا لا تقومون ببناء البيت ويساهم فيه الجميع ، وأنا مستعد لذلك ، ويكون لكل واحد نصيبا فيه من الشقق يتصرف فيها كما يريد .

تقول سميحة : فكرة ، ونستفيد منه أكثر بدلا من الأغراب ، على الأقل بابا ممكن يقبل الفكرة .

تقول سناء : أنا ووجدى ليس لدينا استعداد للمساهمة .

– حقكما محفوظ .

يبقى كل فى مكانه متفكرا ، منعم لم يستحسن فكرة شوقى ، ينهض ويتجه إلى أبى ، تتجه الأنظار نحوهما ، ينهضون واحدا واحدا ويتخذ كل مكانه فى الصالة حولهما . يقول منعم كمن يتذكر فجأة : الحاج أبو العزم يسلم عليك .

يشيح أبى بوجهه قائلا : زمن ..

– تغير عن أيام زمان .

fb/mashro3pdf

يقول أبى : غير طريقته فى البلطجة فقط .

– كان يمارس البلطجة قديما لأنه لم يكن يملك شيئا ، أما الآن فقد فتحها الله عليه وحج بيت الله .

– زمان كانت بلطجته مقدورا عليها .

لا يجد أحد ما يقول ، ومنعم يدور بنظراته بيننا يستحثنا على الكلام .

تقول سميحة : منعم يريد أن يفتح معك موضوعا .

يلتفت أبى إليه قائلا : خيرا !

– كل خير ، نتكلم بشأن البيت فقد أصبح قديما ، ويحتاج ترميمه إلى مبالغ كثيرة ، ماذا لو انتقلت لشقة جديدة ؟

– كيف ؟ ثم من قال إنى أود أن أتركه ؟

تقول سناء : تبيع البيت وتأخذ شقة أفضل بثمنه .

– لماذا ؟ هل شكوت لأحد منه ؟

تواصل قائلة : البيت معروض فيه ثمن كبير ، تأخذ شقة ويوفر لك مبلغا كبيرا وهذا ما يود منعم أن يحدثك فيه .

يكمل عبدالمنعم مشجعا : والحاج أبو العزم يعرض مبلغا طائلا .

ينظر فى وجوههنا واحدا واحدا : أبيع البيت ؟ .. لأبى العزم ؟!

يخبط كفا بكف قائلا : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أنتم الذين تقولون ذلك ؟ لم يتغير ، نفس ما كان يفعله زمان ، لكن هذه المرة بأمواله ، يود أن يشترى بيوت الحى كله وهو الذى عاش طوال عمره خارجا ومنبوذا من أهل الحى ، منذ أيام البلطجة فى السوق وفرض الإتاوات على البائعين وأصحاب المحلات ، كان يجمع حوله البلطجية ، ثم عمل مقاول أنفار ، يبتلع شقى العمال ويتاجر بعرقهم ، ضربه أحدهم ذات مرة بـ «كوريك» ترك علامة فى وجهه مازال أثرها حتى الآن ، والآن

fb/mashro3pdf

يستعين بالبلطجية ضد أصحاب البيوت حتى يتركوها ، أنسيتم ماحدث للحاج عبدالنعيم ؟ كاد يقتل ابنه مـرة لولا ستر ربنا .

نجلس حول مائدة الطعام ، يتحول ضجيج اليوم فى المنزل إلى هدوء مشحون بنظرات متقاطعة ومتوازية ، يخفت همس الأطفال ويتحول إلى همهمة لا يقطعها سوى صوت الملاعق ، ومضغ الطعام فى الأفواه .

ينهى طعامه سريعا ويتنحى جانبا، تقول سناء: أخشى أن يؤثر الانفعال عليه.

يقول منعم : لم نعرض الأمر عليه بصورة جيدة ، ولم نختر الوقت المناسب .

نقترب حوله ، ويقول عبدالمنعم بصوت خافت وهو يجلس بجواره : كان مجرد اقتراح ، لم أقصد أبو العزم بالذات ، نحن نتكلم بشكل عام ، ولا يهمنا سوى راحتك .

يقاطعه أبى محتدا : عندما أموت افعلوا ما تشاءون ، لكن مادمت حيا لن أغادر هذا البيت .

– بعد الشر عنك يا بابا .

– ربنا يعطيك طول العمر .

ينهض وهو يشمر أكمامه ليتوضأ .

تقول سميحة : أثاره اسم أبو العزم ، رفض الفكرة من أساسها بسبب ذلك .

يقول منعم : ربما يفكر بهدوء بعد ذلك .

يختم صلاته ويجلس منعم أمامه على سجادة الصلاة ، يقبل رأسه ، ويتناول يده ليقبلها : لا أريد سوى راحتك .

– إن شاء الله سيظل هذا البيت عامرا بحسك .

يقترحون أن نسجل رسائل صوتية إلى محمد الأخ الأصغر المسافر بالخارج لنرسلها له، يعدون جهاز التسجيل ويقترحون أن يبدأ أبى، يسأله عن أحواله هو

fb/mashro3pdf

وزوجته وابنه، يطلب منه أن يهتم بنفسه وبهم ويواصل إرسال الخطابات، ويطلب منه أيضا أن يجعل إجازته القادمة مع حلول شهر رمضان والعيد كى يمضيهما معنا، تنتابه نوبة السعال ويشير أن نوقف جهاز التسجيل ، أسرع إليه بكوب ماء، يتناوله ويأخذ نفسا طويلا ، وينتظر حتى تنتظم أنفاسه ، يطلب إعادة شريط التسجيل عند الجزء الذى توقف فيه ، وبعدما ينتهى من الحديث ينهض ليستريح فى غرفته .

يطلب منه منعم ارسال عقد عمل لابنه الذى تخرج هذا العام، أو حتى تأشيرة، وتذكره سناء بطاقم الخلاط ماركة براون الذى كلمته عنه وهى تصفه قائلة : عائلة براون ، هكذا اسمها ، تتعالى أصوات الصغار أثناء التسجيل ، الأتارى يا أونكل .. عروسة باربى يا أونكل ، عائلة باربى .

أنظر إلى الثياب الملقاه بالحجرة ، أغلفة قطع الحلوى مبعثرة ، رسم على الحائط بقلم رصاص ، وبالونة استقرت أسفل المقعد وبقايا طعام فى الأطباق ونوافذ مازالت مفتوحة فى كل مكان ، وشباشب موزعة على الأرض ، ونظارة نسيها أحدهم ، وقطعة ملابس أطفال وحشايا ملقاه على الأرض ، وجدران تطل علىّ من كل مكان .

أصداء بعيدة لأصوات تتردد بين جدرانه ، وصوت أمى واضح وحاسم ، حركة تموج بين جدرانه ، وأحمد بيننا ، صورة تتسع وتضيق ، بؤرة تلتف حولها وجوه ألفها .. لم يبق منها سوى شريط تسجيل .

fb/mashro3pdf

(٢٢)

ألملم الخيوط وألقى بها بعيدا ، أنظر إلى أرض مجردة من الخرائط ، أرض ملساء بلا تضاريس ، تخثرت المياه فى شقوقها وتراكم عليها غبار رمادى ناعم ، أخشى السير فوقها حتى لا تنزلق قدمى ، أتذكر أننى لم أرسم بيتا بعد أبدأ منه رسم الخارطة ، نسيت حتى أصبح من الصعب على تذكر ملامحه لأعرف كيف أرسم خارطة حوله .

أتناول عودا من البوص ، ويتناول هو عودا آخر ، يبدأ كل منا فى رسم الخارطة ، تمتد الخطوط زاحفة على الرمال ، تتعرج وتستقيم وتنحنى .. أثبت يدى جيدا على عود البوص وأنا مستغرقة ، أنتبه أننى قطعت شوطا طويلا حتى لم أعد أراه .

أقف أمام البحر ، أتسمع هدير الموج متصلا ، واندفاعاته على الرمال فى خطوط متعرجة تبتلع حدود الخارطة .

أنظر حولى إلى الشاطىء ، تقع عينى على أشكال بارزة من الرمال ، أقترب منها ، أشكال أقامها أطفال فى مسابقة وتركوها ومضوا ، هم الآن يتقافزون فوق الأمواج ، سمكة . عروس بحر . فنار . قلعة . بيت . قبة . حديقة . زينوها بالقواقع والأصداف والأعشاب البحرية ، أقف عند نهايتها ، أركع على الأرض ، أقيم قبة وأحفر تحتها ، أنحنى وأواصل الحفر حتى تؤلمنى

fb/mashro3pdf

أصابعى من خشونة الرمال الرطبة .. يد تلامس يدى ، أرفع رأسى وأراه على الجانب الآخر منها .

- يوسف !

تعلو ضحكته : وجدتك .

تنفلت يدى من يده ، أركض على الرمال وهو يلاحقنى ، أود أن يكف حتى استطيع التقاط أنفاسى .. أختبىء خلف الفنار ، يتبعنى ، ألف حوله ، أقف فى مدخله المعتم ، أراه وهو يبحث عنى ، يدور فى كل مكان ، يبتعد حتى يغادر الشاطىء .

يتوالى اندفاع الموج ويرتفع تدريجيا ، حتى تأتى موجة عالية قوية تغمر الشاطىء ، تختفى تضاريس الرمال ، وتخفت بعدها حدة الأمواج ثم ترتفع تدريجيا ، تاركة خطوطا متتالية على الرمال .

أجلس على الأرض ، أسند ظهرى إلى جدار الفنار وأمدد ساقى .

- أتذكرك كلما وقفت أمام البحر ، تمنيت أن نذهب معا ، نرتاد نفس الأماكن ، ونسير فى نفس الشوارع ، كما كنا نفعل معا دائما ، أتذكرين أول مرة ذهبنا معا ؟

لم أقل له إننى سأتى ، وكنت قد قررت ذلك فعلا .

خدر يسرى فى جسدى وثقل فى أجفانى ، أسند رأسى إلى الجدار ، وأغمض عينى .

- قولى ما تفكرين فيه فورا ، وإلا خالفت قواعد اللعبة .

أرفع رأسى ، أرى أبى وهو يقف أمامى ، وإصبعه يشير إلى رأسى .

fb/mashro3pdf

يرفع إصبعه وذراعه الممتدة ، حتى تنطبق ذراعه على خط الأفق، ويظل واقفا للحظة وهو يردد : قولى .

لا أعرف ماذا أقول ، يخفت صوته وهو يردد : قولى ، ورأسه مسترسل فى الاهتزاز برتابة ، يستدير نحو البحر وذراعه ممتدة أمامه ، واصبعه يشير إلى الأمام ، يسير فى خط مستقيم ، يقترب من المياه ، يخوض داخلها ، أنهض ، أشب على أصابعى وأتبعه بنظراتى ، أراه يبتعد داخل المياه يختفى تدريجيا ، أسرع نحوه ، أقف على حافة المياه أناديه ، يختفى تماما ، تندفع موجة ، أراه يعلو فوقها ثم يهبط ويختفى خلف موجة أخرى ، يظهر ملوحا بيده وهو يضحك ، تعلو قهقهته على صوت الأمواج .

أنظر إلى أكوام الأوراق المكدسة حولى ، أضعها فى زجاجات ، أحكم السدادات على فوهاتها ، ألقى بها فى البحر ، أرى الأمواج تبعثرها فى كل الاتجاهات ، تنأى كل واحدة منها بعيدا حتى تختفى .

– هيا لترى بنفسك ، ستكون مفاجأة .

أحاول أن أفلت يدى وليلى تجذبها متعجلة ، أخطو معها ، أقف أمام البيت ، أنظر إلى جدرانه الرملية وسعف النخيل الذى يغطى السقف ، تبرز من حافته عروق من الخشب .

– ها ، ما رأيك ؟

تتسع ابتسامتها وأنا أتأمل البيت من جوانبه المختلفة ، وأبوابه ونوافذه المفتوحة على كل الإتجاهات .

تقول : يمكن إغلاقها بحيلة بسيطة ، لكننى أريدها هكذا ، تتساقط حبيبات الرمال ونحن نمر بجوار الجدران ، يغالبنى الضحك ، أقول لها : سرعان ما سينوب .

fb/mashro3pdf

يعلو وجهها الغضب ، تقول محتدة ، أنت لن تدركى ، ولا يمكن أن تتخيلى ماذا يمكن أن يكون .

أقول لها : الغريب أنك تفكرين فى إقامة قرية بأكملها هكذا .

تواصل محتدة : سيزداد صلابة مع الوقت ، وذلك هو الجديد فى الأمر ، وإذا بنيت بيوتا أخرى ستكون أكثر تماسكا ، المهم أن أعاجل الوقت حتى يكون هناك متسع منه ، فالتوقيت عامل مهم فى تلك الطريقة من البناء .

– ومن الذى سيقوم بتمويلها ؟ المؤسسة أيضا ؟ آه ، صحيح ، هل قيموا هذا البيت ؟

– بالطبع ، وجاء التقييم فى صالحى تماما كما أرادوا ، ووفقا للخطة المتفق عليها ، سيكون هذا البيت نموذجا مطروحا أمام الكثيرين ليحذوا حذوه ، وستجتذب الفكرة أشخاصا ومؤسسات أخرى ، أما دور المؤسسة فسيقتصر على تقديم الخدمات ومشروعات التنمية التى تساعد الناس على الاستقرار وتوطيد العلاقات بينهم وجذب المزيد منهم ، لأنهم سيأتون من أماكن مختلفة ، فالمؤسسة تعمل على تكوين مجتمع جديد متماسك .. هم ينظرون بعيدا ، وهذا ما لا يدركه الآخرون .

– من تتخيلين يمكن أن يقتنع بذلك ؟

– أوه ، لا تتصورين ، هذا البيت الذى تقفين أمامه الآن وتضحكين سيكون نقطة جذب للكثيرين كى يأتوا ويقيموا ، ستقام بيوت أخرى ومشروعات وحياة جديدة ، وستكون أيضا نقطة جذب سياحى تستهوى الناس من مختلف أنحاء العالم ، سليم نفسه متحمس ويفكر بمشروعات كثيرة هنا ، ولديه علاقات واسعة مع مستثمرين ورجال أعمال محليين وأجانب .. من كل مكان سيأتون .

fb/mashro3pdf

تتكلم جادة ، ينتابني قلق ما وهي تواصل حديثها ، وأفكر بما قالته منذ البداية .

تخفت حدة الأمواج ، وتنبسط صفحة المياه ملتمعة كالمرايا ، ألملم أطراف ثوبي وأخطو بداخلها ، أشعر بصلابة ما ، وأقدامي تلامس السطح ولا تبتل ، أخطو ، يوسف ينزلق سريعا وهو بكامل ملابسه ، يدور سريعا ويقفز عاليا في الهواء في حركات أكروباتية ، يطير في الهواء وهو يدور حول نفسه ، تلامس أقدامه سطح المياه ، ويفرد طوله ثم يواصل الانزلاق .. أتراجع إلى حدود الشاطىء ، أراقبه حتى ينتهي ، يقبل تجاهي ، يتأكد أنني رأيته .. نخطو على الرمال ، يخلع جاكتته ويعلقها بإصبعه المستند على كتفه .

- ماذا لو رسمنا الخرائط .

- من الخيال ..

- من الذاكرة ..

- من ضربة نرد .

نخطو في الشوارع المزدحمة ، نرفع أقدامنا كي نخطو وسط صناديق البضائع وطاولات الباعة الجائلين ، نصطدم بالمارة من كل اتجاه ، حتى لم يعد أي منا يرى الآخر وهو يختفي ويظهر وسط الزحام ، أتلفت حولي ، أراه يشير لي عند مفترق الطرق .

يقول ونحن نتجه إلى الشاطىء : كل شئ أصبح مختلفا عما كان .

ثم ينظر إلي مستطردا : أم ماذا كنت تتخيلين ؟

يقفز بخطوات متلاحقة ثم يستدير قائلا : أشعر بالجوع .

أذكره بالمطعم القديم الذي كنا نتناول فيه وجبات السمك الطازج، يستدير فمه دائرة ضيقة دون أن يتكلم .

fb/mashro3pdf

نجلس فى مطعم يطل على الشارع الموازى للشاطىء ، ننظر من خلال دوائر ضيقة شفافة من الزجاج الذى طلى معظمه بألوان زرقاء ورسوم لأسماك مختلفة الأشكال ملونة بألوان زاهية ، موائد مزدحمة ومتقاربة ، وجرسونات يحاولون إفساح مكان لزبائن جدد يتوافدون .

يذكرنى بالأوراق والخرائط القديمة ، أقول : مازالت مكومة كما هى ، لم تمتد إليها يدى .

- تلك أشياء مهمة ومطلوبة ، لم تحتفظين بها مكدسة على الأرفف ؟

- ذلك يقتضى إعادة تصنيفها ، وحتى أبدأ ذلك أبحث عن عناوين جديدة ، وأسماء ومسميات .

- لا عليك ، المهم أنها موجودة ، وأنك تحتفظين بها .

- لم أعلم أن ذلك يعنيك .

- أعرف تماما أن ذلك مطلوب ، مؤسسات كبرى تعرف أهمية ذلك ، وتقوم هى بتصنيفه ، المهم أن تكون موجودة ، يقدمون الفرص ويفسحون المجال .

- كيف ؟ لماذا ؟

يبتسم قائلا : نتحدث فيما بعد ، المهم أننى وجدتك ، فأنت بحق لك وحشة .

تنغرس قدمى فى الرمال الرطبة ، أرفعها بتثاقل وأنظر إلى الحفر الغائرة التى خلفتها ورائى .

أستجمع حدود حركتى ، أرسم خطوطا تصل بينها ، ثم أقف عند أطرافها ، أمد خطوطا بداخلها ، أحاول أن أرسم بيتا لأبدأ منه رسم الخارطة .

أتأمل الملفات التى تزاحمت على الأرفف ، أفتحها واحدا بعد آخر ، أدون ملاحظات منها ثم أضعها على الأرض ، وأضيف للخارطة خطوطا جديدة ، وبعدما أنتهى أجمع الأوراق منظمة كما هى ، أضعها فى خزائن

fb/mashro3pdf

وجرار ، أحفر فى منتصف الخارطة وأدفنها فيها ، أسوى الأرض بيدى ، وأحدد علامة فوقها على الخارطة .

أسمع أصواتا خافتة خارج الحجرة ، أفتح الباب بهدوء وسط سكون مطبق ، أضىء النور ، أرى إخوتى وأبناءهم يتعالى صوت صياحهم معا فى نفس واحد وبصوت مرتفع عندما يضاء النور ، بيت .. عمارة كبيرة . شقة . حجرة . طوابق عالية .

يخرج أبى من حجرته مستطلعا ، يسرعون نحوه ، يحيطون به ، يمسكون بيده حتى يخطو ، يجلسونه ، يجلسون حوله ، ينظر إلى طويلا نظرة كليلة ، يبدأ فى هز رأسه ، أعود إلى الحجرة وأغلق الباب ، أضع رأسى على الوسادة ، أفتح عينى فى الظلمة ، لا أود معرفة الوقت .

أضغط زر الأباجورة ، تقع عينى على أوراق كنت أخط عليها ، أتناولها دون أن أنظر فيها ، أمزقها وألقى بها فى السلة ، وأظل ممددة فى الفراش ، تقع عينى على رسالة كنت قد قرأت بضعة سطور منها ، اتذكر أننى توقفت عند عبارة : «بيوت تقبع بداخلنا» .. ، أطويها ، أضعها بين أوراق فى غلاف مكتوب عليه «مجهول» .

أتأمل الجدران التى تقشر عنها الطلاء وتجمعت أجزاء هشة ومنتفخة فى أماكن منها ، تدب فيها حركة ما تموج بها ، يرن جرس التليفون ، تصطخب الحركة ومازال الرنين يتواصل ، تتقلص الجدران ، تطبق على ، تضغطنى .. تلقى بى خارجها .

أضع الحقيبة على الأرض ، يقول لى موظف الاستقبال : شخص ما سأل عنك منذ قليل ، لم يذكر شيئا ، لكنه قال إنه سيعود ثانية .

أسير على الشاطىء ، أنظر خلفى وأرى أننى قطعت مسافة طويلة ، أرى الأمواج تعلو شيئا فشيئا حتى تغمر الشاطئ ثم تهدأ من جديد، ألقى بالحقيبة ، أنزع ثيابى ، وألقى بنفسى وسط الأمواج .

fb/mashro3pdf

الجزء الثانى

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(٢٣)

أسير فى طريق صحراوى ينتهى فجأة إلى تلك النتوءات الصخرية ، متفاوتة الأحجام والارتفاعات ومغطاة بالرمال ، يتراءى لى على مرمى البصر من كل الاتجاهات مساحات من الرمال تتخللها صخور رملية وكثبان ذات أسطح ملساء مستوية وحواف مسنونة .

يهب تيار هواء ساخن لا أثر فيه لرطوبة ، تتطاير حبيبات الرمال الناعمة أمام عينى ، أرى خلالها أخيلة غير محددة المعالم متناثرة فى أماكن شتى ، تنزلق الرمال فى حذائى وتملؤه فتثقل خطواتى ، أخلع الحذاء وأنفضها ، لكنى لا أستطيع مواصلة السير ، أرى خيالا على مسافة غير بعيدة ، أمسح عينى وأزيل الغبار ثم أمسح أجفانى ووجهى وأنظر ثانية ، أراه يتحرك باتجاهى ، وتتكشف ملامحه تدريجيا .. يوسف .

تنغرس قدماه فى الرمال وهو يسير متعثرا ويميل على الجانبين حين يخطو ، يقف أمامى عن بعد ، ثم يبدأ كل منا يخطو باتجاه الآخر ، أرفع ذراعى بمستوى كتفى حتى استطيع حفظ توازنى ويفعل هو مثلى ، نتقارب حتى يقف كل منا فى مواجهة الآخر ، ثم يبدأ كل منا فى حفر حفرة مستطيلة فى الرمال ، يتمدد هو فى واحدة وأتمدد أنا فى الأخرى فى وضع عمودى بحيث يلتقى رأسانا عند نقطة يتعامد عندها جسدانا .

أغمض عينى وأستشعر البرودة فى قاع الحفرة عند ملامستها لظهرى ،

fb/mashro3pdf

يهب تيار من الهواء فتتطاير الرمال وتحط فوقى ، يهب تيار ، يتطاير بعضها ويستقر على وجهى ، تنزلق حولى فى الحفرة حتى تحيط بجسدى وتملأ الفراغات بينه وبين الحفرة ، وتنزلق إلى أجفانى وأذنى وحول فتحتى الأنف ، أسعل فتتطاير .

تتسرب برودة الحفرة إلى جسدى ، وأستشعر ظهرى طبقة رقيقة باردة ، ولا أستطيع الحراك ، أستجمع أنفاسى وأحاول أن أطلق زفيرا طويلا بما يكفى لإبعاد الرمال التى تجمعت حول أنفى فلا أستطيع ، أنفخها بفمى فتدخل إلى فتحتى الأنف ، أجاهد قدر استطاعتى فتصدر منى حشرجة مكتومة ، يتراءى لى أبى واقفا بجوارى ، أراه بصعوبة ولا أستطيع التنفس .

– ماذا بك ؟

أسمع صوته ولا أستطيع أن أجيب .

– خيل إلى أننى سمعت صوتك .

تتضح صورته أمامى شيئا فشيئا ، أتحرك بصعوبة وأسأله عن الوقت فيجيب: الساعة التاسعة .

أنهض مسرعة فيقول : إلى أين ؟

– تأخرت عن الشغل !

– لن تذهبى .

– كيف ؟ .. لماذا ؟

– هناك حظر تجول .

أحملق فيه فيقول : منذ الصباح الباكر والراديو يذيع بيانات عن حظر التجول، هناك اشتباكات مسلحة فى البلد بين البوليس وبعض المسلحين فى

fb/mashro3pdf

أحياء كثيرة ، والجنود يملأون الشوارع فى كل مكان ، يقولون إنها جماعات إرهابية منظمة .

أسرع إلى الراديو وأدير المؤشر، أسمع موسيقى عسكرية وبعض أغان يؤديها مغنيون بأصوات مرتفعة وألحان حماسية .

يقول أبى: غفوت قليلا بعد صلاة الفجر واستيقظت على صوت ضجيج وأحداث أعقبها طلقات رصاص وهرولة، وعندما فتحت النافذة وجدت بعض الجنود، أحدهم ممسك بميكروفون صاح قائلا : اقفل الشباك ، أطفأت النور وأخذت أرقبهم من خلال الشيش والضابط يوزعهم فى الشوارع وعلى النواصى ، وأعلن الجندى على الناس من خلال الميكروفون أن يلزموا البيوت ويغلقوا النوافذ والأبواب .

موسيقى عسكرية وأغان زاعقة يقطعها صوت مذيع جهورى هنا أو هناك بصيحات : الله معنا ، سننتصر . سنقضى على الإرهابيين المخربين ، أعداء الدين العملاء ، ثم يقطعها إذاعة بيان يتردد على فترات بأنه بعد منتصف الليل تحركت مجموعات إرهابية مسلحة فى أحياء مختلفة ، وتحركت معهم عناصر موالية لهم فى هذه الأحياء متخذين من الجوامع وبعض البيوت مركزا لهم لترويع الآمنين من الناس والمواطنين الأبرياء بقصد إشعال الفتنة بين الناس حتى يتسنى لهم السيطرة على الأحياء ، وعلى الفور تحركت قوات البوليس ووحدات من الجيش لمحاصرتهم وحدثت اشتباكات بينهم فى أحياء مختلفة .

يحاول أن يحتفظ بهدوئه ، يسأل : جماعات دينية ؟

- هذا ما يقولون .

- بهذه الكثرة ؟

- ... .

fb/mashro3pdf

– غير ممكن !

يفقد بعض هدوئه ويلهج لسانه بالأدعية ويخبط كفيه : اللهم ألطف بنا .

يدير قرص التليفون دون جدوى ويضع السماعة .

كلمات من الراديو أن يلزم المواطنون بيوتهم ليسهلوا مهمة رجال الأمن ، وألا ينصتوا إلى أية اشاعات تترامى إليهم ، لأن ما حدث تم بناء على إشاعات مغرضة من المخربين ترددت بين الناس وانتشرت وانصاع وراءها بعض المواطنين ، واستغلت العناصر الارهابية وبعض الخارجين على القانون الفرصة ، وقاموا بعمليات نهب وتخريب واعتداءات على المواطنين ، وأن من يفعل ذلك سيلقى جزاءه .

لم يذكر شيئا عن الإشاعات المغرضة .

– أتعتقدين أنهم سيعتدون على الأقباط ؟

يتمتم : عمك خليل ووليم ولويزا ، ربنا يستر .

أحاول أن أتذكر الوجوه فى الشارع ، والجيران القدامى .

– لا أعتقد أن شيئا ما يجرى هنا .

– لكنهم يقولون فى كل مكان ، ربما يأتون إلى هنا .

– الجنود موجودون ..

يبدأ إرسال التليفزيون ويذيع نفس البيانات والأغانى والتعليقات التى تقدمها الإذاعة ، أخبار عن اشتباكات فى أحياء مختلفة ومطاردات وأعمال تخريب ، ولا توجد أنباء محددة عما حدث، ولماذا ؟ أدير مؤشر الراديو على إذاعات أجنبية، تقديرات عن حجم الاشتباكات ، وأحياء انطلقوا منها فى أطراف مختلفة من المدينة ، وتدخل قوات الجيش ، تحليل عن تزايد نشاط بعض الجماعات فى الآونة الأخيرة والفرص المتاحة لهذا النشاط والصراعات مع البوليس والسلطة .

fb/mashro3pdf

الوقـــت يمر ثقيلا بجوار الراديو وداخل جدران المنزل ونحن محبوسان فيه، لا نستطيع الاتصال بالجيران ، ومع قدوم الليل يزداد توتر أبى، عيناه تحاولان اختراق النوافذ والجدران، يقول إنه عاصر احداثا وشارك فى مظاهرات وشهد حروبا ، لكنه لم ير مثلما يحدث الآن، حركته لا تهدأ داخل المنزل ، يصطدم أثناء سيره بقطع الأثاث، ويوقع أشياء على الأرض .

- رحمتك يا رحيم .

أحـاول أن أهدئه ، وأقنعـه أن ذلك لن يدوم طويلا، جـدران البـيت المتـآكلة تحتوينا، كل البيوت الأخرى يمكن للجيران فيها أن ينتقلوا بين الشقق والتلاقى فوق الأسطح وخلال النوافذ المطلة على المناور بيتنا طابق واحد ، جزيرة منعزلة ، ينكمش أبى فى مقـعده ، نتـجاذب حديثا مبـتوراً ، لا أعرف كيف أجـعل الوقت يمضى فى هدوء .

أخشى أن تفاجئه الأزمة ونحن محبوسان ، النوافذ مغلقة والأبواب ، أدور بين الحجرات وأنادى فلا يجيبنى أحد، أتجه نحو الباب ، أفتح الباب الخارجى ، فوهة بندقـيـة مـشـهـرة فى وجـهى ، يخـتنق صـوتى وأنـا أحـاول أن أشـرح فى كلمـات ســـريعة دون جدوى، أنظر إليـه وهو ممـدد على السـرير، أتأمل وجـهه وبشـرته الرقيقة المجعدة وعينيه اللتين تغوصان فى الحدقتين ، ينظر إلىّ قليلا ثم يغمض عـينيه ، أرقب الخطوط الدقـيقـة فى ثنايا وجـهـه ويخـيل الىّ أنهـا تتمـدد ، وظلال ابتـسـامـة اســـتكانت فى زاويتى الفم ، ابيـضـاض شـعـر الرأس وتطايره عن مقدمتـه ، وابيضـــاض الحاجـبين الكثيفين كالزغب ، دكنة تغوص فـيها تزداد درجتها ، ويتحول الشعر الى السواد وبشرة مفرودة ملساء، والابتسامة تتسرب الى الشفتين ، أنظر إليه طويلا أقترب منه، وأتناول يده المسترخية بجواره، برودة ثلجية مباغتة ، أصرخ :

fb/mashro3pdf

- ماذا بك ؟

يمسك بكتفى ويهزنى .

- لا شىء .

ينظر حوله ولا يرى شيئا محددا، يتابع صوت الراديو .

- أحدث شىء ؟

لا أدرى بم أجيب ، أقول : سقط قتلى .

- كثيرون ؟

يسأل مرة أخرى ، فأقول : لا أعرف .

- لن يمر الأمر بسلام .

إظلام تام وعزلة تامة ، وصوت أقدام الجنود ، تعليمات بصوت عال، وهمس خفيض لا يفصلنى عنه سوى جدار ، أوى أبى إلى الفراش ولا أدرى إن كان نائما بالفعل أم مستيقظا مثلى .

يذاع فى الصباح بيان عن رفع الحظر لمدة ثلاث ساعات فى فترة الضحى وحتى الظهيرة فى بعض الأحياء ، حتى يستطيع الناس الحصول على احتياجاتهم ، بمجرد حلول الوقت ينفجر الضجيج والصخب ، كأنما كل الناس بدأوا يتحركون فى نفس الثانية ، زحام شديد فى الشارع تقطعه صرخة طويلة ، ثم صرخات أخرى تعلو على كل الأصوات ، امرأة تلطم وجهها ، وقد التف حولها البعض فى الشارع تجلس على الرصيف يقولون إن ابنها ألقوا القبض عليه، يسرع أبى مهرولا إلى اصدقائه .

زحام شديد حول المتاجر والأفران التى فتحت أبوابها سريعا ، أجد صعوبة شديدة فى محاولة اختراق الزحام وأظل بعيدا، أتطلع الى الوجوه لعلنى أعرف احدا ، وعندما يخف الزحام قليلا تكون معظم الأطعمة قد انتهت ، اسأل عن

fb/mashro3pdf

الموجود منها وأحصل على القليل ، ألمح أثناء عودتى شكرى زوج لويزا ، أسأله عنها فيقول إنهم بخير ، وقد تجمع سكان المنزل معا يتنقلون من شقة الى شقة، يشير إلى حقيبتى شبه الخاوية ويعطينى رغيفين .

ألمح لويزا وهى تشير لى من شرفة عايدة، أصعد اليها ، تعطينى برطمان مربى ، وأجد مجموعة منها متراصة على منضدة الطعام، تقول إنها وزعت كمية كبيرة على الجيران ولديهم ما يكفى ، كانت تجلس هى وعايدة تسألاننى عن أبى وتتحدثان عن ساعات الحظر وكيف أمضتها كل منهما .

سبقنى أبى إلى المنزل مع بعض أصدقائه الذين وجدتهم أحضروا له بعض الأطعمة والفاكهة ، أذاع الراديو أخبارا عن القبض على عدد كبير من الإرهابيين والمخربين والمشتبه فيهم، وناشدوا المواطنين الإبلاغ عن أى عناصر منهم، أو عن أى تحركات غير عادية والإدلاء بأية معلومات يتوصلون إليها، مضى الوقت أقل توترا من الأمس ، وفى المساء قالوا إن الحظر سيرفع عن بعض الأحياء والمناطق حتى منتصف النهار ومعظمها قريب من وسط المدينة .

طرقات على الباب خافتة وسريعة ، ينهض أبى وأنا ممسكة بكتفه، صوت نسائى لا أستطيع معرفته : افتحى الباب بسرعة أرجوك ، أقف للحظات ، أخطو وأبى نحو الباب ، تندفع بمجرد فتح الباب ، وجه مغطى بالكدمات وشعر منفوش تمرر يدها عليه : أنا مها .

أنزعج من منظرها ، تقول : سأبقى معكم قليلاً .

– ماذا بك ؟

يهتف أبى من الفزع والاستغراب .

– كاد يفتك بى ، هربت منه بصعوبة ، أعتقد أننى لن أستطيع الخروج بسبب الحظر، استوقفنى جندى وتبعنى حتى هنا .

fb/mashro3pdf

أهدئها وهى تغسل وجهها وتنظر إلى صورتها فى المرأة وتأخذ فى البكاء ، ثم تمسح عينيها .

يقول أبى : هل أتصل بهم أو بالست عايدة أو أحد من إخوتك لأخبرهم ؟

– لا ، أرجوك .

– حتى تطمئن أختك .

– لن يعلموا حتى الصباح .

يشير لها أن تستريح ، أصطحبها إلى غرفتى .

– سأترك البيت لا محالة ، لكن الأولاد ...

– وأين تذهبين ؟

– الأمر بسيط ، المهم أن أخلص منهم .. أهله وأهلى .

أقوم بإعداد العشاء ، أفتح برطمان المربى وأجد أن طعمها ورائحتها قد تغيرا، تعمل لويزا كميات كبيرة منها وتحتفظ بها لإخوتها الذين لم يأت أحد منهم منذ فترة .

تتناول مها قليلاً من الطعام بإلحاح منى ، تقول إنهم جميعا السبب ، منير لم يهتم بالتدخل لإيقاف ما يحدث ، وعايدة تطلب منها التحمل باستمرار ، وتتهمها بأنها المخطئة حتى تكف عن الشكوى ، أهله يتدخلون فى كل كبيرة وصغيرة فى حياته لأن أعمالهم مرتبطة معاً ، وهى لا تعرف شيئا عنها ، تقول كأنها جارية عندهم ، قالوا لها: إذا أردت الحصول على الطلاق فاخرجى كما أنت ، بطولك ، واتركى الأولاد وكل شىء .

تقول مؤكدة : لا تقولى لأحد إننى جئت هنا ، مهما كان الأمر .

– لن أقول ، لكن ..

– ماذا؟

fb/mashro3pdf

تنظر بقلق، فأقول : أبى سيقول ، تعرفين علاقته بأبيه ، يجلسان معا عند العطار .

– عموما لن أمكث طويلا ، حاولى معه!

– سأحاول .

– هل تعتقدين أن الحظر سيستمر طويلا؟

– لا أظن .

أغفو قليلا فى منتصف الليل ، وأستيقظ مبكراً لأجدها جالسة بجوارى فى الفراش ، لم تنم ليلتها .

تقول : هل أستطيع أن أمكث اليوم .

– نعم بالطبع .. هذا بيتك .

تقول : أكدى فقط على بابا .

– لا تحملى هماً .

تتحدث عما يفعله سعيد ، خشونة وتصرفات فظة ، أبدى دهشتى وأقول لها : كان يفخر دائماً هو وأسرته بأنه تزوجك وصاهروا أسرتكم والكل يتصور أنك مدللة بينهم .

تبتسم بمرارة : الوضع انقلب ، الدنيا كلها .. تصورى ، يقول أشترى عائلتك كلها بفلوسى . ماذا يعنى دكتور جامعة أو طبيب . أشترى جامعة بأكملها وأشترى مستشفى بمن فيها ، الفلوس هى كل شىء بالنسبة لهم .

عندما بدأ فك الحظر اعتراها قلق متزايد ، تتأكد من إغلاق باب الحجرة طوال الوقت تحسباً لأى قادم ، يخرج أبى فيزداد توترها ، لكنه يعود مسرعا ، لم تسترد بعض هدوئها إلا فى منتصف النهار بعد انتهاء وقت رفع الحظر .

fb/mashro3pdf

عرض عليهـــا أبى أن يتدخل فى الموضوع ممهـداً أنه لا يرضى عما لحق بها ، لكنها على الفور رجته ألا يفعل ، حاولت أن تقنعه أن الأمـــور ستمضى على ما يرام وأمضت ليلة أخـــرى ، وعندما أستيقظنا فى الصباح وجدتها تقـــول إنهـــا ستعود للبيت ، حيرنى تغير موقفها المفاجـىء ، وأكدت مرة أخرى ألا أخبر أحداً .

أسألها : وماذا ستفعلين ؟

– سأعود من أجل الأولاد .

تنظر إلى بامتنان : سببت لك قلقا .

– أبدا ، لكن أرجو أن تطمئنينى عليك .

تخرج وتترك دهشة وتساؤلا وقلقا أقرؤه على وجه أبى .

أذاعوا بياناً أن ساعات رفع الحظر ستمتد إلى ما بعد منتصف النهار ، وبإمكان الناس أن يذهبوا إلى أعمالهم ، وأن الحظر سيستمر فى بعض الأحياء البعيدة والضواحى على أطراف المدينة ، وفى الصباح ذهبت الى العمل وأمضينا ساعات قليلة وانصرفنا قبل الموعد .

يستقبلنى أبى بمجرد دخولى المنزل : أين ذهبت مها ؟

– إلى بيتها ، لماذا ؟

– ألم تقل لك أين ستذهب ؟

ينظر إلىّ متفرسا ، أقول له : وأين ذهبت ؟

– أخذت الأولاد وخرجت فى الصبـــاح ، ولم تعد حتى الآن ، اتصـــلوا بها فى العمل فقيل إنها لم تـــذهب ، سألوا عند إخوتهـــا وصديقاتها ، ولم يعرف أحد .

fb/mashro3pdf

(٢٤)

تنحسر الأحداث شيئا فشيئا وسط بيانات حماسية ومعلومات مبهمة ومارشات وأغان زاعقة ، أحاديث فى العمل والشارع والبيوت تتناول ما حدث ، وأخبار عن استمرار حملة اعتقالات لبعض الناس ولشخصيات عامة فى مجالات مختلفة ، باعتبارهم قاموا بأدوار ساهمت فيما حدث ، اشتباكات تنحصر فى أحياء بعيدة فى الأطراف ، أخبار تتناهى عن حصار الأحياء واستمرار القتال وسقوط قتلى وجرحى ، تتردد أسماء : الزاوية ، إمبابة ، عين شمس ، بولاق الدكرور ، السلام الطالبية .

سألوا عن مها عدة مرات ، لا أحد يدرى أين ذهبت هى والأولاد ، فى العمل قالوا إنها قدمت إجازة ، تلح عايدة فى السؤال ، أؤكد لها أنها لم تخبرنى بشىء .

تقول : أرجوك لا تحاولى أن تدارى .

– بالفعل لا أعرف .

تنتحب طويلا ، وتطلق شهقة ، مرات تحاول أن أعيد عليها مادار بيننا من حديث ، ويحاول أبى بدوره أن يستدل من حديثها معى ما ينم عن وجهتها وما تنتويه.

أنظر الى تلك الملفات المكومة على الأرفف تقع عينى على اسم الزاوية ، رفع معمارى للزاوية ، حى فى طور الإنشاء ، أحاول أن أتذكر المكان تحديدا

fb/mashro3pdf

بؤرة تندلع منها أحداث دامية واشتباكات ، تسفر عن تلك الزاوية فى ثنايا الخارطة .

مخازن أسلحة . إرهابيون . بلطجية . ضحايا . قتلى . عنف . حرائق . اشتباكات . اعتداءات على السكان فى البيوت ونهب محتوياتها ، بيان يتلى عدة مرات عن نائب الحى يدين شخصا استولى على أرض للأوقاف ، وقام ببناء كنيسة عليها دون تصريح، مشاجرات صغيرة بين الجيران، أطلق فيها رصاص، امتدت الى الحى والمدينة، القبض على الرجل الذى استولى على الأرض ، وأعداد كبيرة من البلطجية والإرهابيين والمشتبه فيهم والخارجين على القانون ، وإطلاق النار من البيوت وعليها .

عزب صغيرة وبيوت طينية منعزلة لا تكاد ترتفع عن الأرض إلا قليلا، تقع على أطراف قرى لم يعد لها وجود ، ترعة مكدسة بالمخلفات المتحللة ، شواديف تروى حقولا صغيرة، مصانع تتطاير أدخنتها عبر فضاءات الحقول، أطفال فى ملابس رثة ، يقطع بعضهم مسافات كبيرة إلى مدارس بأحياء مجاورة ، مساكن شعبية وبلوكات مزدحمة ومتراصة وأناس لا يدرون شيئا عما حولهم .

لحظات أحاول أن أستجمع الذاكرة فتزايلنى الخرائط ، أقف عند نقطة التلاشى ، أتلمس ملامح تنعكس كالمرايا .

بيوت تحيط بها حدائق ، ساحات ومنتديات، مدارس ومستشفيات ومصانع وحقول ونقابات وملاهى ، تماثيل رخام على حافة ترعة ، وأطفال يمرحون .

أغلق جهاز التليفزيون الذى نسيته ، ومازال يعلق على ما حدث مكررا نفس الكلام .

fb/mashro3pdf

بيوت صغيرة من الطوب ، تتخللها أبنية طينية، وتزاحمهم بلوكات إسكان شعبى ، تتكاثر وتلتهم المساحات الخضـــراء ، جو معبأ بالأدخنة وخضـــرة طحلبية تتسلق الجدران الرطبة، أكوام من الحطب وعشش الدواجن فوق الأسطح يختبىء خلفها قناصة ملثمون ومسلحون ، قتلى فى الشوارع وجرحى فى كل مكان ، أناس ملامحهم ساكنة وبشرة نحتتها الشمس ، تتبدل ملامحهم مع قدوم الليل .

يقول أبى : أعرف المنطقة ، الى وقت قريب كانت كلها غيطان وفلاحين، لم نكن نسمع عن تلك الأحياء .

– ذهبنا إلى هناك ، قمنا برفع معمارى للمنطقة وهى فى بداية تحولها الى حى سكنى، كانت الأرض مزروعة وقتها ولم يكن سوى الفلاحين وبضعة بلوكات إسكان شعبى .

ينظر الى بانتباه : تفتكرى كيف وقعت تلك الأحداث ؟

– لابد أنها تغيرت كثيرا لا أعرف كيف هى الآن .

– الدنيا كلها تغيرت العباسية نفسها كانت صحراء ، كنا نخشى الاقتراب من أطرافها حتى قبل غروب الشمس، كانت الصحراء تحيط بها، وشارع العباسية هادىء إلا من قليل من المارة والعربات والترامواىات الخاوية، وعندما كنا نصل اليه بعد غروب الشمس كان الدرك يستوقفوننا .

يصمت قليلا ثم يقول : زمن !

شهد أبى بعض البدايات فى العباسية عاش تطوراتها ، يعرف جيداً الأحياء القديمة الأخرى والشوارع فيها ، رأيت الزاوية فى بداية تحولها إلى حى سكنى ، لم أعرف أى شىء عنها فيما بعد.

fb/mashro3pdf

يتصفح أوراق الجريدة سريعا ثم يضعها جانبا ويتناول كوب الشاى .

- لماذا ظلوا ساكتين حتى تفاقم الأمر هكذا ؟

- لا أحد يعرف بالضبط .

- لم يكن ينبغى أن تفعل ذلك ، لكن يبدو أنها اشتكت كثيرا ، ولم يحاول أحد التدخل لحل المشكلة، كان شكلها مبهداً .

- أتقصد مها ؟

تعاود عايدة السؤال ولا تجد إجابة شافية وهى تردد متوسلة : ماذا يقول الناس ؟ هربت .. تصوروا ؟ زوجها قالها ، قال هربت من البيت ، ويشيع ذلك .

تؤكد بإلحاحها فى السؤال على أننى أعرف ولا أريد أن أخبرها ، وتلمح الى أننى مسئولة بشكل ما ، نفس الطريقة التى كانت تسأل بها دائما عما تفعله مها، لابد أن يكون شخص ما مسئولا عن تصرفاتها ، لماذا تأخرت فى العودة من المدرسة لماذا تريد شراء شيء ما ، لماذا تريد الخروج ، أو لماذا تريد أن تفعل كذا ؟ ولماذا قالت كذا ؟ تؤكد ذلك قائلة : أنا خائفة عليها ، مها لا يمكن أن تفعل ذلك من نفسها .

تقول لى لويزا جانبا : لا تأخذى الأمر بحساسية ، فقط قدرى ما هى فيه، وموقفها أمام الناس ، حاولى فقط أن تتذكرى ما قالته لك مها بالضبط .

يجلسون فى بيتنا ومعهم كمال زوج عايدة، يغلبها البكاء أثناء الحديث ويهتز جسدها المكتنز وقد ربطت رأسها بإيشارب عقدته خلف رأسها .

تقول : أنا التى طلبت من إخوتى ألا يتدخلوا كى تكف عن الشكوى وتظل ببيتها ، طلبت منى فى الفترة الأخيرة أن تبيع نصيبها فى البيت ، حاولت أن

fb/mashro3pdf

أثنيها عن ذلك ، قلت لها يجب أن يظل لنا ولا نفرط فيه ، وأمام إلحاحها دبرت لها المبلغ وبعت مصاغى واشتريت نصيبها .

يحاول كمال أن يوقفها عن البكاء، ثم ينهرها بصوت مرتفع : كفى كى نستطيع الحديث بهدوء .

يأتى والد سعيد زوج مها ، يقول إن سعيد مصر على الطلاق ، بصراحة لم يعد لها عيش بعد ما فعلته ، نأخذ أولادنا أولا ثم يطلقها .

يحاول أبى أن يهدئه لكنه يستمر فى ترديد نفس الكلام ، يقول أبى إنه رآها بنفسه فى حالة يرثى لها وإن ذلك لا يرضى ربنا .

تمسح عايدة دموعها قائلة : هو السبب اشتكت لى كثيرا وتحملت كثيرا لكنه لم يقدر ذلك ، وأخيرا فعل ما فعل .

يقول والد سعيد : أهذه أفعال بنات الأصول ؟ تهرب من بيتها .

مها الطفلة الصغيرة المدللة للأسرة ، كانت تخطو أولى خطواتها وقد احتل إخوتها مناصب مرموقة، أستاذ الجامعة وطبيب وطبيبة وضابط، وعايدة أكبر الإخوة ، ظل لها وضع مميز ليس فى أسرتها فقط لكن بين الجيران وفى المدرسة أسرة سعيد كانت تفخر بمصاهرتهم ، ما أغدقوه على العروس وحفل العروس الذى أقيم بأحد الفنادق الكبرى ظل حديث الجيران لفترة ، دمية فى فاترينة تسابق الكل فى إغداق ما لديه عليها .

– كل شىء تغير ، لا بد أن نتعرف على الواقع عن قرب .

يقول مصطفى ، ثم يكمل : الهوية ليست ملصقاً .

أقول : نبدأ القديم أم بالجديد ؟

يقول : الأحياء القديمة والبيوت ، أماكن مهملة ، تتدهور مع الوقت ، يمكن أن تكون شيئاً آخر إذا نظرنا إليها برؤية جمالية .

يقول عصام : ليس الترميم فقط، لماذا نحصر أنفسنا فى القديم ؟ لماذا

fb/mashro3pdf

لا ننشىء جمعية إسكان يمكن من خلالها تقديم نماذج لبيوت وأبنية بالشكل الذى نريد، ويريده الناس، تقديم أشكال متطورة لعمارة مرتبطة بالبيئة فى المدن والأحياء الجديدة بدلا من تلك النماذج الغبية النمطية .

يقول مصطفى : ذلك بالتحديد ما أريد أن أحققه ، لكن فى البداية لا نستطيع توفير الإمكانيات لتنفيذها ، ويمكن أن نحققها فيما بعد ، الآن أود أن نبدأ بأشياء تغير من نظرة الناس الى البيوت والأماكن بحيث يسعون هم أنفسهم لتغييرها الى الأجمل، وذلك أمر مهم لأنه حتى الأبنية الجميلة تتدهور لأن الناس ليس لديهم الوعى الجمالى بالمساكن والأبنية ، ولا تتوافر لهم فرص أو إمكانية للاختيار .

ينظر إلىّ قائلا : ما رأيك ؟

– أن نعرف ما يجرى حولنا عن قرب ، أفكر أن نهتم بعمل دراسات ، نبلور أفكارنا حول أشياء محددة ، ونضع تصورات لأشياء محددة نبدأ بها ، فالتعامل مع الأبنية فى الأحياء القديمة يجب أن يتم بالحفاظ على الطابع التاريخى المميز لها ، أما الأبنية الحديثة يجب أن تكون فى مناطق وأحياء جديدة . لقد انشغلنا بالقديم فقط ونترك الأحياء الجديدة فى الأطراف التى عاصرنا بداياتها بعيداً عن مجال تفكيرنا ورؤيتنا حتى تمت صياغتها على هذا النحو ، وأصبحت أخبارها تترامى بشكل مفاجىء ومزعج .

تتدخل تهانى قائلة : نعم الأمر يحتاج إلى دراسة الجوانب الاجتماعية ، يمكن أن أساهم معكم فى ذلك .

يقول مصطفى : للأسف ، فشركات المقاولات والمقاولون قد أشاعوا فوضى معمارية لا تراعى حرمة الأماكن وقدسيتها أو الحق العام للناس فى هذه الأماكن، ذلك يتم لصالح فئات محدودة .

أقول له : أتذكر عملية الرفع المعمارى التى قمنا بها لمنطقة الزاوية؟

fb/mashro3pdf

يقول : آه ، تذكرت ذلك عندما وقعت الأحداث وأنا فى ألمانيا ، هى نفس المنطقة ، أليس كذلك؟

- لا أتخيل كيف وصلت الأمور فيها إلى هذا الحد ، وكيف أصبحت الآن!

- لأنها تنمو بلا تخطيط وتتحول بلا تخطيط ، كل شىء متروك للمصادفة وضغط الحاجة ، فتتحول مع الوقت إلى عناصر صراعية ، وكان ذلك ضمن توصيات رسالة الماجستير ، تناولت فيه بعض هذه العناصر التى تتحول إلى شكل صراعى بين مجتمع الريف والمدينة ، كلام كثير قلته أنا وغيرى ، العمارة لا تخلق من فراغ ، وليست المشروعات السكنية مجرد صناديق يعبأ فيها الناس .

يقول عصام : شركات المقاولات والمقاولين ليس لديهم الوقت لمثل هذا التفكير .. من الذى يملك ومن الذى يبنى؟

يقول مصطفى : المسألة يمكن أن تكون بسيطة .

أقول له : وصعبة إلى حد الاستحالة .

يدعونا لرؤية الشقة التى استأجرها ليعدها كمكتب ، تشق بنا العربة شوارع ضيقة ، أبنية يقطعها شارع رئيسى ممتد بطول الحى رغم ضيقه ، يركن العربة جانباً ونعرج إلى حارة ضيقة يقع المنزل على ناصيتها ، بيت قديم متآكل الجدران وغبار متراكم على الحوائط ، يحوى كل طابق شقة .

يخطو مصطفى إلى الداخل وتسابقه تهانى ، فرحة رغم قلقها ، حوائط مطلية بالزيت منذ زمن ، تقشر الطلاء فى أجزاء منها ، صالة واسعة وثلاث حجرات ، اثنتان منها تطلان على الشارع الرئيسى وأخرى على الحارة .

تقول تهانى : جميلة وواسعة ، لكن تحتاج إلى إعداد .

تفتح حجرة قائلة : يمكن توسيع الباب وإضافتها إلى الصالة عند الضرورة

fb/mashro3pdf

مثل الاجتماعات و الندوات ، وهذه الحجرة مكاتب ومنضدة رسم ، ونضع مكتبة هنا .

تنظر إلىَّ قائلة : فكرنا فى أشياء كثيرة .

يقول مصطفى : ونستعين بشباب جدد للعمل معنا ، أود أن يتسع المجال لأفكار جديدة .

تقول تهانى : سنعمل حفلاً للافتتاح .

يقول عصام : نعم ، لا تنسى أن تستعينى بخبرة ليلى ، فسنحضر حفل افتتاح شقتها الجديدة وانتهاء العمل فى بيتها الجديد .

أقول : أنا مترددة فى الذهاب .

يقول : أنا غير متردد ، أود أن أرى وأتفرج .

تقول تهانى : لم لا؟ نذهب معاً .

تخترق بنا العربة شوارع ضيقة تنتهى إلى تلك العمارات والأبنية الضخمة التى يتوارى النيل خلفها .

يقول عصام : انتبه !

يتوقف مصطفى فجأة ، وتهتز بنا العربة ونحن مأخوذون بغتة .

يضحك عصام قائلا : لم أقصد ، كنت أود أن أقول له انتبه إلى تلك المتاريس.

يقول وهو يشير إلى تلك الأبنية .

أعيد قراءة الصحف والمجلات ، أتوقف عند تفاصيل الأحداث المنشورة ، والوقائع التى جرت خلال الاشتباكات ، أحاول أن أتخيل كيف تحول الحى إلى ساحة معارك .

- كان بالإمكان إيقاف ما حدث .

fb/mashro3pdf

يقول يوسف وهو يشير إلى الخارطة ، ثم يستطرد :

الأحـــداث تطورت بسرعة وعلى غير توقع ، ولأســباب واهية كان يمكن تلافيها .

أضغط بإصبعي على الخارطة فينزلق على صفحتها .

– حي شعبي تنقصه الخدمات والتنظيم .

– وما علاقة ذلك بما حدث تحديداً؟

– خلق حالة من التكيف ، قمنا بدراسات هناك من خلال المؤسسة ، وتم إنشاء مركز خدمات ، عيادة ، نادي طفل ، ناد للمسنين ، مشغل فتيات ، قدمنا ذلك كنموذج يمكن تعميمه في أجزاء أخرى من الحي أتذكرين عندما قمنا برفع معماري للحي ، لقد تذكرت ذلك وأنا الذي اقترحت عليهم في المؤسسة إقامة هذا المركز هناك ، واستعنت بالدراسة التي قمنا بها .

يقطع التاكسي بي الطريق بينما أقرأ لافتات الإعلانات على جانبي الشارع ، توكيلات تجارية لأسماء معروفة ، وماركات شائعة من السلع ، مخازن ، شركات مقاولات ، شركات توزيع ، اختفت لافتات كثيرة لورش قديمة ومصانع صغيرة وتجارة مانيفاتورة ، ترام مزدحم بالركاب تمتد خطوطه مكان الحديقة التي كانت تتوسط الشارع .

يسألني السائق ونحن نقترب : أين بالضبط؟

أقول له : داخل الحي .

يقول : مستحيل .

يتوقف بعد قليل معلناً أنه لن يستطيع السير أكثر من ذلك .

مدخل لشارع رئيسي واسع يخترق الحي ، اصطف على جانبيه باعة متجولون افترشوا الأرض وتزاحمت عرباتهم ، فاكهة ، عدد وآلات ، أدوات

fb/mashro3pdf

منزلية ، ملابس ، أسير مسافة قصيرة لأجد تلالا من الطمى والأتربة على جانبى الشارع ، وأخدود طويل يشقه .

تقترب سيارة جيب متهالكة ، قبل أن تصل إلى نهاية الشارع وهى تبطىء من سرعتها وقبل أن يهبط من فيها من الركاب ، حتى يتدافع نحوها العشرات ، أعمار وأزياء مختلفة وملامح متباينة ، فى ثوان تمتلىء ، ثم يقف أشخاص على جانبيها ويتشعبطون خلفها ، ويسير الركب أشبه بمجموعة من النمل تجمعت حول ذرة سكر أو نتفة خبز ، ويتكرر المشهد كل بضع دقائق ، وأحيانا تستبدل العربة الجيب بعربة بيك آب يقفون فيها متزاحمين .

أسير بصعوبة وسط تلال من الطمى والأتربة على جانبى الطريق ارتفعت بارتفاع الطوابق الأولى من البيوت فى الشارع ، أسير فى منحنيات الشوارع الجانبية فى المواضع التى يستحيل السير فيها ، ثم أعود إلى الشارع الرئيسى ، وأرى العربات تعبر نفس المنحنيات فى طريقها إلى داخل وخارج الحى .

الشارع ينقسم إلى قسمين ، ينقسم إليهما الحى ، بلوكات سكنية حكومية متراصة وتمتد إلى مسافات طويلة فى جانب منه لا أدرى أين تنتهى بالضبط وعلى وجه التحديد ، ثم الجانب الآخر بيوت أهالى ، زحام شديد وضجيج فى كلا الجانبين ، أتطلع إلى البيوت وإلى الناس والوجوه لأتبين أثر ماحدث ، لا شىء سوى كلمات عابرة تترامى كأمر عادى ، وبعض أفراد الشرطة فى أماكن متباعدة .

بيوت ذات ارتفاعات متقاربة حوالى أربعة أو خمسة طوابق ، برك مياه وسط الشوارع مداخل جهمة وسلالم متآكلة ، مساحات متقاربة تتخللها بين حين وآخر

fb/mashro3pdf

بيوت كبيرة مرتفعة ذات مساحة أكبر ، ضعف أو ثلاثة أضعاف المساحات الشائعة للبيوت .

أسير فى جانب من الحى إلى مسافات طويلة ، لا أستطيع أن أتبين معها حدوده ، ثم أعبر إلى الجانب الآخر على لوح خشبى فوق الأخدود الذى يقطع الشارع حيث يتزاحم الناس على جانبيه فى انتظار دورهم فى العبور .

لا أستطيع أن أميز الأماكن القديمة وسط بيوت الأهالى ، البيوت الطينية والترعة وحنفية المياه ، منطقة جديدة لا أعرفها ولا أعرف أحداً فيها.

كيف حدث ماحدث ؟ ولماذا ؟

fb/mashro3pdf

(٢٥)

جدران مبتورة تعلو قليلا عن الأرض ، تتآكل أجزاء منها ثم تختفى ، ينبش الأرض مشيراً الى آثارها التى تلاشت ، ثم تظهر فى أماكن متفرقة أجزاء منها ، لا ترتفع سوى بضعة سنتيمترات .

- أمتأكد أنها كانت هنا ؟

يلوح بذراعه وهو يلف حول نفسه .

- وفى أماكن كثيرة .

يسير بنا فى فضـــاءات واسعة تبدأ حيث تنتهى الحقول ونحن نمضى فى أثره .

- ألا تصدقوننى ؟

- نود أن نعرف .

ينحرف جانباً إلى أطلال مهدمة ، زوايا متهدلة ، وأجزاء من حوائط أزيل عنها الملاط ، تكشف عن قوالب لبن متآكلة .

- كلها اندثرت كما راح ساكنوها ، لم يبق سوى أطلال .

- أين ذهبوا ؟

- لا أحد يعرف عنهم شيئا .

- لكنهم موجودون .

fb/mashro3pdf

- وربما تلتقون بهم دون أن تعلموا .. وربما لا .

أنظر إليه فيقول : هل يسأل أحد من كان يخطو فوق تلك الأرض قبله ، أو من سيخطو بعده ؟

- لكنهم كانوا موجودين بالفعل ، وكانت الحقول تغطى تلك الأرض قبل أن يولى النهر بعيداً .

- كما نحن موجودون الآن .

حوائط مازالت قائمة ، مطمورة وسط الأنقاض ، سقوف بالقش والحطب وعروق الخشب تبدو أطرافها بارزة عن الحوائط ، يستلقى مستطيل من الشمس على العتبة ، ورائحة عطنة ممتزجة برائحة عطر وبخور معتقين ، فتحات مسدودة فى الجدران ، نقف عند الباب ، ضربات فى الحوائط وآثار بقع دماء .. نتراجع مسرعين .

- لا أحد يرى ، لا أحد يسمع .

ينظر إلينا مكملا وخطواته تسابقنا : أذكر أن غيرى قالها قبلى ، لكننى ألفها، كأننى الذى نطقت بها فى البداية .

ينفلت منا على نحو ما ونحن نتابع خطواته .

قلت له : علمنى ، وافتح لى دهاليز أسراركَ ومعارفك ، لكنه لم يستمع إلى ، كأننا لم نربَّ معا ونكبر معا ، ولم تطأ أقدامنا تلك الأرض سوياً ، علمته كل ما لدى من ضروب المعرفة التى خبرتها لكنه لم يعلمنى شيئا مما لديه .

أسئلة كثيرة تتزاحم فى رأسى وأنا أستمع إليه ، ويوسف يهم بما لديه

fb/mashro3pdf

من أسئلة تتقافز على وجهه ، استحثه ألا يسأل إلا من حيث ينتهى حديثه ، فلربما أجاب بعضها ، وربما يفتح الباب لتساؤلات جديدة .

عرفته كل شىء ، فكل ما أعرفه كان منبسطا فوق تلك الأرض ، أما مايعرفه فكان حبيس تلك الجدران الحجرية ، يقطر منها قطرات شحيحة تظمىء أكثر مما تروى ..

أعرف أن مايعرفه تزدحم به تلك الجدران ورغم أننى الذى شيدتها له ، لكنه لم يجعل قدمى تطأها .

لا أدرى كم من الوقت مضى ونحن نغذ السير ، عندما بدأت تلوح تلك الأبنية الحجرية من بعيد وسط تلال رملية أحاطت بها وأخفت الجدران .

بنيت له كما أمرنى ، نفذت له كل ما أراد ، لكنه لم يجب على أسئلتى ، لماذا يوضع الحجر فوق الحجر هكذا ؟ أنا أعرف كيف ، لكن لماذا .. لم يقل لى فى البداية ، ولم أعرف المغزى فى النهاية ، لو قال لى ما باد الكثير منها .

قلت له علمنى كى أبنى بيتا لا تطويه الريح ، أنعم فيه بيومى ، أستلقى فيه فيهبنى الراحة عندما أعود منهمكاً فى المساء ، لم يتح لى فرصة لأراه مستويا أمامى ، حتى نسيت كيف يكون .

يرتدى جلبابا واسعا ينتهى عند ركبتيه ، وقد شده بإزار من الكتان حول وسطه ، بينما تتطاير أطراف الشال المحيطة برقبته ، يعلو ويهبط فوق التلال الرملية ، يتوارى خلفها ثم يظهر .

لو قال لىّ ، لو شاركنى أسراره ، ماجرؤ الغرباء على الولوج إليها وما استأثروا يوما بها دونى .

fb/mashro3pdf

نواصل السير ويلوح صاعدا فوق التلال ثم يختفى خلفها ، حتى تلك البقعة التى توارى خلفها ولم يظهر ، نصل إليها ونتفحصها بدقة وننظر حولنا فى كل الاتجاهات .

- ماذا كان اسمه بالضبط ؟

- أحاول أن أتذكر .

- مفتاح .

- عبد الفتاح؟

- تاح.. تاح..

ننادى بأعلى صوتنا: عبدالفتاح.. مفتاح..

يتردد الصدى حولنا فى كل الاتجاهات: تاح.. تاح..

لا صوت يجيب، نقف حائرين لا ندرى ما نفعل، أحاول ألا تغيب صورته وملامحه التى انطبعت فى الذاكرة ، أذكره بأماكن كثيرة رأيناه فيها قبلا ، وتلك البقعة على شاطىء الخليج تحت تعريشة الياسمين ، والبيت الذى شطر الحائط نصفه .

يقول يوسف وهو يشيح بذراعه: لكن النهر ولى بعيدا منذ زمن.. الوقت يضيع هباء، هيا بنا.

- نتتبع أثره.

- محال.

- لن تمضى رحلتنا هباء.

- وما الجدوى؟

- أشعر أن فى الأمر شيئا ما.

يصر أن يمضى، أحاول أن أقنعه انه لابد موجود فى مكان ما، وأن نبحث

fb/mashro3pdf

عنه، بينما يصر أن ننصرف، ويحاول كل منا ما انتواه، نتحرك حولنا فى كل الاتجاهات ولا يدرى أى منا أين يمضى ، فنظل فى نفس المكان.. تلوح تلال حجرية فى بقع عديدة، يجلس يائسا.

يقول: نسينا ان نسأله لنعرف الطريق الذى أتينا منها.

– لم نعرف سره، كما لم نعرف سر رفيقه أو حتى اسمه.

يزداد الأمر التباسا، أتذكر كلماته ، أن سره منبسط فوق الارض، أنهض واقفة أنظر حولى إلى الأرض المنبسطة والتلال الرملية التى تتخلل مواضع منها، وتلك البقع المتباعدة لأبنية حجرية، أستحثه على النهوض، ينهض متثاقلا ونتجه نحو أحدها.

تلتمع نقاط عديدة لا نتبين كنهها ونحن نقترب من المبانى الحجرية، تومض للحظات وتختفى عندما نميل جانبا، نحاول أن نثبت أعيننا عليها بحيث لا تختفى ويظل وميضها دائما، نسير فى خط مستقيم، نقترب ونتبين أشكالها، مثلثات تتوسطها دائرة يمتد منها شعاع فى كل الاتجاهات، يستوى الطريق ويصبح صلبا، مدق حجرى مغطى بغبار ناعم خفيف، وتبدو الدائرة على مسافة أقرب من المثلثات وهى تعلو بوابة حجرية ضخمة.

نقف أمام البوابة ونتأملها باستوائها المائل الى أعلى حيث تبدو أكثر سمكا فى أسفلها ، وترتفع إلى ذلك المستطيل المستوى فى أعلاها مزدانا بالنقوش والرسوم ، تتوسطه تلك الدائرة الصلبة المحدبة التى يمتد شعاعها حافرا خطوطا صلبة عميقة على الحجر وقد تسللت الشمس اليها، فسال الشعاع والتمعت الدائرة.

نطل من منتصف البوابة ثم نميل جانبا، ونرى بوابات أخرى كأنها انطبعت منها، وتصل بالبوابة من الجانبين جدران عالية تبرز حولها فى الأرض نتوءات صغيرة.

fb/mashro3pdf

- لابد أنه مر بها.

- نعم، قال ذلك، كما قال إنه لم يعبر البوابة.

نطوف حول الجدران، قطع بازلت صغيرة مختلفة الاشكال تلتمع بينها شذرات من حجر الكوارتز وتجاويف صغيرة فى الأرض.

- نسينا أن نسأله عن خارطة.

- لم يقل إن لديه خرائط.

عوسج وحشائش وأعشاب متناثرة فى شتلات صغيرة نتبين بينها آثار أقدامه المفلطحة، تجاويف مظلمة تبرز حوافها فى نتوءات ، طمست أجزاء من فوهاتها تتعثر قدمى فى حجر مسنون، أمسك حافته وأجذبه ، تتحرك أتربة فوقه ويظهر بقيته، أتناوله ، صفحة مستوية رقيقة ومصقولة، تآكلت حوافها، ورسوم محفورة على أحد وجهيه، نقرأها:

«لقد سمعت الفاظ أمحوتيب وهارديف .

وهى ألفاظ ذائعة الصيت نطقا بها .

انظر الى مكانيهما.

ان جدرانهما قد جردت

كأن لم تغن بالأمس» *

يبدو الأمر أكثر غموضا ، نفكر بذلك ونحن نتكىء على الجدران الحجرية لنكمل دورتنا حولها، نعود إلى البوابة ونقف أمامها، ممر طويل يمتد أمامنا الى نقطة معتمة لا نستطيع أن نتبينها ، نعبر البوابة الى فناء واسع، ازدانت جدرانه بالنقوش المحفورة، بارزة فى بعض المواضع وغائرة فى مواضع

---

* نص فرعونى .

fb/mashro3pdf

أخرى ، وتماثيل على جانبى الفناء فى أوضاع شتى، آلهة وملوك وأمراء وكهنة وحاشية، نقوش على القاعدة، كلهم معروفون ، يمكن تمييز أى منهم عن سواه رغم تشابه الملامح، يتخذون أوضاعاً متشابهة إلا من رموز وعلامات مميزة خاصة بكل منهم، مثل التاج، والآلهة المحيطة به، والتجليات الأثيرة للآلهة لدى كل منهم، نكمل دورة فى الفناء الواسع ونقف أمام بوابة تالية فى مواجهة البوابة الأولى، تتوسط حائطاً يضيق عن الحائط المتصل بالبوابة الخارجية وموازيا له ، بحيث يأخذ الفناء شكل شبه منحرف، يتماثل ضلعاه الجانبيان.

نعبر الفناء إلى قاعة أخرى تأخذ نفس الشكل - شبه المنحرف - وتضيق عن سابقتها حيث يقل عدد الداخلين، على جانبى البوابة من الداخل مسلتان حجريتان ممتشقتان تنتهيان بقمة مخروطة ذات أوجه مثلثة براقة ترسل إشعاعها إلى الجهات الأربع، نعبر فى نهايتها إلى بهو الأعمدة التى تتزاحم فيه بانتظام على الجانبين على مسافات متقاربة، يتوسطها الممر الرئيسى ، ويقل عدد الداخلين إليها عن سابقتها، نعبر إلى قاعة أخرى للأعمدة ثم قاعة ثالثة بها حجرات فى جوانبها ، كل منها مخصصة لغرض مختلف، مكتبة. غرفة التحنيط . الزودياك . حجرات الكهنة.. ثم ينتهى الممر الذى يتوسط المبنى إلى قاعة معتمة تتوسطها مصطبة من الجرانيت، هى مائدة القرابين وفى مواجهتها قدس الأقداس حيث يمتثل الفرعون وحده فى حضرة الإله.

نقف أمام قدس الأقداس فى مساحة صغيرة لا تتسع سوى لوقوف الفرعون، نستدير فى مكاننا أمامه حيث يمتد محور أفقى طويل يمر عبر البوابات حتى البوابة الأولى ويأخذ المبنى كله فى النهاية شكل شبه

fb/mashro3pdf

منحرف وكذا الأفنية والقاعات يصل أقصى ضيق لها عند قدس الأقداس وأقصى اتساع عند البوابة الأولى ويضيق تدريجيا عبر القاعات، حيث يقل عدد الداخلين تدريجيا أشبه بقمع به عدة مصاف متدرجة ، تنتهي فوهته عند قدس الأقداس حيث يمتثل الفرعون أمام الإله .

تمتد نظراتنا بطول المحور الممتد حتى البوابة الخارجية، في الخارج على مرمى البصر تمتد كثبان رملية ينعكس عليها بريق محمر، نسير في خط مستقيم حتى نعود إلى البوابة الخارجية، نعبر منها ثم نتوقف أمام المعبد من الخارج، يصطبغ المشهد أمامنا بلون أرجواني يخطف الأبصار، نخطو بضع خطوات ، نلتفت نحو القرص المحدب، نتأمله بحمرته المتوهجة، تلتمع قمم الكثبان وتومض جوانبهـــا تألقا، تتحرك الأضواء عليها صاعدة هابطة، تتماوج معها في سيولة، يتحول معها الاحمـــرار تدريجيا إلى بياض ناصع، ثم تشوبه زرقة خفيفة تزداد دكنتها مع الحركة المتماوجة، ترسل وشيشا خافتا يتعالى شيئا فشـــيئا وتصطخب أمواجاً ، نقف عند حافتها ، تندفع المياه على أقدامنا فنلتصق بالجدار، نقفز فوق بردية عملاقة عائمة ومنبسطة على صفحتها ، تميـــل بنا جانبا ونحن نقفز فوقها ، نتوسطها ، نستلقي فوقها وأعيننا على القرص المحدب اللامع ، تبحر بنا، ويجـــدف كل منا جانبا بذراعه بينما ذراعانا الأخريان متشابكتان ومرفوعتان ومتعامدتان على أجسادنا .

نواصل التجديف في خط مستقيم وأعيننا على القرص المحـــدب، يتباعد المعبد بجدرانه الحجرية تدريجيا من أســفل الى أعلى، وتبـــدو الدائرة المحدبة والمثلثات التي تعلو المسلة نقاطا لامعة، تتألق في فضاء لامتناه فوق المياه.

fb/mashro3pdf

نجد نفسينا مستلقيين فى النهاية فى ذلك المكان فى فرجة بين الحقول، تحيط بها أعواد خضراء نامية، نمضى بين الحقول، وتلوح لنا بيوت طينية من بعيد، وترعة تنساب مياهها فوارة، وقد نمت الحشائش على جانبيها وظللتها الأشجار، تبرز من بين العيدان رءوس تتابع سيرنا ثم تختفى.

يشير يوسف نحو الحقول قائلا: كلها ستدخل كوردون المدينة.

أنظر إلى المربعات والمستطيلات التى تزدحم بها اللوحة.

- تبدو رتيبة ومملة، زنازين صغيرة.

- لو رأيتها ستغيرين رأيك، ستعجب الكثيرين ، أفضل مما كانوا يأملون .

- هل تعرف مايريدون حتى تعرف الافضل؟

- وهل يعرفون هم؟

أتركه وامضى مبتعدة، أسير داخل الحقول، ألمح جلبابا معلقا على شجرة.. جلبابه، أنادى بأعلى صوتى: مفتاااااح.

fb/mashro3pdf

(٢٦)

أنظر الى الورقة، أتأكد من العنوان قبل أن أغادر التاكسى، يستوقفنى موظف الأمن الذى يجلس إلى مكتب فى جانب من المدخل، أخبره ، يشير بيده فى اتجاه الشقة قائلا: الدور الرابع عشر.

تستقبلنى ليلى مرحبة، وأجد البهو ممتلئا بأشخاص ألمح بينهم مصطفى وعصام وتهانى وميرفت وخالد ويوسف، ومجموعة من الأجانب.

تمد إحداهن يدها وهى تبتسم.. نهلة.

تقول: كدت ألا تعرفيننى ، زمن!

بعد التخرج بفترة لم ألتق بها إلا الآن ، علمت أنها استقرت فى سويسرا هى ووليد، الملامح الطفولية وقد أصبحت ناضجة، النظرة المستقرة تتحرك وتتفحص مبتسمة، تقول إنهما يأتيان كثيرا ويتمنيان أن يعودا لكن الأمر صعب لارتباطهما بالعمل هناك والتحاق ابنتهما بالمدرسة.

بهو واسع، به مساحات خالية، حوائط مزدحمة بالصور والتابلوهات والبانوهات البدوية، أثاث مودرن أنيق، يجلسون فى جانب من البهو يحتل مكانا بجوار شرفة ذات باب زجاجى عريض يكشف مساحات كبيرة من المدينة.

تقول ليلى: ما رأيك فى الشقة؟

- جميلة ، مبروك.

fb/mashro3pdf

تعرفنى بماك، يصافحنى يقول إنه يعرفنى أنا والأصدقاء من خلال ليلى، يبدو ودودا وعلى قدر من الوسامة، يقول إنه سعيد أن التقى بنا.

تقول ليلى : جاء منذ أسبوع ومعه بعض الأصدقاء ، بعضهم موجود ، تشير إلى شاب وفتاة، وسوف يقومون بزيارة للاقصر وأسوان يعودون بعدها الى امريكا.

كل مجموعة من الجالسين تنتحى جانبا، وليلى تتجاذب أطراف الحديث مع الجانبين محاولة خلق حوار بينهما، تعرفنا بهم قائلة: بول.. كارين.

وهما الشاب والفتاة اللذان قالت إنهما أتيا مع ماك ، ثم بالباقين: نيل.. كارولين .. مارتا.. دافيد.. ريتشارد، وصديق تونسى اسمه عبدالكريم ، وآخر مصرى اسمه عزت.

ألمح عصام يهمس إلى تهانى وهو يومىء إلى خالد الذى يواصل حديثا مع ماك، بينما تهانى تبتسم، أجلس بجوارهم يميل إلى قائلا: لديها مهارة فائقة على تجميع ناس لا تربطهم أى علاقات لتكون هى محور العلاقات.

تقول تهانى :

هذا جانب .. تنظر إليه بجانب عينيها ويضحكان .

يتركنا ليتابع حديثا بين يوسف ومصطفى اللذين يجلسان بجوارى على الجانب الآخر.

يقول مصطفى: نود أن نخوض التجربة بأنفسنا نعمل بإمكانيات محدودة وسط أناس إمكانياتهم محدودة ، ونحاول البحث عن حلول غير تقليدية تعتمد على إمكانيات بسيطة.

يقول يوسف: وما المانع أن تتم الاستفادة من الخبرات المتوافرة، ليست الخبرات التي تعتمد على إمكانيات مادية فى العمل، وإنما مجرد تقديم

fb/mashro3pdf

نماذج لتدعيم الخدمات، نحن نقوم بدراسات حول هذه الجوانب التى تحتاج الى دعم.

– أعرف طريقتهم وتعاملاتهم ، تقديم خدمات لتسكين وضع ما، المسألة بالنسبة لنا أبعد من ذلك، لا أعترض مبدئيا على التعامل مع أية شخصيات او مؤسسات بالعكس نحن نسعى لاكتساب الخبرة فى مجالات وأشياء تهمنا.

يقول يوسف: فلنفكر فى أشياء تهمنا وتهمهم فى نفس الوقت، يجب ألا نتجاهل الموجات الحديثة فى العمارة.

يقول مصطفى : فى ألمانيا لفتت نظرى أشياء كثيرة عن تجربة بناء المدن بعد الحرب مع الحفاظ على طبيعتها وهويتها ، تعرفت على تجارب كثيرة خاضها المعماريون المحدثون أثناء الدراسة هناك، وفى أوربا بشكل عام ، أنا شخصيا استفدت من جوانب كثيرة منها، تابعت أيضا ما وجه اليها من انتقادات بعد فترة، هى الانتقادات التى وجهت الى تيارات الحداثة، أين نحن من هذه الحداثة؟ يتم نقلها خارج السياق مثلما انبهرنا بعمارة عصر النهضة والركوكو بعدما انتهت هناك بزمن.. ماذا نريد بالضبط؟

يقطع الحوار دخول ضيوف آخرين تقدمهم لنا ليلى : أحمد بك عبدالمجيد وكيل وزارة الاسكان، تشير لى قائلة: تعمل فى الوزارة.

يسألنى: أين بالضبط؟

– المتابعة والتخطيط.

يأتى صحفى أيضا، ثم يأتى شخص تستقبله متهللة، تقول: د. فتحى سلام.

ينظر إلى الموجودين باسما ويحييهم ، أستاذ علوم سياسية ويتولى مناصب عديدة وينشر مقالات ودراسات فى بعض الصحف، أثار ضجة بمقالاته

fb/mashro3pdf

التى نشرت مؤخرا وتناول فيها الأحداث الأخيرة وتحليله لها بإرجاعها إلى قضية أقلية قبطية فى مجتمع إسلامى، وقال إنها شكل من أشكال القبلية فى مجتمعات لم تأخذ دورها فى التطور بما يتجاوز تلك الأشكال القبلية.

تعرفه ليلى بالموجودين، ويبدأ حديثا مع نيل وكارولين ، فيما يبدو معرفة سابقة بينهم.

تعرف تهانى بمارتا قائلة إنها تهتم بقضايا المرأة وتقوم بدراسات عن المرأة هنا، وتبدأ تهانى حديثا معها.

تبدو متألقة ، لا تكف عن الحركة والحديث، تغيب للحظات لتشرف على إعداد المائدة ثم تأتى ، تهمس إلى الصحفى وتتناول منه بعض الصور، تقدمها لنا قائلة:

صور البيت والموقع ، ذهب هناك ورأى بنفسه ويعد ريبورتاجا عنه.

ينظر إلى الموجودين قائلا: عمل رائع يستحق التشجيع.

صورة لواجهة المنزل يتقدمه فناء محاط بسياج ويتوسطه باب مقابل البوابة الخارجية للمنزل، تتقدمه بضع درجات ويعلوه مثلث مزخرف وشرفة تحتل أحد جوانبه.

وجانب من المنزل به شبابيك صغيرة الحجم ، متفاوتة الارتفاع ، وصورة لممر داخلى يبدو معتما فى الصورة وفى نهايته إضاءة لمكان متسع، صورة لقاعة بها إيوان، أرضها مفروشة بسجاد بدوى ، شبابيك تنتهى بأنصاف دوائر ، وقد علقت على الحوائط قطع من نسيج بدوى.

نتبادل الصور فيما بيننا، وتقول ليلى: هناك خبر جديد، سأبدأ فى بناء ثلاثة بيوت أخرى، وقد تم اعتماد الميزانية لها بعد موافقة المؤسسة، بعد

fb/mashro3pdf

تقييمهم للبيت، وسأحاول أن أقدم ثلاثة نماذج أخرى لنفس الطراز من المباني، لتكون هذه البيوت نواة للقرية.

يصفق د. فتحي ، ويرفع دافيد كأسه ، وهي تعيد الكلام بالإنجليزية .

تواصل الحديث قائلة: المشروع محاولة للتسكين في مناطق صحراوية منعزلة تحيط بها تجمعات على مسافات بعيدة، بحيث يمكن لهذه النواة أن تتواصل مع غيرها مع تغير الظروف المعيشية للبدو وتغير المنطقة نفسها، أي مجتمع يتغير ، والمفروض الاستفادة من الطابع البيئي وتطويره، وقد جربنا أثناء العمل حفر بئر بطريقة حديثة غير تلك التي يستخدمونها ، وأيضا استخدام بعض مواد البناء الحديثة، وقياس مدى إقبال الناس، وهذا ما بدا من رد الفعل عندما شاهدوا البيت.

تحكي عن الصعوبات التي واجهتها في البداية، وتقول إنها في المرحلة القادمة لن تواجه مثل هذه الصعوبات لأنها اعتادت الحياة هناك، كما تستطيع الإقامة في البيت الآن بدلا من المسافة التي كانت تقطعها بين مكان إقامتها مع القبيلة وموقع العمل.

يعلق د. فتحي بعد أن تنهي حديثها قائلا: نحن نحييك على هذه التجربة، لا أعرف كثيـــرا في النواحي الفنية في العمارة، لكني أدرك أهمية تقديم مثل هذا العمل والتخطيط في مجتمع يتحول نحو الاســـتقرار، أما الجانب الآخر في الموضوع فهو الشجاعة في خوض هذه التجربة في مجتمع جديد عليك.

يقول وكيل الوزارة: هذه المبادرة أمر جدير بالتحية، لأنها ست شجع مستثمرين على دخولها بدلا من ترك العبء في كل شيء على الدولة.

تقول ليلى: بالفعل هذا ما نسعى إليه ، لأن خطة المؤسسة هي تقديم نموذج

fb/mashro3pdf

وتدعيمه ببعض الخدمات ، هناك أناس من المنطقة يفكرون فى إقامة مشروعات فى القرية.

يقول نيل: هذا مهم أيضا لتحقيق الاستقرار ودعم السلام فى تلك المنطقة الحيوية.

تقول ليلى: بالطبع.

تشير لنا بالتوجه الى المائدة، تقول تهانى ونحن ننهض: العالم سعيد والدنيا كلها بخير وبلا مشاكل.

أقول لها: أم نحن قادمون من عالم آخر؟

تقف ليلى فى منتصف المائدة وبجوارها د. فتحى ووكيل الوزارة والصحفى، وعصام يقف ومعه ميرفت يستكمل حديثا مع ريتشارد، يرفع نيل كأسه ويفعل البعض مثله، وينهمك الجميع فى الأكل والأحاديث الجانبية، تقول ليلى بصوت مرتفع: دافيد يسأل عن رد فعل الناس عامة، وكما قلت ، هناك تغييرات فى المجتمع البدوى الصحراوى جعلت الناس أقل عزلة، ويقبلون الأشياء الجديدة، المهم كيف نكسب ثقتهم.

يقول الصحفى بحماس: الفكرة نفسها، كيف استطاعت امرأة بمفردها أن تغزو مجتمع البدو، وتنفذ مثل هذا المشروع فى مكان منعزل كهذا، عمل جرىء وشجاع.

تعقب ليلى قائلة: لأنه جاء ورأى بنفسه على الطبيعية وأتمنى أن تذهبوا جميعا وتروا بأنفسكم .

يقول خالد: من المهم طبعا أن نرى المكان، أنا متشوق لرؤيته ، وهناك أشياء كثيرة أفكر فيها بشأنه ، وأفكار يمكن طرحها.

تتحرك بين الموجودين، تقترب منى قائلة: ماك سيسافر، وسأعود إلى هناك لأبدأ العمل.

fb/mashro3pdf

- ماذا فعلت؟

- تناقشنا معا، وهو متفهم لظروفى وارتباطى بالعمل هناك، وقررنا أن نكون أصدقاء أصابه ذلك ببعض الإحباط لكنه تقبل الأمر ، سليم اتصل، أخبرته أنه موجود، ورغم أننى عرفته أنه سيأتى إلا أنه غضب وأنهى المكالمة، سأكمله فيما بعد.

تعرفنى بمارتا قائلة إنها بولندية، ستقيم هنا لفترة فقد جاءت فى منحة لدراسة الآثار ومتخصصة فى الإجيبتولوجى.

أسألها عما تقوم به فتقول إنها تعد دراسة عن الحفريات الخاصة بأسر الدولة الحديثة فى سيناء.

تقول لى نهلة جانبا إنها كانت تتحدث معها قبل وصولنا بقليل، علمت أنها يهودية وأهلها يقيمون فى إسرائيل ، كانت تتحدث عن البيت الذى أقامته ليلى، وتقترح أن تكون المنطقة ذات طابع كوزموبوليتانى ، لا أعرف ما الذى تفعله ليلى بالضبط.

يسألنى يوسف عن أخبارى ، أسأله عما سمعته عن مركز الأبحاث والدراسات الذى يزمع إنشاءه.

يقول: أنا استفدت بعملى فى المؤسسة وأصبحت لدى خبرات وعلاقات، فكرت أن أستفيد بخبرتى وعلاقاتى فى إنشاء المركز .

يسألنى: لم لا تشاركين معنا فى الأبحاث، خسارة ان المجهود الذى تقومين به يظل حبيسا فى الأدراج، فهى فرصة لتحقيق افكار كثيرة.

أسأله: وكيف ؟

- جهات كثيرة تهتم بمثل تلك الأبحاث .

- تعرف أن ما أهتم به أشياء لا طائل من ورائها ومضيعة للوقت كما كنت تردد.

fb/mashro3pdf

– كنا نبحث عن الفرصة، وتلك كانت مرحلة، الظروف الآن مختلفة.

– كيف أصبحت تلك هى الفرصة الآن؟

ينظر إلى طويلا ثم يقول: دعك من ذلك الآن، أود أن نجلس معا ونتناقش بهدوء..

أنظر إلى الموجودين، ولا أستطيع المواصلة، أستأذن فى الانصراف.. تنهض تهانى ومصطفى ، يتبعهما عصام وميرفت.

أسلم وجهى لتيار هواء رطب، شوارع هادئة ساكنة وأضواء تتناثر بعيدا يضحكون ، جميعهم فالتفت إليهم وأجدهم ينظرون إلى .

– أين ذهبت.

يقول عصام: ما رأيكم فى فيللا ليلى؟

يقول مصطفى: فيللا السلام، او استراحة السلام.

يضحك عصام بشكل مبالغ فيه بتأثير الشراب.. لا، ملتقى السلام، ملتقى الاصدقاء .. لم تضيع وقتها، امرأة عصرية.

أقول : مارتا تقوم بدراسة للحفريات الأثرية فى سيناء ، اخبرتنى نهلة انها صهيونية، عبرت عن ذلك صراحة.. واختيارها للآثار بالذات.

– آه، لم تكونى معنا، هذا ما كنا نتحدث فيه الآن، كلهم، كلهم لديهم نفس الأفكار والمشروعات.

– آه، سمعت ماذا قال نيل، يعمل خبيرا فى الايد.

تقول تهانى: كارولين تركز على دور المرأة فى صنع السلام فى المنطقة.

يقاطع عصام بصوته المرتفع: وخالد.. يتفحص الموضوع ليبحث له عن نصيب فى الوليمة.

– فرصة عمل فى «الأورنس».

يطلق عصام صفيرا وإصبعيه فى فمه: هذه تستحقين عليها جائزة.. أخيرا قلت..

fb/mashro3pdf

(٢٧)

أقوم بجولات بين قسمى الحى، المساكن الحكومية ومساكن الأهالى، أتعرف على أجزاء الحى المختلفة، أتبادل حديثا عابرا مع الأهالى وأنا أسألهم عن بعض الأماكن، مشروعات إسكان متعددة امتدت حتى تخوم الأحياء المجاورة، لم تعد هناك أراض فضاء سوى بضع قطع صغيرة تتخلل المبانى ، بنيت كلها فى فترات متفاوتة، يطلق عليها أسماء مشروعات مثل: إسكان العرايس.. السادات.. السلام.. ٢٣ يوليو .. مساكن ناصر.. المنشية.. الزهراء ، لكن أغلبية السكان تسميها بأسماء أخرى منها أسماء بعض الأحياء التى تم تهجير سكانها الى تلك المناطق مثل الترجمان ، والمحمدى، أو الإيواء، والإسكان السريع، وتمتد المساكن فى عمق الحى حتى خطوط السكك الحديدية، التى تفصل بينه وبين أحياء أخرى قديمة، أما مساكن الأهالى فقد امتدت على الجانب الآخر حتى حدود بعض المصانع والمنشآت الحكومية، يصعب تمييز البيوت القديمة من الحديثة من شكلها العام، وإن كان يمكن ملاحظة ذلك من بضعة أشياء مثل انخفاض نوافذ الطوابق الأرضية بالنسبة لمستوى الطريق فى البيوت القديمة.

بيوت ذات مساحات صغيرة، يحوى كل طابق شقتين، أو شقة واحدة على نصف المساحة بنيت بشكل نمطى متكرر، شباك وشرفة صغيرة لكل شقة تطل على الشارع ، تتخللها بعض العمارات المبنية على مساحات

fb/mashro3pdf

كبيرة، معظمها على الشارع الرئيسى وأماكن أخرى متناثره داخل الحى، أميز مكان الترعة القديمة بشارع يقع فيه السوق ويبدو أكثر اتساعا، دكاكين كثيرة ، بقالة وبوتيكات بالإضافة إلى بعض الورش والمخازن التى تنتشر فى الحى، مناطق كثيرة لم تمتد إليها المرافق، وتحتل رئاسة الحى أحد البلوكات السكنية فى نهايته، كذلك بعض المكاتب الحكومية.

تزدحم الشوارع خاصة فى مواعيد الذهاب والعودة من العمل حيث يستقل الناس العربات المكتظة أو يقطعون المسافة سيرا على الأقدام للوصول إلى خارج الحى.

عبثا أحاول الحصول على بيانات محددة عن الأهالى والحى والمساكن من موظفى الحى الذين تكتظ مكاتبهم بالناس فى مواعيد العمل الرسمية، أمكث أوقاتا طويلة دون جدوى، أتبادل حديثا متقطعا مع الموظفين، لا أستطيع أن أعرف منهم حتى كيفية الحصول على تلك البيانات، مع انتصاف اليوم تخف حدة الزحام ويتسرب الموظفون واحدا وراء الآخر.

أتوجه لمكتب رئيس الحى، أخبر السكرتيرة أننى مهندسة وأود مقابلة رئيس الحى، تسألنى: مهندسة.. من أين ؟ أقول: أعمل بالوزارة ، بعد قليل تشير لى بالدخول ، المكتب به أشخاص آخرون ، ينهى حديثا مع أحدهم ثم يسألنى : بيانات بخصوص مساكن الشركة؟

- لا، عن الحى.

يشير لى بالجلوس ، ويواصل حديثا مع أحد الجالسين الى مكتبه ، ينتهى ويبدأ حديثا مع آخر، يرن الجرس وتأتى السكرتيرة ، يطلب منها بعض الأوراق، تضعها أمامه، بعد قليل ينهى حديثه ويلتفت إلى قائلا : نعم ، ماذا تريدين بالضبط؟

fb/mashro3pdf

- بيانات عن الحى، المساكن والمرافق والخدمات والسكان.

- لم بالتحديد؟

- دراسة عن الحى.

- تقييم لمشروعات الشركة؟

أهز رأسى كى أنهى استفساراته.

يتبادل حديثا مع البعض ينهيه ثم يقول: أية بيانات بالضبط؟

أسأل عن عدد السكان، فيقول: حوالى مليون.

أكرر سؤالى فيقول موضحا: فى آخر إحصاء أجرى منذ أربع سنوات كان عدد السكان حوالى ثمانمائة ألف ، أعتقد أنه الآن تجاوز المليون.

تدخل السكرتيرة ، يسألها : قلت إن دكتورا بالجامعة موجود .

يتكلم شاب من الجالسين قائلاً : أنا يا فندم .

ينظر إلى الكارت قائلاً : د . حسين عبد الباقى ، أهلاً وسهلاً .

- أنا من سكان الحى ، مدرس بكلية العلوم .

يقول لى : الحى ، به نسبة كبيرة من خريجى الجامعة يشغلون وظائف مرموقة ، وهذا يرفع من مستوى الحى .

يسأله : خيراً يا دكتور حسين ؟

- مشكلة المجارى المزمنة .. جئت عدة مرات ، وعدونى بحل دون جدوى ، الناموس الذى يهاجمنا ليل نهار ، البلوك الذى أسكن فيه غرق فى مياه المجارى وأصيب معظم السكان بالملاريا ، لا أستطيع العمل فى المنزل ولدى أبحاث أقوم بها ، ماذا نفعل بالضبط ؟

يهز رأسه قائلاً : كنا نتكلم فى ذلك بالفعل .

fb/mashro3pdf

– إننى أضع نفسى تحت تصرفكم فى أى حل تقترحونه ، المهم أن تحل هذه المشكلة .

– أنت بنفسك ؟

– نعم ، ولا غضاضة فى ذلك حتى لو حملت مقطفاً وفأساً ، فقد كنا نفعل ذلك ونحن طلبة ، وشاركت فى مشروعات خدمة البيئة وعملنا حملة نظافة ، ونظمنا الحى ، وكان المسئولون يدعموننا ، ولا مانع أن أعمل ذلك الآن ، إذا كان ذلك يساهم فى حل المشكلة .

– أحيى فيك هذه الروح ، ياليت الجميع يفكرون مثلك ، سأكلمهم كى يضعوا الإمكانيات المطلوبة تحت تصرفك ، وأى أدوات تحتاجونها ، وعليك تجميع الأهالى وتقودهم بنفسك .

– ليس لدى الوقت الكافى لذلك ، فلدى عملى وأبحاثى وارتباطاتى ، ولكن اعتبرنى مسئولاً عن البلوك الذى أسكن فيه وأيضاً البلوك المجاور لنا .. وعن الشارع .

يفكر قليلاً ثم يقول : نحن نشكرك على هذه المبادرة ، وسأكلمهم كى يدبروا الأمر ، وأيضاً لو احتجت أى شىء من الحى ، يضغط الزر ويطلب من السكرتيرة أن تصحبه بنفسها إلى أحد المسئولين بالحى .

يصافحه د . حسين قبل أن ينصرف قائلاً : شكراً سيادة العميد .

تخلو الحجرة بعد خروج د . حسين ، يستدير نحوى قائلاً : كما ترين، فالمشاكل لا تنتهى .

تفتح السكرتيرة الباب وتتنحى جانباً وهى تعلن : سيادة النائب .

ينهض عن مكتبه لاستقباله بحفاوة هو وثلاثة آخرون معه ، يبدو على معرفة بهم ، يجلس النائب قائلاً :كيف حالك يا باشا ؟ قلنا نمر عليك قبل أن ننصرف .

fb/mashro3pdf

يتبادل نظرات مع النائب والثلاثة الآخرين قائلاً : هييه .. الأمور تمام؟

يجيب النائب : حتى الآن معقول .. ولسه .

يقول أحد الرجال : عالم مخها مفكك .

يقول النائب : اهدأ أنت فقط .

يرد قائلاً : والله .. اتركنى فقط ، وسوف أعرف كيف أتعامل معهم .

يقول النائب : لا نريد الوقوع فى الخطأ ، وألا يمسك علينا أحد شيئاً، هم أنفسهم سيعيدون حساباتهم وسيجدون أن البيعة لا تستاهل .

يغمز له قائلا : وساعتها سيأتون لنا ونحن مستريحون .

يطلق رئيس الحى ضحكة طويلة قائلاً للرجل : اسمع الكلام ، واهدأ .

يقول النائب لرئيس الحى : سهرنا معهم بالأمس حتى ساعة متأخرة ، قلنا نجعل الولد بعيدا عنهم ، بدل أن يحملوه العملية كلها ، ما فيش داعى نخسره ، الولد نافعنا .

يقول الرجل : هو تربيتهم .

يقول النائب : صبرك .. المهم ، قالوا إنهم لن يمسوه ، وأعرف أن النفوس ليست صافية ، لكن خلنا معهم خطوة خطوة ، رحت فى الصباح قابلت متولى ، قلت له إذا أحببت أن تأخذ الأرض فسنتركها لك ، لكن هو عارف ولن يقدر ، عدم ظهورك فى الصورة كان أفيد .

يقول رئيس الحى : طب ولو الجماعة الآخرون عرفوا ؟

– يعرفوا ، وماله ، قلت الكلام الذى يمكن أن يصلهم ، وعبد الواحد كان معنا زمانه وصّل لهم كل حاجة .

تتسع ابتسامته وهما يتبادلان النظرات .

fb/mashro3pdf

ينتبه النائب لوجودى فجاة ، يسأل رئيس الحى وهو يشير إلى : عندكم من الحى ؟

– لا ، باشمهندسة من الوزارة ، وجاءت للمعاينة .

يقول النائب وهو ينظر إلى : ماسكة ورقة وقلم ، افتكرتك صحفية ولا حاجة .. أصل الموضوع حساس ، تعرفين أننا خارجون من أحداث صعبة ، والنفوس لم تهدأ بعد وأى خلاف بسيط حتى بين جيران يمكن أن يشعل المنطقة ، وفيه ناس بتستغلها .

يستدعى رئيس الحى السكرتيرة ، يلتفت إلى قائلاً : عطلناك ياباشمهندسة . ثم يوجه الكلام للسكرتيرة طالباً منها أن تتوجه بى إلى مكتب أحد موظفى الحى ، تقول إنه انصرف الآن ، يقول لى : يمكنك أن تمرى عليه فى أى وقت ، سيكون موجوداً .

أغادر المبنى متجهة إلى الشارع الرئيسى ، ألمح د . حسين ، ألحق به ، يتعرف على ، أعرفه بنفسى .

أسأله عما فعل مع الموظف المسئول ، يقول : وعود وكلام مثل كل مرة.

يسألنى : جئت فى مهمة من الوزارة ؟

– ليس بالضبط، دراسة عن الحى.

– فيم بالتحديد؟

– السكان والعمارة والبيوت.

يهز رأسه ويسأل: هل يمكنك توصيل صورة إلى المسئولين .

– أحاول .

يقترح أن يصطحبنى لأرى بنفسى، يعرج إلى شارع جانبى، يقول وهو يشير إلى الشارع الرئيسى : منذ حوالى عام ونصف والشارع هكذا، المواصلات

fb/mashro3pdf

لا تدخل الحى، ويضطر الناس الى قطع مسافات طويلة من داخل الحى، ولا نعرف متى سينتهى ذلك، قالوا إنهم يقومون بتركيب محطة معالجة للمجارى ضمن مشروع الصرف الصحى التابع للمعونة الأمريكية ، جمعوا بيانات عن السكان والمنطقة وسألوا عن كل كبيرة وصغيرة ، استغرقوا وقتا طويلا، والحال كما هو.

نعرج بين البلوكات حتى نبتعد عن الشارع ثم نصل إلى بعض البلوكات الغارقة فى مياه المجارى، وقد امتدت إلى المداخل واقتربت من نوافذ الطوابق الأرضية القريبة من سطح المياه، يشير إلى إحداها قائلا: أسكن هنا.

قطع من الأحجار وسط المياه ولوح خشبى فى المدخل ، رائحة لا تطاق ، نقف بعيداً لصق الجدار، يقول : تخيلى ماذا نضطر أن نفعل عند الدخول والخروج من البيت ؟ .

يلمحنا بعض السكان، يأتون مستطلعين ويسألونه، يقول : مهندسة من الإسكان.

يندفعون فى الشكوى رجالا وسيدات من أسراب الناموس ، وعن أسرهم التى أصيب معظم أفرادها بالملاريا والحمى، وأن الدواء أصبحت له ميزانية ثابتة حتى أنهم يضطرون لإغلاق زجاج النوافذ بشكل مستمر حتى فى أيام الصيف الحارة، يقولون إنهم يجمعون النقود من السكان لشراء حمولات من الأتربة لردم البرك وتعلية الشارع ، فتختفى المياه العطنة، ثم يفعل الجيران ذلك فى الشوارع المحيطة بهم فتعود المياه مرة أخرى، وأحيانا تنشأ مشاكل وشجار بين السكان لهذا السبب ، ولجأوا لكل الوسائل ، ومنها رش برك المياه بالمبيدات ، البيوت أصبحت خانقة ، يشيرون إلى المياه التى تسربت إلى السوق القريب، وعربات الخضر التى تقف فى وسطها ، والباعة الجائلون الذين يفترشون الأرض

fb/mashro3pdf

على الجانبين، فضلا عن الرائحة التى لا تطاق ورائحة المبيدات التى تسبب لهم الاختناق .

– هواء نظيف يا عالم !

يصرخون فى وجوه بعضهم البعض ، وتبكى سيدة لما أصاب أولادها ، وأحد أصحاب الدكاكين الذى اضطر إلى إغلاقه لتسرب المياه إلى داخله .

يقول د. حسين : ها أنت ترين بنفسك ، منذ شهور طويلة والأمر هكذا .

يصطحبنى وأنا أغادر المكان ، يقول إنه يقيم مع أسرته منذ خمسة عشر عاما، لكن الحى كان مختلفا ، وكانوا يأملون أن يكون أفضل مما كان ، لكنه أصبح أسوأ بكثير، ويقول إن الحصول على شقة كان أمراً سهلا ، فقد حصل والده على الشقة وكان يعمل خفيرا بالسكك الحديدية ، واستطاع أن يعلمه هو وإخوته حتى حصل على الدكتوراه، لكن ما ادخره هو لا يمكنه من الحصول على شقة إلا فى نفس الحى، الناس يتعرضون لضغوط كثيرة ، مشاكلهم لا تجد حلولا ، يمكن أن يلجأوا إلى أية طرق غير شرعية أو قانونية .

أسأله : كيف وقعت الأحداث الأخيرة ؟

يقول : بدأت فى مناطق داخل الحى بعيدا عن هنا ثم امتدت إلى كل مكان ، وكانت الاشتباكات وتبادل إطلاق النار يتم فى كل مكان بيد عناصر مختلفة من داخل الحى ومن خارجه ، وشاهدنا بعضا منهم ، الأحداث بدأت فى الداخل فى مناطق إسكان جديدة ، وبها بعض الخارجين على القانون .

نصل إلى الشارع الرئيسى الممتد داخل الحى، يصافحنى ثم يعود .

أسير فى نفس الشارع المبقور، ألمح عند نهايته مبنى محاطاً بسور ويتكون من عدة أجزاء، ذا نوافذ متسعة من زجاج داكن ، أقرأ لافتة على الباب «جمعية تنمية المجتمع» ، أقف أمامه قليلا ثم أعبر البوابة . مبنى نظيف ذو أرضية لامعة وردهة

fb/mashro3pdf

طويلة فيها مكاتب وتتفرع منها أجزاء المبنى الأخرى، معظم المكاتب مغلقة ، التقى بموظف، يسألنى عما أريد ، أعرفه بنفسى وأسأله عما إذا كان بالإمكان أن أرى المبنى ، يقول إن المبنى منحة من إحدى الهيئات الدولية «اف . أم . أو» ، وتم إنشاؤه منذ ثلاث سنوات ، يسبقنى إلى مكتب مفتوح ، يتحدث إلى أحد الأشخاص وهو يشير إلى ، يهز الآخر رأسه .

يصطحبنى إلى أجزاء المبنى وهو يصفها لى ، مركز تنظيم الأسرة ، وعيادة خارجية يؤكد أنها تحوى أجهزة طبية حديثة ، ومشغل فتيات ، ماكينات فى مكان هادئ ونظيف يؤكد أن أحداً لم يطرقه ، أبدى ملاحظة حول ذلك ، يقول لم ينتظمن فتوقف العمل، كذلك مكتبة الطفل التى صفت بها كتب بشكل يبرز الأغلفة وبعض ألعاب الأطفال وأرضية مغطاة بالموكيت، ثم يصطحبنى إلى قاعة مكيفة بها مقاعد وثيرة يقول إنها ناد للمسنين ، وتراس مكشوف يطل على حديقة، أسأله عن المترددين على المكان يقول تلك مشكلة لأن أهل الحى ليس لديهم الوعى للتردد على المكان كما أنهم يسيئون استخدامه ولا يهتمون بنظافته ولا بنظامه، فى حين أن الجماعة الأجانب منظمون ويتوخون الدقة، فهم يجمعون بيانات بدقة عن المترددين على المكان وعن كل شىء .

المفروض أن ذلك المكان تم إنشاؤه لرفع مستوى الحى، لكن الناس يلزمها الكثير من الوعى للتعامل مع تلك الأماكن ، كذلك عندما حاولنا تقديم خدمات للناس ثارت إشاعات مغرضة فأحجم الناس عن الإقبال .

أستفسر منه عن ذلك ، يقول : فى العيادة الشاملة مثلا ، قال بعض المغرضين إن الأدوية التى تصرف للمرضى ممنوعة دوليا ويتم تجربتها عليهم ، وهؤلاء أناس ليس لهم مصلحة إلا التخريب .

fb/mashro3pdf

(٢٨)

علامات تتحرك على الخارطة ، تنزلق على تضاريسها ، تغيب فى خطوطها ، تظهر وتختفى ، تتناثر وتتصادم فى كيانات غير مرئية ، تبدو آثارها بقع مكشوطة على الخارطة، أمسك عدسة مكبرة ، وأمعن النظر إليها ، تنطلق أسهم منها فى كل الاتجاهات .

حى جديد بدأ إنشاؤه كمنطقة جذب سكانى ، مساكن زهيدة الأجر ، ينمو الحى سريعا ، خليط من السكان من أماكن شتى، تقذف بهم المدينة إلى الأطراف التى أصبحت منافى ، بلا مبالاة ، شباب باحثون عن سكن رخيص يتناسب مع إمكانياتهم المحدودة ، وأسر هدمت بيوتها أو تصدعت ، وجيوب لأحياء داخل المدينة لأصحاب مهن هامشية ، وخارجين على القانون ، ارتفع ثمن الأرض التى يقيمون فيها ، منازعات بين السكان داخل المساكن وخارجها ، فرق من البلطجية يساعدهم ذوو النفوذ ويساندونهم .

أنظر إلى مساكن انتهى بناؤها منذ سنتين وتم تسليمها للسكان منذ عام ، مياه تسيل على الحوائط فى خطوط عطنة، برك بين البيوت ، نساء ورجال يجلسون على الأعتاب وحركة لا تهدأ داخلها ، وأطفال تزدحم بهم الطرقات .

– بيوت من ورق ، حوائط مفرغة لا نستطيع دق مسمار فيها ، أجهزة وأدوات هشة ، مفاتيح النور والحنفيات تنخلع فى أيدينا عند الاستعمال .

fb/mashro3pdf

يقول السكان وهم يشيرون للأبنية ، بلوكان من المساكن تصدعالعيوب فنية وتم إخلاؤهما من السكان، ولم يمض على بنائها بضعة شهور .

تقول امرأة بدينة تقف فى الشارع فى جلباب بيتى : كلما شكونا يقولون لنا احمدوا ربنا ، كنتم ساكنين فى عشش وأصبحت لكم بيوت .

يضج الناس حولها : لم نشك لهم ، هم الذين طردونا منها بالقوة.

– أعمالنا كانت هناك .

أسأله عن عمله ، يقول : بائع ملابس متجول .

– الأرض ثمنها ارتفع ، كسبوا منها ملايين وألقوا إلينا بملاليم.

يقول آخر : يتعاملون معنا كخارجين على القانون ، ويدفعون بنا للخروج على القانون .

تكمل سيدة وهى تشير للمياه التى تنزلق على الحوائط : بالذمة من هم المجرمون والخارجون على القانون ؟

يشق الجمع رجل فى أواسط العمر، تتجه إليه الأنظار .

– كفى ، قالوا إنهم سيحلون كل المشاكل .

تحيط به مجموعة من الشباب ، يتبين من حديثهم أنهم من السكان.

يقول أحد الواقفين : تدافع عنهم لمصلحتك أنت، وأنت تعرف أنهم لم ولن يفعلوا شيئاً .

يهم به الشباب المحيطون بالرجل الذى يقول : الحق على .

يبدأون بالتحرش به ، وتبدأ مشادة كلامية بينه وبينهم ، يتزاحم الناس حولهم، تجذب سيدة أحد الشباب وهى تطلب منه أن يبتعد عنهم بينما هو يتخلص منها ، ويتبين من الحديث أنه ابنها ، يتدخل بعض السكان وينقسمون ويمسكون بتلابيب

fb/mashro3pdf

الرجل الذى رد عليهم ، تتسع مشاجرة ، تنطلق صفارة ، ويأتى بعض رجال الشرطة .

يصطحبنى أحد السكان بعيدا وهو يشرح لى : هذا فتوة ، والشباب الذين معه يعملون لحساب أحد المقاولين ، وعن طريق علاقته بالمسئولين يمارسون إرهابهم على الناس، اشتكوا منه عدة مرات، وفى كل مرة يخلصه، وسبب عاهة لأحد السكان أثناء اعتدائه عليه، وخلصه منها المقاول .

ينصحنى البعض بمقابلة النائب السابق ، والذى هزم فى الانتخابات أمام النائب الحالى .

يقول : النائب الحالى والمجموعة التى معه هم السبب ، فلم يفعلوا شيئا حتى تراكمت المشاكل، والمقاول الذى بنى البلوكات المتصدعة من أنصاره ، وأجروا معه تحقيقا صوريا انتهى بأن يقوم بترميمها وهى حديثة التسليم ، المقاول القبطى أيضا كان من أكبر أنصاره ، لماذا أصدر بيانا ضده وتم القبض عليه بعد ذلك ؟ لن أتكلم أكثر من ذلك ، حاولى أن تعرفى بنفسك .

يستشهد ببعض المعارف والموظفين الموجودين فى مكتبه فى مصنع السيراميك الذى يملكه عند أطراف الحى ، يؤكدون كلامه ويحكون بعض التفاصيل، عن أنصار النائب من التجار والمقاولين وأصحاب الأعمال والمصالح فى الحى والمنطقة ومنهم أشخاص مشبوهون قيل إنهم كونوا ثرواتهم من الاتجار فى الممنوعات ، وإنهم استعانوا بفرق من البلطجية وأرباب السوابق وشباب عاطلين، قاموا بالاعتداء على الأهالى وتمزيق لافتات المرشحين المنافسين والاعتداء على أنصارهم، وكثيرون منهم تورطوا فى الأحداث الأخيرة .

معلومات متناثرة أحاول أن أجمعها ، وبيانات عن حالة المرافق والخدمات ، ثلاثة خطوط للمواصلات مخصصة للحى، ولا تدخله حاليا بسبب الحفر فى

fb/mashro3pdf

الشارع الرئيسى مما يضطر الناس لركوب العربات الجيب محشورين فيها لتقلهم خارج الحى أو السير لمسافة تصل فى بعض الأحيان إلى خمسة كيلومترات ، أربع مدارس ابتدائية ومدرستان إعداديتان ومدرسة ثانوية فنية، سلسلة مدارس للدروس الخصوصية تعمل من السادسة صباحا حتى الحادية عشرة مساء ، وعلى ست فترات ، يقوم بالتدريس فيها الشباب الذين لا يجدون فرص عمل وبعض الموظفين ، يتردد اسم عوض صاحب هذه المدارس ، أتذكر اسمه الذى تردد فى مكتب رئيس الحى أثناء اصطحابه للنائب .

لا يوجد مستشفى عام، أو مراكز للعلاج ، عيادات صغيرة متناثرة لأطباء ناشئين ، مناطق فى مساكن الأهالى لم تمتد إليها المرافق بعد، سكان من مهن مختلفة ، أغلبهم عمال وحرفيون وصغار موظفين وباعة جائلون .

زحام شديد وتكدس داخل الوحدات السكنية ، أبناء متزوجون يقيمون مع أسرهم فى نفس الشقة التى تتسع بالكاد لأسرة محدودة العدد، شجار داخل المسكن بين أفراد الأسرة وشجارات بين الجيران لا تنتهى، تصل أحيانا إلى حد الاشتباكات ويتدخل فيها كل أفراد الأسرة، وتنتهى بتدخل البوليس ، سواء فى مساكن الأهالى أو المساكن الحكومية .

تقول إحدى السيدات : صدر قرار بإخلاء المنزل الذى كنا نسكن فيه ، وكانت تلك هى الفرصة المتاحة أمامنا فى حدود إمكانياتنا ، الحى مختلف والجيران مختلفون ، لا يوجد إحساس بالأمان بين جيران كهؤلاء جاءوا من أماكن شتى لا تجمعنا بهم أى طباع .

يتعالى صياح سيدة فى الشارع : سيروحون فى داهية ، لابد أن يدخلوا السجن .

يتجمع حولها أطفال يشاكسونها فيزداد صياحها : وأنتم ستذهبون إلى الأحداث .

fb/mashro3pdf

يضحك البعض منها بينما ينظر المارة بلا مبالاة ، يتقدم منها رجل وهو يربت عليها .

تقول لى إحدى السيدات : تقيم هى وابنتها فى مسكن قريب ، ويقيم معهم فى شقة مقابلة فى نفس الطابق أسرة من خمسة عشر فردا يريدون الاستيلاء على شقتها، عرض أحد أبنائهم الزواج من ابنتها فرفضت لأنه متعطل ، وقد دأبوا على اقتحام مسكنها وسرقته والتعرض لابنتها لولا تدخل بعض الناس والجيران لحمايتها .

تقول جارة أخرى : لا أحد يستطيع أن يوقف سلوك هذا الشباب المستهتر الذين يتعرضون للسكان، وبعضهم يتعاطى مخدرات ويتصرفون وهم تحت تأثيرها .

يدلوننى فى كل مكان على أماكن أخرى ، وأتعرف على أجزاء الحى من خلال السكان أنفسهم ، أتعرف بالبعض منهم ، يصطحبوننى أثناء جولاتى.

ألتقى بموظف الحى الذى حولنى إليه رئيس الحى للحصول على البيانات ، وبعد المرور عليه لم أستطع أن أحصل على شئ منه ، مع وعد كل مرة بأنه سيجهز لى ما أريد ، يسألنى أثناء اللقاء لم لم أحضر للحصول عليها ويطلب منى أن أمر عليه بمكتبه ، وعندما أذهب إلى مكتبه يدعونى لمقابلة رئيس الحى .

يسألنى رئيس الحى بقوله إنه علم أننى قابلت النائب السابق ، ويؤكد أنهم يعرفون أدق الأمور التى تجرى فى أى مكان بالحى، يحاول أن يعرف منى ما قاله بالضبط ، أخبره أنه قال كلاما عاديا سمعته من بعض الناس ، يشير إلى المشاجرة التى حدثت بين السكان أثناء وجودى قائلا : المنطقة وضعها حساس ، وأى مشاجرة عابرة يمكن أن تتطور إلى أحداث جسيمة ، لذا يجب أن أتوخى

fb/mashro3pdf

الحذر ، فالمشاجرة وقعت لخطأ منى دون قصد ، ربما للطريقة التى وجهت بها أسئلة إلى السكان وحاولت أن أحصل بها على معلومات، ولابد أن يتم ذلك من خلال أحد موظفى الحى، وإذا أردت ذلك فعلى أن أتقدم إليه بخطاب رسمى من جهة العمل لأن ذلك يسهل مهمتى أكثر ويوضح الأمور بدلا من الحصول على معلومات مضللة من الناس .

يسألنى د. حسين : ماهو البحث الذى تقومين به عن العمارة فى الحى بالضبط؟ وما علاقة ذلك البيانات التى تحاولين الحصول عليها ؟ ثم علاقة كل ذلك بالأحداث الأخيرة ؟

أحاول أن أجيب على هذه الأسئلة أثناء تجوالى فى الحى، فى المساكن القديمة التى يقيم بها تبدو العلاقات مستقرة بين السكان ، يعرفنى ببعضهم ويعرفوننى بآخرين، أحاول أن أشرح لهم ، بشكل ما، ما أقوم به، يقترح على أحدهم أن التقى بأحد الشباب الذى رشح نفسه فى الانتخابات الأخيرة ، يقول : من خلال حملته الانتخابية قمنا بحملة توعية للأهالى ضد الحيتان الكبيرة من المرشحين لأنهم كلهم سواء ، حاربونا بكل الطرق، الضرب والبلطجة ، وأصيب المرشح بضربة مطواة .

ينتهى بى المطاف إلى مساكن الإيواء السريع بالحى .

– سبع سنوات ونحن مكدسون داخل هذه الحجرات التى يسمونها الإيواء السريع، حتى يتم تدبير مسكن لكل أسرة .

شقق تتكون كل منها من ثلاث حجرات ، تقيم بكل حجرة منها أسرة . الحجرات مكدسة بالأثاث ، وكذلك الصالة والمطبخ أيضا الذى تحول إلى حجرة .

– نعم كلنا نقيم هنا ، سبعة عشر فردا ، صدر قرار إخلاء للبيت الذى كنا

fb/mashro3pdf

نقيم فيه ، أقمنا عششاً ونقلنا أمتعتنا إليها وسعينا وراء المسئولين ، أعطوا كل أسرة حجرة كإيواء عاجل حتى يتم تدبير شقة لكل أسرة ، ومرت سبع سنوات ونحن على هذا الوضع، مكدسين داخل الشقق، الأطفال الصغار كبروا وأصبحوا شبانا وشابات فى هذا الوضع.

أنظر فى إحدى الشقق، لا أكاد أتخيل الوضع، ثمانية أفراد فى حجرة مكدسة بالأثاث ، بالكاد تسمح لمرور شخص ، تقول ربة الأسرة : ابنى الأكبر وزوجته وأطفاله الثلاثة يقيمون بالحجرة ، وهناك سرير فى الصالة تنام عليه ابنتى المطلقة وطفلها ، وأسفل السرير ينام الابن الآخر وزوجته وطفله، وأفترش الأرض ليلا أنا وابناى الآخران ، وفى حجرة أخرى يقيم رجل مسن وزوجته ، والحجرة الثالثة تقيم فيها أسرة من سبعة أفراد .

كلمات تتكرر على نفس الإيقاع ، مشاجرات بين السكان، كل أسرة تحاول طرد الأسر الأخرى كى تنفرد بالشقة ، يلجأون إلى كل الوسائل ، وشجار بسبب استئثار أسرة بالمطبخ لتحويله إلى حجرة إضافية .

تلاميذ يتسللون للاستذكار فى الجوامع وتحت أعمدة الإضاءة ، وآخرون لا يستطيعون مواصلة الدراسة ، أما البنات فتلك مشكلة ، أين يذهبن ؟

تتساقط دموع إحدى السيدات ، كنا نعيش مستورين فى شقتنا القديمة بإيجار زهيد ، حجرة وخمسة أبناء ، كيف تتزوج البنات؟ ومن الذى يقدم على الزواج منهن فى مكان كهذا ، أحد هؤلاء المتعطلين ؟

تكمل جارتها : زوجى أصبح عصبيا انتابته الأمراض ، بالله أين نذهب ؟

يسأل مصطفى : هل يمكن أن نجد مجالا لتنفيذ بعض الأفكار فى هذا الحى خاصة أنه حى جديد .

أسأله : عم تتكلم ؟ الوضع يختلف عن الأحياء الشعبية القديمة التى نعرفها .

fb/mashro3pdf

ينظر إلى متسائلا .

كانوا قد انتهوا من تأسيس المكتب وإعداده ، كدت ألا أتعرف على البيت، قاموا بطلائه وترميمه ، وبدا المدخل أكثر اتساعا ، أقاموا أحواضا للزرع على جانبى مدخل البيت، أما الشقة التى تحوى المكتب فكانت شيئا مختلفا تماما عما رأيته من قبل ، أثاث عملى وبسيط ، مكاتب . كراسى . مكتبة . حجرة للرسم . يقول : السكان أصبحوا يحرصون على نظافة البيت وجماله ، طلب منا سكان آخرين القيام بترميم بيوتهم وإضافة أفكار جديدة إليها ، ألم تلاحظى أن البيت شكله تغير ، هناك بيوت يمكن تحقيق ذلك فيها وهى مبنية بطريقة جيدة ، وبيوت أخرى تم استهلاكها بالفعل ولا تصلح للسكنى .

عصام يذهب إلى مقهى عمال البناء ، تعرف بهم واستعنا ببعضهم ، بدأنا بتعليمهم استخدام أساليب ووسائل جديدة فى العمل ، ونظم لهم شبه دورة فى المكتب لإكسابهم مهارات بشكل سليم، كانوا فرحين ويناقشون ما يقال لهم ، يمكن أن نتوسع فى ذلك مع تقدم العمل ، لا تتخيلى كم هو متحمس ومبدع، رأيى فيه هكذا طوال عمرى رغم أنه يبدو لا مباليا وساخرا ، عندما يجد فرصته فعلا سيعطى بحق .

حتى تهانى رغم ترددها فى البداية وقلقها عندما صفيت أعمالى بالمكتب إلا أنهـــا الآن متحمسة جداً رغم القلق الذى يساورها أحيانا ، وهى معذورة على أية حال ، تحملت تقلبات كثيرة حتى أننا فى فتـرة ما كان مرتبها هو الدخل الثابت لنا .

يأتى عصام ، يقول : لو قمنا بتأسيس جمعية للإسكان يمكننا أن نحقق أشياء كثيرة وتجذب أناسا آخرين ، عرضنا أفكارنا على بعض الجمعيات القائمة فعلا ، البعض يعتبر أفكارنا مغامرة، وآخرون مقتنعون رغم تحفظاتهم على أساس أن

fb/mashro3pdf

البناء يتم بطرق أسهل وأرخص ، بعض المسئولين عن الجمعيات لهم مصالح مع المقاولين وبعض شركات المقاولات ، لسنا مجرد مرممين للقديم فقط ، أود أن نقدم تصميماتنا و أفكارنا ، وبدأت اطرح فكرة تأسيس جمعية إسكان على بعض السكان وبعضهم أبدى استعدادا للانضمام وسنبدأ اجراءات الإشهار .

يسألنى : لم لا تأتين لتشاركى معنا بانتظام ، ماذا تفعلين فى الزاوية ؟

أحكى بشكل سريع عن بعض ما رأيته ، يستمعون باهتمام ، يقول مصطفى : نحن فعلا نجهل الكثير ، كيف أصبحت تلك الأحياء الجديدة فى الأطراف ، والنمو السرطانى العشوائى الذى اعتراها ، لماذا لا تعرضين تلك الأفكار ، أقصد نقيم ندوة هنا ، ندعو لها الناس ، وهناك بعض الشباب يعملون معنا .

أعود إلى البيت ، أفتح الباب وأجد أبى مستيقظا ، يجلس فى الصالة ، يبدأ كلاما محتدا ، وتغلبه نوبة من السعال، يتناول كوب الماء ، ويلتقط نفسا طويلا ، تلتمع عيناه بالغضب ، وتدور مقلتاه فى الحدقتين اللتين ضاقتا وتراكمت حولهما التجاعيد .

– جاء إلى بنفسه .. هنا .. فى البيت .

يكاد يتعثر فى المنضدة وهو يحاول النهوض ، ينحنى عليها بذراعيه ، أنهض وأمسك به ، أساعده على الجلوس ثانية .

– أبو العزم ؟

– نعم ، قلت له لن أترك البيت ، لن أبيعه مهما كان الأمر ، ماذا جئت لتفعل؟ رد على قائلا : نرفع السعر قليلا علشان خاطرك .

– أبلغت الوقاحة هذا الحد ؟

– قام وأخذ يتحسس الحوائط وهو يدب عليها بقبضته ويقول إن المنزل

fb/mashro3pdf

لا يساوى شيئا ولا يلزمه ، وإنه يشترى أرضا فقط ، وكل أهميته أنه ليس به سكان، وطابق واحد فقط ، وهذا يزيد سعره .

- البلطجى .. اللص .. الوقح .

تنطلق منى صرخة ، يتوقف أبى عن الحديث ، يحملق فى ، ويحاول أن يستعيد هدوءه .

- لن يحدث ، لن يجرؤ ..

ينظر كل منا للآخر ، يخبو التماع عينيه ، يقول : قلت له ما هو أكثر من ذلك، قال وهو يغادر المنزل ، غداً ستقول إننى على حق ، وستأتى إلى بنفسك ، لكنى لن أعاملك بالمثل .

دفقة من الدماء تندفع إلى رأسى ، أغمض عينى وكأنها ستندفع منهما .

يربت أبى على كتفى وهو يقول : لن يستطيع مهما فعل ، لكننى كبرت ، وأيامى معدودة ، ليس المهم الآن ، فكرى فيما هو آت .. ما ستفعلونه ، أنت وإخوتك.

fb/mashro3pdf

(٢٩)

أنظر إلى البيوت التى بليت وتاكلت أجزاء منها ولم يمض على إنشائها سنوات قليلة، صناديق مكتظة بالبشر، يصطحبنى بعض الشباب إلى أحد البلوكات ومعهم بقال من الحى إلى شقة فى الطابق الثانى، شقة ذات أثاث متواضع ، يستقبلنا الشاب الذى كان مرشحا فى الانتخابات .

يسألنى : ماذا رأيت ؟

- قابلت بعض الأهالى والمسئولين فى الحى .

- طبعا أخبروك فى الحى أن المسائل تمام ، وأن ما حدث شىء عارض .

يسألنى آخر : ألم تحاولى مقابلة النائب ؟

- التقيت به مصادفة فى مكتب رئيس الحى .

- طبعا ، فهم أصدقاء .

- علمت أنه فى بداية الأحداث أصدر بيانا أدان فيه المقاول القبطى لأنه استولى على أرض للأوقاف ، مما جعل البعض يقومون بالهجوم على منزله بعد إصدار البيان .

لقد فوجىء المقاول نفسه بالبيان ، لأنه كان من أنصار النائب فى الحملة الانتخابية ، بل إنه خصص له شقة فى أحد البيوت التى يملكها مقرا انتخابيا .

- وسمعت أن رجاله اشتبكوا مع أنصار النائب السابق المنافس .

fb/mashro3pdf

– وأكثر من هذا .

– كيف حدث إذن ما حدث ؟

– الانتخابات يقوم بتمويلها تجار ومقاولون وأصحاب أعمال وهم شبكة مترابطة من المصالح .

يتدخل البقال قائلا : وتجار مخدرات أيضا .

يضيف مؤكدا : منذ زمن وأنا فى الحى ، منذ كان أرضا زراعية ، وهم معروفون من السكان ولا يوجد سر يخفى ، وأنا لا يهمنى أى منهم .

يقول المرشح الشاب : الأرض أصلا كانت ملكا للأوقاف ، والمقاول القبطى استولى على جزء منها منذ سنوات بوضع اليد، وبمعرفة جميع المسئولين فى الحى وخارج الحى ومباركتهم، بل هم الذين ساعدوه على ذلك ، بنى بيتا على جزء منها والباقى أحاطه بسور يستخدمه كمخزن لمون البناء، وباقى الأرض أقيمت عليها مشروعات مساكن ومنها البلوك الذى به رئاسة الحى .

المقاول قبل الانتخابات قال للنائب إن الحى يفتقد وجود كنيسة كى يضفى صفة رسمية على استيلائه على الأرض بإقامة كنيسة على جزء منها ، ومن ناحية أخرى أقنع النائب أن بناء الكنيسة سيجلب له أصوات الناخبين المسيحيين وعددهم كبير فى الحى ، واستخرج تصريحا عن طريق الحى لبناء الكنيسة وقام بجمع تبرعات .

– وما الذى غير مسار الأحداث ؟

– المقاول نفسه لم يعرف السبب، فوجىء هو نفسه بالبيان الموقع عليه من النائب ، وتم القبض عليه فيما بعد، واتهم بأنه مدان فيما حدث لاغتصابه أرض الأوقاف، وفوجىء فى اليوم التالى بهجوم عليه فى بيته من بعض البلطجية وألقوا بنيران مشتعلة على البيت، واعتقد أنه بتحريض منهم ، لأن هؤلاء

fb/mashro3pdf

الأولاد على علاقة بهم، واستعانوا بهم فى الانتخابات ، وانساق وراءهم بعض السكان.

- وما دخل السكان بذلك ؟

- أثار هذا البيان مشاعرهم ، لأنه اغتصب الأرض ، وكثير من الأسر تنتظر دورها فى الحصول على مسكن ولديهم أبناء متزوجون يقيمون معهم مكدسين داخل الشقق، أو بعض أسر من الأقارب يقيمون معا .

يقول البقال موضحا : كان المقاول فى منافسة مع مقاول آخر من أنصار النائب أيضا واستطاع المنافس أن يضم النائب لصفه ، كذلك وجود خلافات أخرى ، فضحى النائب بالمقاول القبطى، وشوهد رجاله بين العناصر التى بدأت الهجوم وشاركت فى الأحداث التى جرت بعد ذلك فى الحى .

يلتقط المرشح الحديث قائلا : الحى يعانى من مشاكل كثيرة متفاقمة ، وتم خلق هذه الأحداث لامتصاص غضب الناس المتزايد لأن الأحداث كان يمكن أن تنفجر بشكل أو بآخر ، قبل الحادث بيوم جاءت عناصر من الجماعات الدينية وتجمعوا فى شبه مظاهرة فى الحى بعد صلاة العشاء ، وسماع الدرس ، تعرض فيه الخطيب للأقباط ، وحرض الموجودين بشكل سافر عليهم بدعوى الاستيلاء على أرض الأوقاف وبناء كنيسة بدلا من الجامع ، وفعلا كان البناء فى منتصفه وخلال يومين تم تحويله إلى جامع .

تفاصيل كثيرة ، تتناثر هنا وهناك ، تتحور معها الأحداث وتقفز بؤر أخرى على الخارطة أتنقل بينها .

يشير لى ضابط القسم بالجلوس بعد فترة من الانتظار خارج المكتب ، يسألنى: ماذا تفعلين بالضبط ؟

- هل لى أن أسأل أولا لماذا تم استدعائى ؟

fb/mashro3pdf

كلمات مقتضبة أثناء حديثه لا أتبين منها شيئا ، ثم يوجه لى سؤالا :

– أين تعملين ؟

– مهندسة بالوزارة .

– هل كلفوك فى الوزارة بعمل داخل الحى ؟

– ليس ذلك بالضبط .

– ماذا يعنى « ليس ذلك بالضبط» ؟ هل معك خطاب رسمى من جهة العمل ؟

– أقوم ببحث عن الحى .

– لماذا لم يتم ذلك من خلال رئاسة الحى ؟ أليس من الأفضل دخول البيوت من أبوابها ؟

– أنا باحثة وأدرى بعملى ، أردت دراسة المساكن ومعرفة آراء الناس ، وقد دخلت بيوتهم من أبوابها .

– وما هو هذا البحث ؟ عن ماذا بالضبط ؟

– كما قلت عن الحى والمساكن.

– ترددت على أماكن كثيرة ، وتكلمت مع أناس غير مسئولين ، وتصرفات غير مسئولة ، تسببت فى مشاجرة بين الناس ، وتكلمت فى أشياء ليس لها علاقة بعملك كمهندسة ، أشياء تحريضية .

– هذا غير صحيح و..

يقاطعنى قائلاً : نحن لسنا غافلين عن أى تحرك داخل الحى ، ولن ننتظر حتى تتدخل عناصر من خارج الحى وداخله لإثارة فتن بين الناس .

أتلفت حولى وأنا أعبر الشوارع ، أنظر خلفى ، شخص ما يتبعنى ، تتوه ملامحه بين وجوه عديدة ، أمر عبر شوارع ومنحنيات كثيرة ، وأتناسى وجوده .

fb/mashro3pdf

وجوه تطل من الحجرات ويتقدمون ، تمتلىء بهم الصالة ، يقول لى الجيران : أكثر الشقق ازدحاماً ، ستة وعشرون فرداً فى شقة واحدة .

أجلس فى حجرة مكدسة بالأثاث ، سيدة وزوجها وخمسة أبناء ، يقول زوجها المهم أن تبلغي المسئولين .

أسأل عن باقى الأسر فى الشقة ، تقول جارة لهم : لدى ثمانية أبناء ، وأسرة ثالثة لديهم سبعة أبناء وأم الزوج ، أتعرفين أكبر مشكلة تواجهنا هنا ؟ استخدام دورة المياه ، نعم ، عندما يستيقظ كل هؤلاء فى الصباح وهم متعجلون للذهاب للعمل والمدارس .

يقول الرجل : بعضنا يتوجه إلى المسجد .

تقول زوجته : كيف يرضى الله أن يكون هناك بنات وأولاد فى سن الشباب مكدسين فى مكان كهذا ، أصبحت لا أخرج من البيت كى أحرس بناتى ، أشياء لا تصدق ، يختنق صوتها .

تقول جارتها : تبدو الأمور هادئة ، لكن لا تتصورين ما يحدث ، اقتحموا حجرة جارة لنا فى بيت آخر ، حاولوا اغتصابها أثناء غياب زوجها ، وهم تحت تأثير المخدرات .

يقول الرجل : فى الصيف أقمت كشكاً فى المكان المتسع أمام البلوك ، وكنا نقيم فيه ، وعندما حل الشتاء اضطررنا للعودة للحجرة .

تقول الجارة : لى ابنة صغيرة ، تزوجت من رجل سعودى ولم تتجاوز السابعة عشرة ، يقولون إننى بعتها لشيخ عجوز ، لم أرها منذ سنوات ، أى حياة ستعيشها أسوأ من تلك ، ابنتى جميلة .. اسألهم ، لو كنا فى ظروف أخرى لتزوجت أحسن شاب .. لكن ظروفنا صعبة ، وزوجى رجل مريض .

أسير وسط صناديق مكدسة بالأوجاع ، أقترب من مبنى جامع حديث قيل إنه

fb/mashro3pdf

مكان الكنيسة التى لم يكتمل بناؤها وتحولت إلى جامع ، أتعثر فى أطفال يلهون ، وآخذ طريقى إلى الشارع الرئيسى ، وحين أصل إليه وأبدأ السير يبرز الرجل الذى كنت فى حجرته أمامى وهو يقبل مهرولاً ، يقول : سأتمشى معك إلى آخر الشارع .

– شكراً ، أعرف الطريق .

– أود أن أتحدث معك .

يتردد قليلاً وتختلج ملامحه ، ثم يقول دفعة واحدة : سأقتل ، وستكونين شاهدة يوماً ما .

أتوقف وأحملق فيه ، وهو يتصلب مكانه ، أسأله : تقتل ؟ من؟

– زوج هذه السيدة التى رأيتها .

– جارتكم؟

– نعم .

– كانت فى حجرتكم ، وتبدو علاقتكم بها عادية ولا يوحى الأمر بأى عداء .

– من الظاهر فقط ، فهى أفعى سامة ، لكن لابد أن أقتله وأقتلها أيضاً ، وستكونين شاهدة .

– كيف ؟ ولماذا ؟

– أولاً ، أريد أن أؤمن أولادى وأنقلهم إلى مكان بعيد آمن ثم أقتله .

– ما هى الحكاية بالضبط ؟

ترتعش ملامحه ، وتندفع الدماء إلى وجهه ، يمسح دمعة تنزلق من عينيه : اعتدوا على ابنتى .. اغتصبوها .

fb/mashro3pdf

– ابنتك أنت ؟

– نعم ، البنت الكبيرة التى رأيتها .. مازالت صغيرة ، حرضت زوجها على اغتصابها .

– لكن زوجها رجل مسن ومريض كما قالت ، ولديها بنات فى سن أكبر من ابنتك .

– ألم أقل لك إنها أفعى ، هى تقول ذلك حتى تكونى شاهدة .

– أنا شاهدة ؟

– نعم ، تدعى المسكنة ، وتقول هذا الكلام لتستشهد به فيما بعد ، زوجها متعطل ومجرم يتعاطى المخدرات ، وأولادها بلطجية ، وهى خططت كل شىء .

– كيف يحدث ذلك فى مكان مزدحم كهذا وأنتم موجودون فيه؟

– خرجت وزوجتى ذات يوم واصطحبنا الطفلين الصغيرين وتركنا البنت مع إخوتها ، جاءت إليها هذه المرأة وقالت للبنت إنها تريدها فى أمر ما ، والبنت على نيتها لا تدرى ، اصطحبتها إلى الشقة التى أسفل شقتنا ، وكان السكان موجودين يجلسون فى الصالة يشاهدون التليفزيون ومعهم جيران آخرون ، طلبت من البنت أن تحضر لها شيئاً من إحدى الحجرات الخاصة بالجيران ، والباب موارب بالكاد لوجود أثاث وراءه ، وعندما دخلت البنت الحجرة وجدت زوج السيدة ، أغلق الباب واغتصبها .

– والجيران موجودون بالصالة ؟

– نعم ، البنت قالت لى إنها صرخت ولم ينقذها أحد ، مزق ملابسها واغتصبها وهم يقزقزون اللب .

fb/mashro3pdf

– ألم يرها أحد ويسألها عما حدث ؟

– دخلت المرأة الحجرة بعد ذلك ، جاءت معها بثوب ألبسته لها وأعادتها إلى حجرتنا ، عندما عدنا كانت البنت منهارة ولا تقوى على الكلام ، ظلت على هذا الحال أياماً ، كنت أحترق وأنا أراها وأبكى معها أنا وأمها .

تنزلق دموعه وهو ينهنه .

– لماذا لم تبلغ الشرطة ؟

– الأمر سيثير فضيحة ، ولدى بنات أخريات ، وهذه الأفعى ستنتهز الفرصة لتشهر بالبنت وبنا ، وهو ما تريده ، ويمكن أن تنكر ، كما يمكن أن تأتى بشهود لذلك ولن يصدق أحد أن البنت تم اغتصابها هكذا ، وهى قادرة .. ليس أمامى من حل سوى أن أقتله وأقتلها ، ماذا ستفعل لى الشرطة ؟ هل تعيد لى شرفى ؟ ها أنت تعرفين وقد قلت لك كل شىء لتكونى شاهدة ، وقولى ما يرضى الله ، ولن آخذ عقوبة لو شهدت معى ، دفاع عن الشرف ، المهم أن أبعد أولادى من هنا إلى مكان آمن أولاً .

تحمر عيناه وينكس رأسه ويبكى : والله لا أدرى ما هو مصير هذه البنت المسكينة ، قلبى يتمزق أنا وأمها ونحن نراها منكسرة ذابلة أمامنا ، ولا نستطيع أن نفعل لها شيئا ، تصرخ وينتابها الفزع عندما تشاهد الرجل .

يعلو صوته وهو ينهنه : ما فائدتى كرجل وكأب عاجز أن يحمى بناته .

أحاول أن أهدئه ، يمسح عينيه ، يسألنى : ماذا سيكون مصيرها ..؟

لا أعرف ما الذى يمكن أن أقوله فى تلك اللحظة ، أقول : وماذا لو دخلت السجن ، ماذا سيكون مصير أطفالك ، هذا قد يعرضهم لما هو أسوأ .

fb/mashro3pdf

– أذهب إلى الجامع ، وأصلى كثيراً بقلب خالص ، تعرفت ببعض الإخوة المؤمنين ، فكرت أن أعرض عليهم المشكلة لكننى ، محرج .

أسأله : هل هناك خلافات بينكم وبين جيرانكم هؤلاء ؟

– مشاجرات عادية ، من تلك التى تحدث كل يوم بين الجيران .

– لماذا انتقمت منكم فى ابنتك على هذا النحو؟

– يريدون الاستيلاء على الشقة ، استولوا على المطبخ ، ولم نقل شيئاً ، أبناؤها يضايقون البنات بكل السبل ، وهى سيدة سيئة السلوك ، وأم سيئة ، وتريد أن تتخلص من زوجها ودبرت ذلك كى أقتله وتستريح منه ومنى .

– منك أنت ، لماذا ؟ ولماذا تقول إن زوجها مريض وتريد أن تحميه ، رغم أنها تريد التخلص منه ؟

– كى تبدو بريئة ولا يد لها فى شىء ، هى دائمة الشجار معه ، وهو يضربها ليحصل منها على النقود ليشترى مخدرات ، فهى تعمل بالخدمة فى البيوت ، وهو يستولى على ما معها من نقود ، وتخاف أن يجر رجلها لأنها التى حرضته ، دائماً كانت تشكو منه ، وكانت تأتى إلى فى الورشة التى أعمل بها كى تقترض نقوداً منى وتشكو زوجها ، فى البداية كنت أساعدها ، لكنها زودتها فطردتها .

– كيف زودتها ، ولماذا لا تطلب ذلك فى البيت وتتردد على الورشة ؟

يرتبك قليلاً ، ثم يقول : حتى لا يراها زوجها وأبناؤها ، لكننى طردتها ، زملائى فى الورشة يشهدون على ذلك ، كل شىء كان أمامهم .

يتردد قليلاً ثم يكمل : تطاردنى فى كل مكان ، فى الورشة والبيت ، حتى زوجتى لاحظت ذلك ، هى امرأة سيئة السلوك ، كنت أعطف عليها فقط ، وكانت

fb/mashro3pdf

تشكو لى زوجها وتقارننى به لأننى أهتم بأسرتى ، وكانت تقول ذلك لزوجتى ، لكنى طردتها وكدت أضربها ، قلت لها أن تبتعد عن طريقى .

يسير صامتاً ثم يقول : لست رجلاً سيئا ، كنا نعيش فى أمان وسط جيراننا ، تماماً كالأهل ، إلى أن جئنا هنا ، أنا تطوعت فى حرب ٥٦ وذهبت إلى بور سعيد مع الفدائيين .. دافعت عن البلد ، الآن لا أستطيع أن أحمى أسرتى ، ابنتى .. ، تلك الأفعى السامة لابد أن أقتلها .. أبكى أحياناً كالنساء ، وأحياناً اعتكف فى المسجد وأجلس مع الإخوة وأطلب من الله أن يهدينى ويفك كربى .

نصل إلى نهاية الشارع الرئيسى للحى ، يتوقف مصافحاً .

- عندما تأتين المرة القادمة سأريك إياه .

يزداد انفعالاً وهو يقول : لابد أن أقتله .

أصل إلى الشارع الرئيسى خارج الحى ، أتلفت حولى ، أتفحص الوجوه ، أحاول أن أتبين شيئاً ما، ينظر البعض نحوى بلا مبالاة ، وأنا أحاول أن أتعرف على وجه لقيته من قبل ، شخص ما يرقبنى عن قرب ، أسير بضع خطوات وعيناه على ، يتقدم نحوى ، أوقف تاكسيا وأسرع نحوه .

fb/mashro3pdf

(٣٠)

تسألنى إلهام زميلتى وأنا أجلس إلى مكتبى : ماذا فعلت ؟

تتطلع العيون نحوى .

- أجبت على أسئلته .

أنظر إلى الساعة وأجد أنها قاربت منتصف النهار ، ثلاث ساعات أمضيتها فى حجرة المحقق فى الشئون القانونية .

تسألنى بصوت خافت وهى تقترب منى : ماذا قال لك ؟ وماذا قلت؟

- أوقفت عن العمل حتى ينتهى التحقيق .

تتوقف الكلمات على شفتيها ، يسأل أحدهم : ماذا حدث ؟

تنظر إليه دون أن تتكلم ، ينهض ويقترب من المكتب ويقف أمامنا ، أقول بصوت مرتفع : تم إيقافى عن العمل .

يتجمعون حولى ، أفتح درج المكتب وأتناول بعض الأوراق ، وأضعها فى الحقيبة ثم أحملها لأنصرف .

تلحق بى إلهام ، وأنا أسير فى الطرقة : لا تسكتى على ذلك ، حاولى أن تشرحى الأمر للمدير العام ، ربما وصلته معلومات بشكل خاطىء ، وسينتهز البعض الفرصة لترديد أقاويل لا داعى لها .

fb/mashro3pdf

أشكرها على اهتمامها ، وأطمئنها علىّ ، فتواصل : لماذا صمت حتى يفعلوا ذلك ؟ .. مالك أنت وهذا ؟

أسير وسط زحام الشوارع .. أمعن فى السير ، تنداح المسافات وتسفر المدينة عن وجوهها .. أرقب خطوط الخارطة وهى تتلوى وتتداخل وتتشابك ، وتندفع فى اتجاهات شتى ، أضغط زراً ، يعاد تشكيل الخارطة بصورة أخرى .. وزرا آخر ..

أقف أمام الخارطة الألكترونية ، أحدد المعالم ، وأضغط زراً ، تبرق خيوط لامعة تتحرك على الخارطة كالمذنبات ثم تخبو كالشهب المتساقطة .

– أين الطريق إلى القاهرة ؟!

صمت ، علامة تعجب ، دهشة ، عيون تحملق ، تتفحص ، أسئلة ، تساؤلات .

– من أنت ؟ .. من أين جئت ؟

– عم تسألين بالضبط ؟

– أين تودين الذهاب ؟

تأخذنى اللعبة فأمعن فى السؤال وأرقب الأسارير والكلمات ، ينصرفون بخطى بطيئة وهم يتلفتون أو يتوقفون ، أو أتركهم وأنصرف .

– أين القاهرة ؟

– تعالى وأنا أجيبها لك .

ضحكة معربدة ، أصابع تدور بجوار الرأس : استنجالينا .

أشعر بخطوات تتبعنى ، أبتعد وأنا أنظر خلفى ، أعرج من شارع لآخر ،

fb/mashro3pdf

أسرع الخطى وسط الزحام ، أقف على الرصيف ، ألتصق بالجدار ، أرقب الوجوه وهى تمر أمامى .

جاءنا تقرير أنك ذهبت إلى هناك ، واتصلت ببعض العناصر وحاولت تحريض الناس ، وتسببت فى مشاجرة بين الأهالى كادت تتطور ويتصاعد الأمر ، وهناك شهود على ذلك ، ونظراً لحساسية الوضع بالمنطقة فهم يستفسرون حول طبيعة عملك فى الوزارة .

– وما شأن ذلك بالإدارة ، وبالوزارة ؟

– قدمت نفسك على أنك مهندسة بالوزارة .

– .. على أنى مهندسة بالوزارة ؟

– نعم ، ألم تقولى إنك مهندسة بالوزارة ؟

– نعم ، لأننى كذلك بالفعل .

– يسألوننا عما كلفناك به من عمل .

– لكنى لم أقل إننى مكلفة من الوزارة ، قلت إننى باحثة .

أصعد البرج ، أقف فى شرفته ، أنظر إلى المدينة يغمرها وهج الشمس ، تصطدم عيناى بتلك الصناديق العملاقة ، تحجب أجزاء منها وتغطى المرئيات ، تعكس واجهاتها الزجاجية اللامعة الوهج فى التماعات غامزة من جهاتها الأربع ، وتغطى المرئيات ، تدفع انعكاسات فى اتجاه ما ، صخور ناتئة فى بحر من الوهج، النيل يختنق بين جدرانها ويتحول إلى بركة راكدة ، تحجبه عن المدينة وتحجبها عنه .

أستدير فى وقفتى ، أشعر بحركة ما خفيفة وأرى شخصاً ما يتوارى مسرعاً، أدور فى الشرفة وأسمع خطواته وهو يهبط السلم .

fb/mashro3pdf

أخترق قلب المدينة وأتجاوز تلك الأبنية التى تتطاول فى سمائها .. أتشمم نكهة الشوارع القديمة وأتلمس التواريخ وأرتحل فى الأزمنة والمسافات ، أبحث عن المعالم والعلامات ، أعبر تعاريج المواسم وتعاقب الفصول ، أصعد تلال المقطم ، أصل إلى أعلى مكان فيه وأقف على حافته ، والمدينة تبدو سهلاً منبسطاً فسيحاً ، فضاؤه معبق بالتواريخ ، الصناديق العملاقة تولى ظهورها لها ، مسلات ومآذن وأبراج كنائس تشق الفضاء سامقة تتمركز فى مواضع شتى تنتهى كل منها عند نقطة مركز لدائرة واسعة تتداخل الدوائر فى دوامات تاريخية ، لا تدركها عيون البصاصين .

أجلس فى تلك البقعة على النيل ، أرتشف القهوة ، تنفثىء فقاعات على وجهها ، أرقب صفحة النيل الرصاصية الراكدة ، أبخرة ساخنة لزجة تتكاثف على وجهى ، هل غادر النيل البحر واستسلم للسكون ، ولم يعد يقودنى للشواطىء المترامية .

– سين سؤال : قمت بجمع معلومات عن الحى دون تصريح من الوزارة أو من جهة ما ؟

– نعم ، هذا صحيح .

– ما هى الجهة التى كلفتك بهذا البحث ، والحصول على هذه المعلومات ؟

– هذه المعلومات كانت تلزمنى فى دراسة الحى .

– نعم .. ما هى الجهة التى ستتقدمين إليها بهذا البحث؟

– لم أفكر بعد .. لكننى أود أن أعرف أولاً ، ولكى أعرف لابد أن تتوافر لدى المعلومات .

fb/mashro3pdf

– هناك دواعى أمن لدخول الغرباء إلى الحى ، والحصول على أية معلومات أتعلمين ذلك ؟

– لماذا ؟

– لماذا ؟! حتى لا تستغلها جهات مشبوهة لإثارة فتن وقلاقل بين السكان كما وقع فى الأحداث الأخيرة ، وكذلك فتلك أسرار خاصة لا يجب أن تطلع عليها جهات أجنبية أو يستغلونها لتشويه صورة مصر .

– أعلم أن هيئة المعونة الأمريكية جمعت معلومات كثيرة عن الحى وقامت باستطلاعات بين السكان ومن داخل بيوتهم أثناء تنفيذ مشروع الصرف الصحى ، وكذلك جمعية تنمية المجتمع التى أنشأتها مؤسسة أجنبية داخل الحى كبؤرة لجمع المعلومات ، فضلاً عن أن مراكز الأبحاث الأجنبية ، الطريق مفتوح أمامها داخل الحى وفى كل مكان للحصول على أية معلومات ولا تنقصها وسائل الاتصال .

أستشعر مرارة القهوة فى فمى ، أضع فنجان القهوة على المنضدة ، وحين ألتفت يسارع شخص ما برفع الجريدة أمام وجهه قبل أن أتبين ملامحه ، تخفى الجريدة وجهه ، لم أدر منذ متى وهو جالس هكذا على مسافة تتيح له مراقبتى ، أطيل النظر إليه وهو لا يحرك ساكناً والجريدة مثبتة أمام وجهه .. أنهض ، أتجه نحوه ، أخطف الجريدة من بين يديه ، أقف محملقة وتتوقف أنفاسى .

– يوسف !

ينظر إلى بدهشة وهو جالس مكانه ، ويمد يده مصافحاً .

– مفاجأة .

– حقاً .

fb/mashro3pdf

يفسح مقعداً فأجلس ، وعينى عليه ، شعره مشعث ووجهه شاحب وعيناه ذابلتان ، وقد حفرت التجاعيد خطوطاً حول فمه وعينيه .

– ماذا بك ؟

ينكس رأسه ، يلتقط نفساً طويلاً .

أقول له : كدت ألا أعرفك .

– وأنا أيضاً ، لمحتك لكننى لم أتعرف عليك .

– تغيرت كثيراً .

يتراجع فى مقعده ، ويزداد احمرار عينيه .

– ماذا حدث ؟

ينظر إلى طويلاً ويتمتم : أنت السبب .

– أنا ؟

– نعم.. أنت .

– فيم ؟

– تركتنى .. تركت كل شىء ، أزحت بقسوة كل شىء ، لم يبق لى شىء .

أحاول أن أتبين مغزى كلماته ، فيرددها ثانية .

– أنت الذى تغيرت ، لم تعد كما كنت ، لم يبق شىء منك ، ويوسف الذى عرفته ، تعرف أننى حاولت كثيراً .

– لكنك فى النهاية تخليت عنى ورحلت .

– تركنا ذلك وقتها إلى حين لم يأت .

– لو كنا معاً ما وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه .

fb/mashro3pdf

– كنت أشعر بالضياع وافتقاد كل الأشياء الحميمة فى عالمنا .. لم تحاول أن تفهم ذلك ، والبقاء كان يعنى مزيداً من الضياع .

نغادر المكان ، نسير فى شوارع إلى أماكن غير محددة ، يمسك بعود يابس ، يخط خطوطاً غير منتظمة وينظر إلى ، أقول : ليست تلك الخطوط ، وليست تلك الطرقات ، وليست البيوت والأحياء ، وليست المدينة .

– لم تطرقيها .. افعلى ، ستجدين كل شىء كما هو ، وكما تعرفينه .. أعرف أن الأمر يلتبس عليك ، حاولى .

– لم أفعل سوى أن أحاول .

– لكن الأمر يلتبس أحياناً بالمحاولة .

نسير بجوار حائط مرتفع من الأعواد اليابسة ، أسمع طقطقة الهشيم تحت أقدامنا ، وقدمى تنزلق على الأوراق الجافة .

يقول : أتذكرك ، أتذكر كل شىء وأنا أقلب الخرائط ، كم وددت أن نكون معاً فى نفس الأماكن .

– وها نحن معاً .

– كم من الوقت ضاع حتى تلك اللحظة .

أتحسس موطىء قدمى والأوراق تنزلق إلى الأمام والخلف وكل الاتجاهات .

– فيم تفكرين ؟

– فى النقطة التى مضى فيها كل منا وسار فى اتجاه .

نسير ، نسمات تهب ، ثم ينقلب الجو ويهب هواء حار محمل بالأتربة يمتلىء الفضاء بفتات الأوراق الهشة الجافة وهى تتطاير فى كل اتجاه ، أشعر بتعب

fb/mashro3pdf

وينتابنى دوار ، بينما هو مستمر فى كلامه ولا أكاد أسمع شيئاً مما يقول ، تتكاثف أبخرة ساخنة أمام عينى ولا أتبين ملامحه ، أشعر به يجذب ذراعى ونحن سائران ، ويشير إلى أشياء لا أتبين كنهها ، أشعر بصعوبة فى نقل خطواتى وأتكىء على ذراعه ، تتخاذل ساقى ، يتلقفنى بين ذراعيه ، يمدد جسدى ، تغيب المرئيات وأنا أحاول جاهدة أن أراه .. ضوء قليل شاحب ، يؤلم عينى ، أنفاس تتردد حولى وثقل فى رأسى ، أحاول أن أمد يدى لأتلمس شيئاً ما ، وأشحذ ما تبقى فى ذهنى وأبدأ فى العد مثلما طلب منى الطبيب ذلك بعد إعطائى حقنة البنج قبل إجراء عملية استئصال اللوزتين ، واحد .. اثنين .. ثلاااا لا ..

أنتبه إلى قرقعة الهشيم ، وخوار نهم ، ورائحة حموضة ، أدفع بيدى الثقل الجاثم فوقى ، تقبض يدى على مقبضين صلبين ذوى ملمس خشن ، أنتبه معهما إلى استدارة القرنين ، أدفعه بعيداً ، أرى رءوساً تطل من كوات فى الجدران وهى تخور ، أراه يستدير وهو ينطح الباب برأسه ، أحاول النهوض من فوق الكومة الملوثة بالبلل والروث ، بينما يتعالى الخوار ، أتجه إلى الباب ، أراه يمشى مترنحاً ليلحق بالقطيع ، يتوقف ليتشمم مؤخرة إحدى النعاج وهى تسير متلكئة مطوحة إليتها على الجانبين .

- يوسف .

أراه حين اندفع إلى الميدان وسط الجموع الحاشدة ، يتقدم الصفوف ممسكاً صارية العلم ، بالونات ملونة وأعلام مرفرفة تحلق فى سماء الميدان ، يأتى الناس من كل اتجاه متزاحمين .. .. تتقدم صفوف الجنود وتشق الجموع فيفسحون لها، يبدأ العرض العسكرى ، يهتفون بأصوات عالية ، وتتردد الهتافات من مكبرات الصوت ، الطائرات ترسم فى السماء العالية كلمات :حرية .اشتراكية . نصر . وحدة ، تمر فرق المشاهر والخيالة ، ويتقدم قول الدبابات ، عربات تحمل

fb/mashro3pdf

الصواريخ ، وأسراب الطائرات تحلق منخفضة .. باقات الزهور تغطى النصب التذكارى للجندى المجهول ، والحناجر تدوى بالهتافات .. أعقد الشريط الملون فى شعرى وأثبت فيه وردة طازجة ، ينساب صوت العندليب الأسمر ونغنى معه حيث التقطت لنا الصورة فى قلب الميدان ، وفيه تظهر طوابير العرض العسكرى بالتتابع وهى تشق الجموع ، أدخنة المصانع وخضرة الحقول فى خلفية الصورة ، نظهر نحن فى مقدمة الصورة ونحن نرتدى زى الكشافة ، نرفع الأعلام والبالونات الملونة واللافتات «هذا الجيل جاء فى موعده مع القدر» . «الجيل الصاعد .. عاش» . «علم بلا طبقية ، علم بلا احتكار ، علم بلا كهنوت» .

فى الصورة تظهر أمى مع أمهـــات أخريات ، يحطن بعضهن البعض بأذرعهن ضاحكات ، أمى ترتدى فستانها الجديد ذا الذيل الفضفاض وأطرافه متطايرة .

أبى يقف فى مكان عال حاملاً أخى محمد على كتفه وهو يمسكه بيده ويلوح باليد الأخرى وأخى يلوح بكلتا يديه باسماً ، وتظهر أبلة سميحة وأبيه شوقى خطيبها وأبلة عايدة والأستاذ كمال ويبدو بطنها منتفخاً فى بداية حملها فى ياسر ، ولويزا وأخواتها وتقف معها سناء أختى ، وعزة تقلد الضابط الواقف أمامها والبنات يتضاحكن ، نساء فى جلابيب سوداء يزغردن ، ورجال فى جلابيب بلدية وبدل أو قمصان اسبور ، يظهر أبو العزم وصبيانه أيضاً ولا تبدو القاعدة الخالية فى الميدان من الناس الذين تجمعوا حولها وقد وقف البعض متزاحمين فوقها .

يمضى الوقت فى الغناء وتتردد الهتـــافات ، نتجه إلى القاعدة الخالية ، وصفوف الجند يأتون مسرعين بالدروع والعصى من كل اتجاه ، يحيطون بنا ، يقتربون يلقون بقنابل الدخان ، نختنق ولا يستطيع أحدنا رؤية الآخر .

fb/mashro3pdf

تندفع الكتل البشرية إلى الشوارع الجانبية ، يختفون فيها ، ولا أحد يدرى إلى أين مضوا بالضبط أو أين اختفوا .

.. تهب موجة باردة ، أنتبه معها إلى الوقت الذى يوغل فى المساء ، أسير على الرصيف ، تتبعنى عينا جندى حتى أبتعد ، ألقى نظرة على الميدان الخالى إلا من قليل من المارة وبضع سيارات تقطعه ، أنظر إلى مكان القاعدة التى أزيلت من مكانها ، والميدان يلهث بخليط من أضواء الإعلانات .

fb/mashro3pdf

(٣١)

أكتب فى البداية فرضية أنه إذا أنشىء حى سكنى فى فترة زمنية معينة ، فإنه يحمل ملامح تلك الفترة ، أكتب عن الفترة الزمنية التى بدأت فيها منطقة الزاوية تتحول من منطقة زراعية على أطراف المدينة إلى حى سكنى ، ثم أتناول مراحلها ، بما طرأ عليها من تغييرات ، وبما أضفته على الحى حتى أصبح بالصورة التى هو عليها الآن ، تقفز إلى ذهنى عبارة للناقد الألمانى الساخر هاينريش تزيللا : «يمكنك قتل امرىء ببناية كما تقتله بفأس» .

تطوف بذهنى أيضاً بعض الأحياء الجديدة ذات العمارات الشاهقة والأبراج التى تناثرت فى أماكن مختلفة لتحل محل أبنية قديمة ، بعضها ذو أهمية خاصة ومساحات لفراغات وحدائق داخل المدينة .

كان تزيللا يقول عبارته فى معرض الحديث عن العلو الشاهق للأبنية ، والخطر الذى تقف فيه العمارة فوق أنها مجرد فنون .

هل المفارقة التى تكمن بين هذا وذاك هى نفسها الوجه والوجه الآخر اللذان تنطبق عليهما معا نفس العبارة ، ويحملان معاً ملامح تلك الفترة.

أعد كوبين من الشاى ، أقدم أحدهما لأبى ، وهو جالس أمام التليفزيون مترقباً حلول المسلسل اليومى بعد انتهاء الفقرة الإعلانية .

fb/mashro3pdf

أكتب عن الأحياء القديمة التى يتم خلخلتها من السكان واستئثار أصحاب الأموال بالبيوت والأراضى ، وإعادة تشكيلها وبنائها بهذا الشكل الشائه والمتنافر، أشكال نمطية من العمارة والصناديق العملاقة ، ثم إبعاد السكان الذين سقطوا من تلك الحسابات إلى أحياء جديدة فى الأطراف يفتقدون فيها علاقات الجيرة القديمة وانعدام فرص الاختيار تماماً ، مع القصور الشديد فى الخدمات والمرافق وسبل العيش وتعبئتهم فى صناديق هشة سرعان ما تتآكل ويصيبها البلى ، مجرد منافٍ فى الأطراف ، تخلو من الخيال وتقتل الحلم .

أكتب عن الأحياء الجديدة التى من المفروض أن تكون أكثر حداثة وتطوراً لتكون مركز جذب سكانى .. ، يقفز إلى ذهنى عنوان : «من الجذب السكانى إلى القهر الإسكانى» .

أعيد ترتيب العناصر والأفكار تحت هذا العنوان وأبدأ الكتابة .

يقول مصطفى : واقع جديد يتكون ويتشكل ، نجهله تماماً ، ولا نعرف عنه إلا ما يترامى إلينا بالمصادفة .

وجوه كثيرة تطالعنى ، أبدأ فى قراءة الأوراق التى أعددتها ، أتركها جانباً بعد لحظة ، وأحكى عن زيـــاراتى للحى ، أحكى عن زياراتنا الأولى فى السنة الدراسية الأخيرة وما كنا نفكر فيه أثناء عملية الرفع المعمارى للمنطقة ووضع تصورات عنها والتخطيط لذلك كما تراءى لنا وقتها ، وكيف كانت صورة المنطقة فى تلك الفتـــرة ومـا ينتظرها ، تتـــوارد إلى ذهنى أثناء الحديث صور تلك البيوت التى صممناها ، وحلمنا أن تتحقق ، أجد نفسى أتحدث عنها رغم أننى كنت قد نسيتها منذ زمن طويل .

أحكى بعد ذلك عن الزيارات التى قمت بها للحى مؤخراً ، وعما اكتشفته أثناء

fb/mashro3pdf

كل زيارة ، عن المبانى والبيوت والناس الذين التقيت بهم وعرفتهم ، والوقائع التى جرت ، وتتدفق التفاصيل .

دموع تهـــانى ، وتعليق مديحة عن الاغتصـــاب وقهر المرأة . شـــباب جدد يتساءلون . غضب . احتجاج وكلمات متأنية ، تتأرجح بى القاعة وتتمايل الرءوس، مرايا تسفر عن وجهى بأشكال شتى مثلما كنت أراه فى بيت المرايا بالملاهى .

أدور حول نفسى كى أستطيع أن أرى الأشـــياء كلها فى وقت واحد ، وأدور كى لا تغيب عن عينى ، أغمض عينى وأسـرع فى الدوران ، فتتداخل ملامحها وتتمازج ، تتجمع فى شريط يحيط بى ، أغمض عينى وأسرع يلتف الشريط حولى كالشرنقة ، أتخبط بين جدرانه ، أنفـذ من كوه صغيرة أنجذب إلى غلالة من الضوء أسكن داخلها . أفتح نافذة على البحر ، وامتلىء بالرياح . أرقب مطر برى يغسل الجدران ، تتجمع قطراته وتتسرب حافرة خطوطا ، مياه طازجة أراها من خلال جدران شفافة تتخللها أشعة الشمس .

أنتبه ، وأجدنى وأنا مستلقية على الفراش بملابسى أصوات تتداخل من كل اتجاه ثم تخفت تدريجياً إلى صمت يتخلله صوت يتردد برتابة ، وأبى الذى غلبه النعاس وهو جالس أمام التليفزيون مضطجعاً فى مقعده ، ألتقط المسبحة التى سـقطت من يده ، وأوقظه كى يذهب إلى الفراش ، ينتبـه ويسـألنى عن الوقت ، يقول : ياه ، لم أصل العشاء بعد .

تستوقفنى الكاميرا وهى تتخلل أجزاء من المدينة وتبرز قطاعات منها ، صور من أماكن مرتفعـــة تقترب وتتباعد تـــركز على بعض الأبنيـــة الأثرية ولا تبين مـا حولها، الجوامع القديمة والمآذن ، تكشف قطاعا من شاطىء النيل والأبنية المرتفعة تحيط بجانب منه ، ثم تقف الكاميرا عليها من بعيد ، نتبين الواجهة فقط ،

fb/mashro3pdf

وصوت المذيعة مصاحب للكاميرا ، تتحدث عن المدينة العريقة ذات المجد التليد ، عن سحرها وفتنتها . ترتفع الكاميرا من أسفل الأبنية إلى أعلاها وتتباعد لتكشف تلك الأبنية التى تحجب المدينة وراءها، والنيل يبدو شريطا داكناً وساكناً أمامها ، تقول المذيعة إن المدينة رغم تاريخها القديم فهى تأخذ بأحدث الأساليب فى البنا ، والتى تضاهى مدناً كثيرة فى العالم ، تعلن أنها تستضيف أحد خبراء الإسكان والتخطيط العمرانى الذى يولى المدينة اهتماماً كبيراً .

يوسف !

أحملق فى صورته التى تملأ الشاشة مبتسماً متأنقاً ، يتحدث عن النمو العمرانى للمدينة والجهود المبذولة فى عمليات الإحلال للأبنية القديمة ، وإقامة أبنية عصرية حديثة تجعل منها مدينة عصرية بحق تسعى للحاق بركاب العصر ، وعن ضرورة تحديث الأحياء القديمة مع إبقاء الأبنية الأثرية كما هى ، تعود الكاميرا إلى بعض الأبنية الضخمة الرئيسية التى بنيت فى الفترات التالية وتهبط على إحداها ، وهو يقول : لابد من الاستفادة بأحدث الأساليب المتبعة فى الدول المتقدمة والتوسع فى بناء أحياء جديدة حتى يخف الضغط على الأحياء القديمة التى تحتاج إلى تطور بدرجة أكبر وفقاً لهذه الأساليب الحديثة ، ولابد أن يكون هناك حراك سكانى من قلب المدينة إلى الأطراف ..

أوقف التليفزيون وأعود إلى حجرتى ، أغرس أظافرى فى تلك الأبنية ، أمزق الواجهات اللامعة ، أكم من «زاوية» تحتويها بداخلها .

أنظر إلى الأوراق المكدسة داخل الملفات ، أطالع العناوين التى كتبتها على أغلفة الملفات ، أفض الأوراق منها وأضعها على الأرض ، أبحاث ، أفكار . مقالات. مشروعات . آراء . تصميمات . خرائط . تواريخ . استطلاعات .

fb/mashro3pdf

تمتلىء بها أرض الغرفة ، وتخلو الأرفف تماماً ، أخطو حولها ثم أجلس على الأرض ، أكومها أمامى وأنا أتصفحها سريعاً .

يمضى بى الوقت .

أتناول بعضها وألصقها بى ، أربطها إلى جسدى ، ثم أتناول أخرى وأشد الرباط حولها وهى تتزايد وتتراكم حول جسدى حتى أنتهى من لفها كلها حول جسدى بإحكام ، أرتدى معطفاً فضفاضاً ، وأخرج إلى الشارع .

أهبط إلى الميدان فى غبش الصباح المضبب ، ألمح الناس وهم يمرقون مسرعين إلى أعمالهم ، أطوف بأرجاء الميدان ، أنظر إلى المكان الخالى من القاعدة الخالية فى منتصف الميدان ، أنتهى من دورتى وأعبر الطريق ، أقف فى نفس المكان .. أفتح أزرار المعطف ثم أخلعه ، تتطاير بعض الأوراق ، وأظل واقفة مكانى ، المارة يلمحوننى فى نظرات عابرة وهم يمرون مسرعين ، تتقشر عنى أوراق وتتطاير ، تصبح فى متناول بعض العابرين ، يتناولونها وهم يتطلعون حولهم حتى تقع نظراتهم على ، تتفكك الأربطة وتتقشر أوراق أخرى عن جسدى ، يبطئون الخطى أمامى متطلعين بفضول ، تتطاير كل الأوراق ، وأقف عارية فى قلب الميدان .

الطباعة : مؤسسة دار الهلال ـ القاهرة

طبعة خاصة بمكتبة الأسرة ٢٠٠٧

fb/mashro3pdf

مازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت. لأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر وإعلاء المثل العليا وقيم العمل وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان. وتكوين ثقافة المجتمع يبدأ بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة. وستظل وسيلة المعرفة الخالدة هى الكتاب الذى يساهم فى إرساء دعائم التنمية وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

سوزان مبارك

ISBN: 977415021

٢ جنيه

fb/mashro3pdf